منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
أطروحات ورسائل 10

الحركة العياشية

حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17

تأليف
عبد اللطيف الشاذلي

1982

بسم الله الرحمن الرحيم

نوقش هذا البحث يوم 28 محرم 1395 موافق 10 فبراير 1975 بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط أمام لجنة مكونة من السادة الأساتذة محمد زنيبر وإبراهيم بوطالب وجرمان عياش . ونال دبلوم الدراسات العليا في التاريخ بميزة حسن جدا .

فهـرس

مقدمة

تتخلل تاريخ البلاد فترات تتصف ببعض الغموض. ومن هاته الفترات تلك التي تفصل بين نهاية حكم الادارسة وبداية الدولة المرابطية (القرن الرابع/ العاشر)، والتي تفصل بين نهاية بني مرين وبداية السعديين (القرن العاشر/ السادس عشر)، والتي تفصل بين وفاة أحمد المنصور السعدي وبداية استقرار العلويين (القرن الحادي عشر/ السابع عشر). وغموض هاته الفترات غموض نسبي، ذلك أن الفترات المذكورة معروفة — على الأقل — في الخطوط العريضة للأحداث، وكثير من احداثها يملأ كتب التاريخ والتراجم المغربية... الا أن مدار الحديث فيما ذكر من المؤلفات يكون في الغالب حول شخصيات الاحداث الرئيسية التي تستقر عادة في العواصم أو المدن الرئيسية. الشيء الذي يجعل تلك المراكز تستأثر بانتباه واهتمام المؤرخ الذي يسلط عليها نوره الكشاف، في حين تبقَى المناطق البعيدة جغرافيا عن المراكز الرئيسية في ظلام لا يقلل من حلكته الا ما يفرضه تحرك الشخصيات الرئيسية على مسرح البلاد. بحيث لا يهتم المؤرخ المغربي القديم بالاقاليم الا من خلال اتصالاتها وعلاقاتها بالشخصيات التي سميناها رئيسية. وتبقَى تلك الأقاليم مجهولة أو شبه مجهولة. وحتَّى اذا توفرت بعض المعلومات عنها فانها تظل مبعثرة لا تربط بينها أية صلة منطقية معقولة، وتظل وضعيات الاقاليم المغربية محاطة بمجموعة من علامات الاستفهام، الشيء الذي لا يمكن بالطبع من وضع لوحة شاملة لكل البلاد في الفترات المذكورة آنفا، وهذا هو أساس الغموض الذي نصادفه في تاريخ تلك الفترات.

وتفسير هاته الملاحظة يكمن – دون شك – في أن المؤرخين المغاربة القدماء – أو معظمهم – كانوا مرتبطين رسميا ، باعتبارهم مؤرخين رسميين ، او عاطفيا بالملوك الذين يشكلون في نظرهم محور الاحداث ، فيبتعدون عن الحديث عن الشخصيات الجهوية ، وبالتالي عن الأقاليم ، باعتبارها شخصيات معادية احيانا للسلطة المركزية أو منافسة لها .

وتعطي فترة النصف الأول للقرن 17/11 المثال النموذجي الذي تنطبق عليه هاته الملاحظة اذ يكفي تصفح كتاب : نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي – وهو أهم ما كتب المغاربة عن الفترة – للاحظة أن الحديث عن أبي محلي وأبي زكرياء يحيَى الحاحي وأهل الدلاء حديث جد مختصر ، لا يعدو ان يكون في عمومه عرضا لعلاقات الشخصيات المذكورة بالسلطة المركزية . اما المقومات الشخصية لتلك الشخصيات وتنظيمات حركاتها والدور الذي لعبته في تاريخ البلاد ، فتلك جوانب لا يشير اليها اليفرني الا بسيط الاشارة .

وبذلك ظلت هذه الشخصيات مغمورة منسية ، قوام تاريخها وعملياتها اشارات في كتب التراجم ، إلى أن بدأت بعض الدراسات المتاخرة تنفض الغبار عنها . فظهرت دراسات عن أبي حسون السملالي وعاصمته اليغ ، وعن الزاوية الدلائية ...

بينما بقيت مقومات حركة أخرى – حركة المجاهد أبي عبد الله محمد العياشي – مغمورة تحوطها هالة من الاكبار المشوب بنوع من التهيب ، انزل بعض الناس زعيمها منزلة الولاية ووراوا فيه الامام ... دون أن يزيل ذلك عن الشخصية وحركتها بعضا من غموضها ، وهذا على مكانة الرجل واهمية الحركة التي تزعمها والتي حركت تاريخ البلاد خلال ما يقارب النصف قرن . حقا ، تعرض للحديث عن العياشي أكثر من كاتب وورد اسمه في أكثر من مؤلف ، واثارت حركته انتباه أكثر من باحث ، ولكن

ذلك لم يكن كافيا لتناول الحركة وزعيمها بكل ما تستحق ويستحق من أهمية . ويظهر ذلك من خلال استعراض المؤلفات التي تحدثت عن المجاهد .

وتصنف هذه المؤلفات إلى المجموعات التالية :

المجمـوعة الأولى :

قوامها مؤلفات تشكل المصادر الأولية لموضوع الحركة العياشية : مثل نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي لليفرني ، والاستقصا لاخبار المغرب الأقصَى للناصري ، ونشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للقادري وتاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول ، وصفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر لليفرني أيضا ، والبدور الضاوية لسليمان الحوات ... وتدخل في هذه المجموعة أيضا المؤلفات التي اعتمد عليها مؤلفو المصادر المذكورة ، والتي امكنني الاطلاع على بعضها مثل كتاب المحاضرات لليوسي ، أو على جزء منها لانعدام الكل مثل «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين» للشاوي الغنامي ، أو التي لم أتمكن من الاطلاع عليها مثل «مطمح النظر ومرسل العبر باخبار من غبر من أهل القرن الحادي عشر» لمحمد الطيب الفاسي ...

وتشكل هذه المصادر المادة الأولية للموضوع ، غير أنها ــ باعتبارها مادة أولية ــ تفتقد صفة الصفاء والخلو من الشوائب . بالاضافة إلى ان مؤلفيها ــ اعتبارا لنظرتهم للتاريخ ــ أوردوا معلوماتهم عن العياشي بشكل مبعثر فرضته طريقة الحوليات ، أو قصورها على الحديث عن شخص العياشي متتبعين حركته السياسية ، مضفين عليه هالة من التوقير والتقديس الناتجين عن اعتباره مجاهدا ، ومؤكدين على كراماته مع المغالاة في ذلك احيانا .

وأهم مؤلفات هذه المجموعة دون شك كتاب النزهة فهو أقدم هذه

المؤلفات وأغزرها مادة ، وكثير مما أورده اليفرني أخذه مشافهة — أو بالنقل — عن الذين عاشوا الاحداث أو شهدوها . وعنه أخذ الذين أتوا بعده إلى الناصري الذي يشكل كتابه الجامع لما قبله . غير أن الناصري — عندما تدعوه ضرورة اثبات كل ما وجد من معلومات عن الموضوع — يجد نفسه أحيانا أمام روايات متناقضة ، فيكتفي بمجرد مقابلة الرواية بالأخرَى دون أن يتخذ من ذلك موقفا معينا خاصا به .

وعلى العموم تشكل مؤلفات هاته المجموعة المصدر الرئيسي لمادة الموضوع غير ان طريقتها التقليدية المبنية على تقديم الاحداث كما هي ، لا تسمح باعطاء فكرة كاملة عن الحركة كحدث تاريخي .

المجمـوعة الثانية :

وقوامها دراسات ومؤلفات صدرت بعد بداية القرن الحالي . منها مؤلفات مغربية مثل اليغ قديما وحديثا للشيخ المختار السوسي ، وتاريخ تطوان للشيخ داوود التطواني (1959) ، والزاوية الدلائية للاستاذ محمد حجي (1964) وتاريخ المغرب بالفرنسية للاستاذ ابراهيم بوطالب مع جماعة من المؤلفين (1967)... ومنها مؤلفات مغربية لا يزال البعض منها مخطوطاً مبعثراً في الخزانات مثل مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح ، والاغتباط بتراجم اعلام الرباط لمحمد بوجندار الرباطي ، والاتحاف الوجيز باخبار العدوتين لمحمد بن علي الدكالي السلاوي . ومنها مؤلفات أجنبية مثل :

Le Gharb (Ed. Michaux-Belaire) — Rabat et sa region. les Doukkala (Mission du protectorat) — La ville de Rabat (J. Gaille) — La casbah de Mahdia (R. Coindreau) — La place de Mazagan sous la domination portugaise (J. Goulven)...

وغني عن البيان أن هاته المؤلفات لا تهتم بالحركة العياشية الا كحلقة من تاريخ المغرب على العموم أو كجزء من تاريخ المنطقة أو المدينة التي تهتم بها الدراسة . واعتبارا لقصر المدة التي عاشتها الحركة بالمقارنة بتاريخ

البلاد عموما ، واعتبارا لتشكيل الحركة وحدة واحدة فقط من بين الحركات التي عرفها عصره ، فان مكان العياشي – في مؤلف يشمل كل تاريخ البلاد – حجما يبقى متواضعا . اما الدراسات التي تهتم بتاريخ منطقة أو مدينة فينطبق عليها نفس الحكم ، في حين يقتصر الحديث عن العياشي في مؤلفات تعنى بمواضيع مقاربة للعياشي زمانيا على مجرد استعراض الاحداث التي تزعمها المجاهد كمدخل للتعرف على علاقة العياشي بالحركة المتناولة بالدراسة .

وفي كل الحالات يكون الاهتمام الموجه إلى العياشي اهتماما بسيطا لا يمكن من التفرغ الكافي من جهة للتنقيب عن المادة الأولية ، واللازم من جهة أخرى للخروج بفكرة تامة عن مقومات الحركة العياشية وابعادها التاريخية .

وعلى ذلك تكون استفادة المتصفح للمؤلفات المذكورة في هذه المجموعة استفادة محدودة لا تزيد عن الاستفادة المتحصلة من تصفح مؤلفات المجموعة الأولى الا بما تعرضه من اراء شخصية لم تتوفر على التفرغ الكافي للتعمق في الموضوع .

المجموعة الثالثة :

وتتكون من مجموعة الوثائق التاريخية : منها تلك التي جمع الكونت دي كاستري في مجموعاته المهمة ، فيها مراسلات بين الدول الاروبية وممثليها في المغرب في وقت العياشي وفيها مراسلات خاصة بين العياشي نفسه وبعض الدول الاروبية مثل ابرطانيا أو بينه وبين بعض حكام المستعمرات الابيرية في المغرب أو مذكرات اروبيين عاشوا في المنطقة ووصفوها ووصفوا فصولا من حركة العياشي . ومن هذه الوثائق أيضا مذكرات حكام البريجة البرتغال ، التي ترجمها وقدم لها تقديما بسيطا

احيانا Robert Ricard ونشرها تحت عنوان :

Mazagan et le Maroc sous le règne du sultan Moulay Zidan. Un document portugais sur la place de Mazagan au debut du 17 siècle.

وتدخل في هذه المجموعة أيضا بعض المراسلات التي دارت بين العياشي وغيره أو بين غيره في شانه والمثبتة في البدور الضاوية لسليمان الحوات أو الفوائد الجمة باسناد علوم الأمة للتمنارتي أو في بعض التقاييد مبعثرة بين مواد أخرى لا علاقة لها بالموضوع ، وأيضا ما عثرت عليه من تقاييد في العائلات السلاوية لعبد الرحمن العشاش أو محمد بن علي الدكالي في الخزانة الصبيحية بسلا . وأود أن أقف هنا قليلا لاشير إلى أهمية التقاييد التي خلفها الفقيه محمد بن علي الدكالي الذي يعتبر بحق حجة تاريخ سلا ، ولأسجل اسفي لعدم تمكني من الاطلاع على كل تلك التقاييد وخصوصا كتاب تاريخ سلا الكبير الذي لا زال مخطوطا وشبه مفقود .

يضاف إلى كل هذا مجموعة من الفتاوى المتعلقة بموضوع الجهاد والمثبتة في كتاب : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة لعبد العزيز الزياتي ، وفي أجوبة قاضي القضاة بمراكش على عهد العياشي : عيسَى بن عبد الرحمن السكتاني وفي الحوالة الحبسية لمدينة سلا . وتشكل هذه المجموعة مادة أولية لم تستغل بعد في موضوع الحركة العياشية ، وما استغل منها فيه نادر استعمل في دراسات لا تتناول موضوع الحركة العياشية .

ويدخل في هذه المجموعة مخطوط لم أذكره من بين مؤلفات هذه المجموعة الثالثة لمكانته الخاصة بينها : وهو كتاب الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد ، لمؤلفه عبد القاهر أوملاق .

والتأليف مخطوط اشار اليه E. Levi-Provençal في كتابه Les Historiens des Chorfa وعلق عليه تعليقا بسيطا ، كما استعمل الاستاذ محمد حجي رسائل منه في زاويته في باب علاقة أهل الدلاء بالعياشي ؛ والمؤلف يهتم بالعياشي ويأخذ مما كتب قبله من مؤلفات متداولة وبالأخص من نزهة الحادي ، كما يورد في حوالي نصف الكتاب مجموعة من الرسائل التي تبودلت بين العياشي وبعض معاصريه ، بعضها مثبت في الاستقصا أو في البدور الضاوية بينما ينفرد أو ملاق بمجموعة من الرسائل التي لم ترد في مؤلف غير مؤلفه . وتعتبر هاته المراسلات على جانب كبير من الأهمية ، كذلك انها تشكل المصدر الوحيد لتتبع تطور العلاقة بين العياشي واخر ملوك الدولة السعدية ، والمصدر الوحيد لمعرفة الأقاليم التي كانت تابعة للعياشي ، كما تشكل المصدر الرئيسي للتعرف على كثير من ابعاد الحركة العياشية وموقف كثير من العلماء والفقهاء منها . وتصور نظرة العياشي إلى الوضع داخل المنطقة الخاضعة له من جهة وإلى الوضع في عموم المغرب من جهة أخرَى وتعطي فكرة عن القاعدة الشعبية التي يعتبر العياشي الناطق باسمها .

وعلى العموم تشكل هاته المراسلات وسيلة وحيدة لاعادة النظر في موضوع الحركة العياشية ، وتمكن من الاجابة على مجموعة أسئلة لم تكن لتجد الجواب الكافي لو لم تتوفر هذه الوثائق .

باستعمال المواد التي توفرها مؤلفات المجموعة الثالثة ، واستغلال المواد التي توفرها مؤلفات المجموعة الأولى كل الاستغلال ، والاسترشاد بآراء وابحاث مؤلفات المجموعة الثانية يمكن قبل كل شيء وضع الحركة التي تزعمها العياشي في محلها من السير العام لتاريخ البلاد كحلقة من سلسلة التطور العام لذلك التاريخ ، واخراجها من الاطار الذي وضعت فيه كعمل فردي انتهَى بنهاية محركه .

وتتضح هذه الفكرة من خلال الملاحظات التالية :

1 – في مرحلة الظهور :

تحليل البنية الاقتصادية للمغرب الشمالي الغربي تحليلا يوضح ضرورة قيام حركة تحريرية وتحليل معطيات النشاط الصوفي تحليلا يعطي الحركة التحريرية صبغة حركة جهادية .

2 – في مرحلة العمل :

ا) تغيير الفكرة الشائعة عن العياشي والتي تظهره كمجاهد بالمعنى الديني للكلمة ، ثم اعطاء صورة جديدة له تظهره سياسيا له منطقة نفوذ تشمل اقاليم أوسع مما كانت تسمح بتصوره الدراسات السابقة ، وله في مناطق نفوذه نفوذ معين ، وله نظرة خاصة في ميدان الوضعية العامة في البلاد في وقته ، وله اتصالات مع دول أجنبية مسيحية .

ب) توضيح جوانب من النشاط العسكري للحركة وكشف النقاب عن جوانب أخرى منه مع الاهتمام بتوضيح المميزات العسكرية والعمليات العسكرية ونتائجها القريبة .

3 – في مرحلة الضعف :

الكشف عن آثار الحركة في تاريخ البلاد ، تلك الآثار المتمثلة في الزيادة في تركيز الاحساس القومي وخلق نوع من الوعي التاريخي المتمثل في احساس المغاربة بخطر التوسع الاجنبي الذي قد يؤدي إلى ان يحل بالبلاد ما حل بالأندلس من قبل ، ومن ذلك التركيز على دور الحركة في اذكاء فكرة القومية والوحدة القومية التي ساعدت على اجتماع المغاربة بعد الحركة مباشرة حول حاكم واحد .

البــاب الأول

الأسباب الكبرَى للحركة العياشية

الوضعية العامة في المغرب أوائل القرن 17

مثلت حركة العياشي رد فعل ازاء وضعية كانت عليها البلاد في السنوات العشر الأولى من القرن السابع عشر. لذلك كان من الضروري تحليل جوانب هاته الوضعية لمعرفة الدوافع التي جعلت مجموعة من الناس تلتف حول المجاهد أبي عبد الله محمد العياشي. وتتلخص هذه الوضعية في نقطتين الأولى تعرض البلاد لغزو اجنبي نجح في الاستيلاء على مدينتين مغربيتين هما العرائش والمعمورة، والثانية اتسام الجو السياسي في المغرب باضطراب يضر بمصالح الناس، ويشغل السلطة المغربية عن مقاومة ذلك الضغط الاجنبي.

أولا : الغزو الأجنبي للمغرب في القرن 17

يشكل القرن 15 للميلاد فترة تحول في علاقات المغرب باروبا المسيحية : فبعد ان كانت العمليات العسكرية تتم باتجاه جنوبي شمالي ، مع انطلاق المبادرة من المغرب ، وانتهاء العمليات في الغالب بانتصار المغرب ، نجد أن هذه العلاقة انعكست من حيث الاتجاه ، ومن حيث المبادرة ومن حيث نتيجة المعارك . وهكذا شهد المغرب فقدان بعض من ترابه لصالح دولتي ايبيريا : اسبانيا والبرتغال . فقد احتلت سبتة (1415) وطنجة (1461) وأصيلا (1471) والعرائش (1489) وأسفي (1508) والجديدة (1502) وأغادير (1505) وازمور (1513) والمعمورة (1515)[1] .

وقد اتخذت دولتا ايبيريا هذه المدن في بعض الاحيان نقط انطلاق استحوذت منها على البوادي المجاورة لها ، وبلغ ذلك أقصاه حول مدينة أسفي التي غدت عاصمة لاقليم برتغالي يشمل قسما مهما من عبدة .

وإذا كان الشرفاء السعديون قد نجحوا في استرجاع معظم المراكز المحتلة ، فانهم أوقفوا عملياتهم التحريرية بمجرد ان استتب لهم الملك ، فظلت مليلية وسبتة وطنجة والجديدة في يد الاجانب . ثم ما ان بدأت دولتهم تضعف حتّى اتجهت انظار الدول الاروبية الكبرَى — مرة ثانية — نحو المغرب محاولة أن تستغل ضعفه وعجزه عن الوقوف في وجه أية عملية توسعية . فاستعمرت اسبانيا العرائش والمعمورة ، واتجهت دول أخرَى تبحث عن مناطق نفوذ فظهرت محاولات فرنسية وهولندية في مرسَى ايير ، ومحاولة انجليزية في سلا ومحاولة اسبانية في أسفي .

---

(1) التواريخ تؤرخ لبداية الاحتلال .

وقد كان لتجدد رغبة أروبا في الاستيلاء على نقط من البلاد مجموعة عوامل نلخصها في النقط التالية :

1 – المكانة التي يشغلها المغرب في خريطة العالم الاقتصادية

– المغرب لا يزال يحاول التمسك بدور الوساطة الذي كان يلعبه بين افريقيا وأروبا ، ولا تزال كميات من الذهب – وان كانت أبسَط مما كانت عليه خلال القرون السابقة – تصل إلى موانئ المغرب الصحراوية[2] . وهذا في وقت احتلت فيه اروبا السواحل الغربية لافريقيا ، وبالأخص في خليج غينيا محاولة أن تضع يدها على منابع التبر بكيفية مباشرة . وترَى اروبا أن وضع يدها على موانئ المغرب البحرية وسيلة لخنق التجارة المغربية الخارجية التي كان يستفيد منها بتصدير مستورداته من افريقيا (من تبر وعاج وريش نعام ومواد صباغة) نحو أروبا ، ويستفيد منها باستيراد بعض ما كان يصدره نحو افريقيا من منتجات أروبية (من منسوجات وأواني وأسلحة وحلي...). ومن هنا تظهر ضرورة قضاء أروبا على دور الوساطة الذي يلعبه المغرب بينها وبين افريقيا حتَّى تتم استفادة أروبا من وضع يدها على سواحل افريقيا الغربية .

– تشكل موانئ المغرب – والأطلسية منها بالأخص – نقط استراحة مثالية بالنسبة لحركة التجارة الأروبية الواصلة بين أروبا وافريقيا الغربية والعالم الجديد . ومن ثم كان من الضروري بالنسبة لأروبا وضع يدها على تلك الموانئ لغايتين **الأولى** منهما : تأمين امكانية استعمالها كنقط استراحة بكيفية دائمة ومضمونة وغير مكلفة ، وهذا ما لا يتحقق فيما إذا لو ظلت تلك الموانئ في ملك المغاربة الذين قد يغلقونها أو يفرضون على مستعمليها من المكوس ما يزيد في تكلفة التجارة – وهو شيء يحاول التجار في جميع الازمان تفاديه . **والثانية** : اجتناب وقوع تلك الموانئ في يد دولة أخرَى

Histoire du Maroc -- Boutaleb et autres – 219 (2)

من الدول الأوروبية نفسها — وهذا يجعل وضعيتها هي نفس وضعيتها فيما لو ظلت في ملك أصحابها الأصليين— أو وقوعها في يد القراصنة ، وهذا أخطر : ذلك أن وضعية الموانئ الأطلسية المغربية في الغالب وضعية تلائم القرصنة كبير الملاءمة باعتبار أنها تقع على مصبات أنهار ، وتشكل بذلك الملجأ الطبيعي للسفن القرصنية الخفيفة في حالة فرارها أمام السفن العسكرية الأوروبية الثقيلة ، وتلائمها من جهة أخرى بوقوعها على الطريق التجاري الرابط بين العالم الجديد وأوروبا وقوعا يجعل منها منطلقا مثاليا لمباغتة السفن التجارية المحملة بأنواع السلع اما باتجاه أوروبا أو انطلاقا منها .

— والمغرب يشكل أخيرا منطقة مأهولة ، أي منطقة تشكل سوقا للاستهلاك ، ومنطقة يتعاطَى سكانها نشاطات مختلفة توفر منتجات تصلح لأوروبا . وتجدر الاشارة هنا إلى ذلك التغيير الذي طرأ على نظرة أوروبا للمغرب : ذلك أن المنفعة التي كان بالامكان أن تجنيها أوروبا من المغرب ظلت بسيطة ببساطة أهمية المغرب المركنتيلية إذا قورنت بامكانيات البلاد المكتشفة من طرف أوروبا في العالم الجديد أو الشرق الأقصَى . على أن الوضعية تغيرت منذ نهاية القرن 16 ، ولم يكن مجال هذا التغير ازديادا في امكانيات المغرب المركنتيلية بقدر ما كان نتيجة تغير في الوضعية الاقتصادية لأوروبا الغربية : حيث بدأت دول مثل ابريطانيا وهولندة وفرنسا في تشجيع المعامل المنتجة لسلسلة من السلع مثل المنسوجات المتنوعة ووسائل التجميل والصابون بالاضافة إلى الأدوات والأواني والأسلحة . وكانت بداية هذا النشاط الصناعي تعطي انطلاقة نشاط تجاري يعني بالبحث عن الأسواق والمواد الخام . وبذلك لم تعد أهمية المغرب تتوقف على ما به من معادن نفيسة بقدر ما تتوقف على قدراته الاستهلاكية المرتبطة بعدد سكانه ، وعلى ما يمكن العثور عليه فيه من مواد فلاحية أو طبيعية . وعلى سبيل المثال فقط يكفي ان نتذكر ان أول الصناعات «العصرية» التي عرفتها

أروبا الغربية كانت هي صناعة النسيج ، ومن هنا تظهر أهمية المغرب كبلد منتج للصوف ومواد الصباغة .

كل هذه العوامل تفسر اذن النظرة الجديدة التي أصبحت أوروبا تنظر بها إلى المغرب . غير أن هاته العوامل كانت تدعو الدول الاروبية — نظريا — إلى التعاون لاقتسام الموانئ المغربية فيما بينها ، وإلى التعاون من أجل تحقيق الحصول على تلك الموانئ . غير أن هذا لم يتحقق . بل بالعكس كانت الدول الأروبية تتنافس فيما بينها ، ويُحبِط بعضها مساعي البعض الآخر وتقدم الواحدة منها المساعدة أو المساندة للمغرب للاحتفاظ بكامل استقلاله مقابل بعض التنازلات البسيطة . الشيء الذي يوضح أن بعض تلك الدول كان يفضل أن تظل البلاد مستقلة بعيدة — في عمومها — عن أي نفوذ أجنبي عن أن يخضع المغرب كله أو بعضه لدولة أخرى . ولذلك كان من الضروري التعرف على الجو الذي يطبع علاقات الدول الأروبية الكبرَى ببعضها في بداية القرن 17 .

2 – جو النزاع المستمر الذي يطبع علاقات الدول الكبرَى في أروبا الغربية يوحي إلى بعض تلك الدول باستعمال المغرب لترجيح كفتها

يقتصر الحديث في كل هذا الباب على الدول الأروبية الغربية التي كانت لها علاقة ما بالمغرب وهذه الدول أربعة هي : فرنسا وابريطانيا وهولندة واسبانيا . وتطغَى على السياسات الخارجية لهذه الدول 3 مشاكل :

— مشكلة الحدود السياسية التي تتمثل في شكلها البسيط في الرغبة في تأمين تلك الحدود كما هو الحال بالنسبة لفرنسا ، أو في وضع حدود تضم «قومية» جديدة مثلما هو الحال بالنسبة للأقاليم المتحدة .

— مشكلة النزاع الديني المترتب عن الاصلاح الديني الذي عرفه القرن

16 ولم يضع القرن السابع عشر بعد نهاية له . إذ انقسمت أروبا إلى معسكرين احدهما بروتستانتي تتزعمه ابريطانيا والثاني كاثوليكي تتزعمه اسبانيا .

ـ مشكلة التنافس الاقتصادي بين مختلف هاته الدول : فكل من فرنسا وابريطانيا وهولندة تعرف نشاطا اقتصاديا يتسم بكثير من الجدة يدفع بها إلى المغامرة في بحر التجارة الخارجية المعقدة . والأقاليم المتحدة تستغل استقلالها عن الاسبان ، والهدنة التي نجحت في الحصول عليها منهم 1609 ، وتستعد لتغدو أول قوة تجارية ومالية في القارة الأروبية . وتعرف ابريطانيا نفس السياسة الاقتصادية بينما تأتي فرنسا في المرتبة الثالثة . أما اسبانيا ، التي لا تزال تظهر من الدول الأروبية العظمى ، فهي تبني قوتها على الأساس المركنتيلي القديم ، يساعدها في ذلك اتساع مساحة ممتلكاتها التي تشمل بالاضافة إلى جزر المتوسط وبعض موانئ المغرب والجزائر امبراطورية شاسعة تضم الممتلكات الاسبانية الأصلية والممتلكات البرتغالية التي ضمت للتاج الاسباني 1580 .

ومن هنا يظهر أن التنافس كان منتظرا بين دول المجموعة الأولى التي تتشابه اتجاهاتها الاقتصادية ، مع ملاحظة ان تنافسها يأخذ صبغة سلمية بعيدة عن استعمال القوة ، ومنتظرا أيضا بين دول تلك المجموعة واسبانيا مع ملاحظة أن الاختلاف في البنية الاقتصادية والاتجاه الاقتصادي يجعل اسبانيا لا تتوفر على أي حظ في الانتصار سلميا على منافساتها ، وأنها لذلك مضطرة إلى اتباع طريق خاص بها قوامه استعمال القوة : أي الاحتلال العسكري عوض التوسع الاقتصادي .

وعلى مستوى الأحداث البسيطة نجد حربا طويلة تشمل معظم القارة الأروبية هي حرب الثلاثين سنة (1618 ـ 1648) تتواجه فيها من الدول التي لها علاقة بالمغرب فرنسا واسبانيا . وحربا بين هولندة واسبانيا ناتجة عن

انفصال الأقاليم المتحدة عن اسبانيا بكيفية أدت إلى نشوب الحرب ورغم أن الطرفين توصلا إلى هدنة ما بين 1609 و1621 فان تلك الهدنة لم تكن في الواقع إلا فترة اعداد اتخذها كل من الطرفين لتوفير حظوظ النجاح لصالحه. وكان من بين الوسائل التي اتبعتها الأقاليم المتحدة التقرب من عدو تقليدي لاسبانيا — هو المغرب — والسعي بمختلف الوسائل للحصول على صداقته اما لاستعماله في شكل تحالف عسكري لمحاربة العدو المشترك اسبانيا، أو لاستعمالها كوسيلة للتضييق على اسبانيا في حركتها التجارية.

وعلى ذلك سعت هولندة إلى ربط صلات ودية بالمغرب، وتوصلت إلى ذلك فعلا عندما عقدت مع زيدان اتفاقية صداقة بتاريخ 24 دجنبر 1610 [3]. ولقد كان من المنتظر ان تقوم اسبانيا برد فعل ازاء التصرفات الهولندية، مع التذكير بان تلك التصرفات — وإن كانت واحدا من العوامل التي نبهت اسبانيا إلى ضرورة القيام بعمل ما في المغرب — فانها لم تكن العامل الوحيد: ذلك أن لرغبة اسبانيا في ربط علاقات ما مع المغرب اسبابا أخرى: أولها أن لاسبانيا تقاليد في سياستها الخارجية ازاء المغرب تتمثل في تفكير اسبانيا في نقل ميدان الحروب إلى الشاطئ المغربي انتقاما للعمليات التي مارسها المغرب في اسبانيا خلال القرون الماضية، يمكنها من تطبيق هذه السياسة استغلالها لبعض ما قد يقع من خلاف بين حكام المغرب لتقديم المساعدة لاحدهم مقابل الحصول على جزء من البلاد مثلما كان من المنتظر ان يقع قبيل معركة وادي المخازن، ومثلما كان من المؤمل أن يقع وقد بلغ إلى علم اسبانيا ما هو واقع من الخلاف بين حكام المغرب في بداية القرن 17 من أبناء المنصور. وثانيها: يدخل في اطار السياسة التي اتبعتها اسبانيا منذ بداية القرن 16 عندما بدأت الامبراطورية التركية تنتشر باتجاه افريقيا الشمالية حيث عملت اسبانيا على اتقاء الخطر

(3) وثائق دي كاستري - المجموعة السعدية — الأراضي المنخفضة — المجلد 1، ص 613

العثماني إلى أقرب المناطق اليها بوضع يدها على الموانئ الرئيسية في كل من المغرب والجزائر لقطع خط التقدم العثماني نحوها من جهة ولافشال المشاريع العثمانية في تدبير ثورات من تبقّى من المسلمين في اسبانيا عن طريق قطع خط الاتصال بين الشمال الافريقي واسبانيا.

ومن الضروري قبل انهاء الحديث عن الاطماع الأجنبية في المغرب، تخصيص فقرة خاصة للحديث عن علاقة المغرب بالدولة العثمانية. ذلك أن الدولة العثمانية لم تيأس من اكمال سيطرتها على العالم الاسلامي بوضع يدها على المغرب منذ أن نجحت في ضم الجزائر وتونس إلى ممتلكاتها. وكان هذا التشوف إلى الاستيلاء على المغرب ينعكس على السياسة التي اتبعها الباب العالي ازاء البلاد والتي تتمثل في محاولة استغلال كل الفرص للتدخل في شؤونها: بتقديم المساعدة إلى كل من اتجه اليه طالبا للمساعدة في سبيل الوصول إلى الحكم أو استرجاعه. غير أن الملاحظة العامة هي أن حكام المغرب كانوا يتوقفون عن الوفاء بالتزاماتهم بمجرد وصولهم إلى غاياتهم، ويكون أول عمل يقومون به بعد استقرار الأوضاع واستتباب السلطة تسريح الفرق التركية مع اظهار حسن العلاقة بواسطة ما يقدمونه من هدايا والطاف.

وقد كان من المنتظر ان تستغل الامبراطورية العثمانية جو النزاع الذي عرفته البلاد بعد وفاة المنصور الذهبي للوصول إلى غايتها التقليدية. لكن الذي حدث أن العثمانيين لم يستغلوا هذا الجو، وكل ما يمكن ملاحظته هو محاولات بسيطة في دعم هذا الدعي أو الآخر. فقد اضطر زيدان بعد انهزامه أمام أخويه المامون وأبو فارس إلى اللجوء إلى تلمسان حيث أقام مدة بها وحاول الاتصال بالباب العالي الذي وعده بالمساندة لقاء اتفاق ما 1604 [4] وحاول الاتراك استغلال هاته الفرصة حينما وفد على زيدان بعد وصوله إلى سوس وفد يقوده القائد مصطفى طالبا منه الوفاء بالتزامه. ولم

(4) L'établissement des dinasties des Cherif...A. Cour- 150

يخرج زيدان عن القاعدة المذكورة آنفا ، حيث سرح الوفد وصحبه بهدايا إلى الباب العالي[5] . كما وصل وفد تركي لتهنئة أبي محلي[6] بانتصاره ودخوله سجلماسة الشيء الذي يدل على سابق علاقة بين الرجل والأتراك أصلها ولا شك مقام أبي محلي مدة بالجزائر في طريقه إلى المغرب بعد تجواله في الشرق[7] . غير أن قصر المدة التي قضاها أبو محلي في السلطة لم تمكن الاتراك — دون شك — من تنظيم تأثيرهم إن كان لهم تأثير فعلا في حركة الصوفي .

ويضاف إلى هذه العلاقات اتصال ثاني بين زيدان والباب العالي وقع عندما وجه زيدان هدية إلى اسطنبول طالبا المدد[8] . لكن العملية لم تفد زيدان في شيء ، كما انها لم تُستغَل من طرف الأتراك .

فيظهر اذن أن الامبراطورية العثمانية ، وان كانت لا تزال تحافظ على سياستها التقليدية ازاء المغرب ، فانها لم تعد تظهر ذلك التحمس الذي يلاحظ مثلا في علاقاتها بالمغرب أيام ظهور السعديين . وهذا الخمود مرتبط بلا شك بالوضعية التي كانت عليها الجزائر . فخلال القرن 17 خرجت

---

(5) Ibid – 151

(6) ابو محلي (1022) 1568 — 1613

أحمد بن عبد الله السجلماسي ، يدعي أنه عباسي ، وقد اشتهر أبوه وجده بابناء القاضي لشغلهما منصب القضاء .

بدأ دراسته في مسقط رأسه سجلماسة ، ثم التحق بفاس حيث أقام 5 سنوات ، ثم غادرها ليعود اليها ثم ليغادرها مرة أخرى ليتلحق بزاوية محمد بن المبارك الزعري ، فصاحبه وأخذ عنه التصوف . وبعد عدة حجات استقر أبو محلي بالساورة ، وظهر بمظهر الولاية فتقاطرت عليه الوفود .

أظهر أبو محلي ضرورة تغيير المنكر ، وادعي المهدوية ، فتبعه خلق كثير . ودخل سجلماسة ومنها إلى مراكش حيث نجح في اخراج زيدان منها ، واستقر بها متخذا شارات الملك . إلى أن انهزم وقتل في أول معركة يصطدم فيها بمغيث زيدان : أبو زكرياء الحاحي .

(7) الاستقصا — الناصري — جـ 6/ص 30 .

(8) نزهة الحادي — اليفرني — ص 249 .

ولايتا الجزائر وتونس بشكل خفي من سلطة الأتراك ، وان كانت الولايتان لا زالتا تظهران التبعية للسلطان العثماني . ثم ان وضعية الجزائر بالأخص كانت جد مضطربة نتيجة النزاعات المستمرة بين عناصر ثلاثة هي الانكشارية ، والباشا الممثل للسلطة العثمانية ، والحزب البحري المكون من القراصنة . وقد أدت هذه النزاعات إلى كثير من الاضطراب والمذابح ، وكان من نتيجة ذلك ان لم يعُدْ الباشا يتوفر الا على سلطة اسمية شكلية . ومادام الباشا هو ممثل السلطان العثماني فان وجود هذا الأخير اذن بالجزائر ، غدا وجودا اسميا بدوره[9] .

فإذا تذكرنا أن الجزائر باعتبارها أقرب نقط الامبراطورية العثمانية إلى المغرب وانها بذلك تشكل سِنّ الرّمْح في هجومات الأتراك على المغرب ، لوصلنا إلى أن وضعية الجزائر تلعب الدور الكبير في تفسير فشل التأثير العثماني في المغرب مع ملاحظة أن للوضعية العامة في الامبراطورية دون شك دورا في تفسير ذلك الفشل . وتحليل تلك الوضعية يبعدنا عن الموضوع . أما ما حاول بعضهم اثباته من وجود علاقة وطيدة بين العياشي والاتراك ، فمردود . ذلك أن هذا القول قائم على أساس فهم سيء لحادثة بسيطة ، إذ يرَى كور أوكست[10] أن ...العياشي دفع بعد غزوة الحلق رئيس النصارَى إلى داي الجزائر الذي وضعه في قفص من حديد ... فمن المعلوم أن العياشي ، ظفر بقبطان من عظمائهم (الاسبان) ففدَى به طابق رئيس أهل الجزائر ، وكان عندهم في قفص من حديد[11] .

وأساس الخطأ دون شك ترجمة غير صحيحة للنزهة اعتمد عليها كور .

نعم كانت هناك اتصالات وثيقة بين قراصنة سلا وقراصنة الجزائر[12]

(9) Histoire de l'Afrique du Nord — CH. A. Julien — 274

(10) Auguste Cour, l'Etablissement des dynasties des cherif... p. 162

(11) الخبر عن ظهور العياشي ص 25 .

(12) A. Cour — L'établissement des dynasties... p. 163.

لكنه اتصال بين عناصر حرفة واحدة لا يعني في شيء وجود تأثير للاترالـ في حركة العياشي .

يظهر اذن من كل ما سبق أن مجموعة من الدول — منها الاروبي وغير الأروبي — كانت لها اطماع في المغرب . وان أكثر تلك الدول اصرارا على الحصول بالقوة على قسم من البلاد كانت هي اسبانيا. فما دامت نية هولندة استعمال السواحل المغربية للتضييق على التجارة الاسبانية فان من المفيد بالنسبة لهذه الأخيرة ان تسبقها لوضع اليد على النقط المهمة في تلك السواحل . خصوصا وان لها مراكز وجود بها يمكن أن تستغلها لذلك التوسع ، وقربها من المغرب يعتبر عاملا مساعدا لتسهيل ذلك التوسع .

وغير خاف ان الوضعية التي عاشها المغرب عَقب وفاة أحمد المنصور السعدي كانت مضطربة سياسيا ، وهذا الاضطراب لم يكن بالشيء الذي تجهله الدول المهتمة بالمغرب وهي تتوصل باستمرار بتقارير من ممثليها بالمغرب عن وضعيته ، فلا شك أن الراغبين في التعامل مع المغرب بكيفية أو بأخرَى ، وجدوا في هذه الوضعية الفرصة المنتظرة .

ويجب الا نغفل جانبا من جوانب هذه الوضعية لاهميته : ذلك أن انقسام المغرب وتعدد ادعياء الملك فتح الباب للتسلل الأروبي ، إذ حاول بعض المتنافسين على السلطة استعمال الصداقات الأروبية ، لترجيح كفتهم : فهذا زيدان يربط من العلاقات مع هولندة ما يمكنه من الحصول على الأسلحة في حين لا يتورَّع أخوه المامون عن التنازل لاسبانيا عن مدينة بكاملها (العرائش) مقابل التوصل بما يمكنه من استرجاع سلطته .

من خلال ما سبق يظهر أن المغرب كان مهيئا لاستقبال العروض الأروبية لربط علاقات كانت أوروبا مضطرة للقيام بالمبادرة لربطها ، وسنرَى خلال الفصول المقبلة بعض مظاهر العلاقات الودية التي كان

المغرب يمارسها مع كل من هولندة وفرنسا وابريطانيا ، وسنلاحظ أن موقف المغرب من هاته العلاقات كان موقف القبول ان لم نقل موقف الاغتباط . غير أن هذا الموقف ما كان ليجوز من المغاربة ازاء العلاقات مع اسبانيا : ذلك ان تلك العلاقات اتخذت شكل غزو عسكري .

❋

ثانيا : عمليات التوسع الاسباني في المغرب

نصت اتفاقية 1479 بين مملكة البرتغال ومملكة قشتالة على اعتراف الثانية للأولى بحقها في احتكار الساحل الافريقي الغربي بما فيه مملكة فاس[13] . وعلى ذلك لم يكن لاسبانيا في المغرب الا قاعدة واحدة هي مليلية التي استعمرتها 1497 . ولم يؤثر اتحاد التاجين البرتغالي والاسباني (1580) على هذه الوضعية اذ اعتبر هذا الاتحاد مجرد وضع للمملكتين تحت سلطة ملك واحد مع احتفاظ البرتغال بقوانينها وتنظيماتها الداخلية وخصوصا بمستعمراتها في المغرب ، تلك المستعمرات التي احتفظت بتنظيماتها البرتغالية واطرها وسكانها البرتغال . غير أن اتحاد التاجين أعطَى الاسبان بعض التسهيلات في استعمال المراكز البرتغالية في المغرب وأعطَى اسبانيا الحق في توجيه سفير إلى المستعمرة يشكل فيها السلطة العليا .

والجدير بالذكر أن مجهودات الدولة السعدية ـ في بداية الظهور ـ نجحت في تحرير كثير من المراكز التي كانت خاضعة للبرتغال ، ولم تحتفظ هذه الأخيرة إلا بثلاث قواعد هي سبتة وطنجة والجديدة بينما احتفظت اسبانيا بمستعمرتها القديمة : مليلية .

فإذا القينا نظرة على خريطة للمغرب لوجدنا أن الموانئ المتبقية والتي يمكن أن تتجه إليها أنظار اسبانيا هي : أصيلا والعرائش والمعمورة وسلا وأزمور وأسفي وأغادير . وقد وجهت اسبانيا فعلا انظارها إلى هاته الموانئ ، كلها غير أنها لم تنجح في الحصول عليها كلها ، ونجحت في احتلال اثنتين منها : العرائش والمعمورة .

---

(13) وثائق دي كاستري ـ المجموعة الفرنسية ـ 2 : 242 ـ التعليق رقم 1 .

1 – في العرائــش

منذ القرن 16 بدأت مفاوضات بين فيليب الثاني (1527 – 1598) وعبد الملك السعدي خول امكانية تسليم العرائش للأول مقابل مساندته للثاني في نزاعه مع أخيه محمد المتوكل . وذلك سنة 1575 . لكن العملية لم تتم نظرا لتطور الوضعية الداخلية في المغرب عقب وادي المخازن (1578)[14] .

وبعد ضم التاج الاسباني للممتلكات البرتغالية فكرت اسبانيا في الحصول على العرائش مقابل التنازل لأحمد المنصور الذهبي عن الجديدة[15] . لكن الجو السياسي العام لم يمكن من تطبيق المشروع . ثم تأكدت الرغبة الاسبانية في الحصول على العرائش عندما سنحت لها الفرصة بقيام النزاع بين أبناء المنصور عقب وفاته (1603) .

ولم تكن رغبة اسبانيا في الحصول على العرائش أمرا سريا ، بل كان أمرا معروفا لدَى المغرب ، كما كان معروفا لدَى باقي الدول الكبرَى . وهذا ما جعل المغرب يسعَى إلى حماية الميناء بتحصينه كما فعل أحمد المنصور[16] الذي بنَى بالمدينة حصنين يعرف أحدهما بحصن الفتح وما فعل أيضا زيدان الذي أخذ في الاستعداد للزيادة في حصون المدينة بمجرد بلوغه خبر انهزام المامون والتجائه إلى اسبانيا .

ومن جهة أخرى خلق رأى اسبانيا في أن ... العرائش تعدل وحدها سائر مراسي المغرب ...[17] الفرصة التي حاول استغلالها بعض المغامرين للاغتناء . فقد اتفق مغامران فرنسيان على أخذ العرائش بالقوة – بمساعدة

---

(14) نفسه – الأراضي المنخفضة – 1 : المقدمة ص 2 .
(15) وثائق دي كاستري – الأراضي المنخفضة – المجلد 1 – المقدمة – ص 191 .
(16) الاستقصا – الناصري – ج 5 – ص 190 .
(17) وثائق دي كاستري – الأراضي المنخفضة – 1 : 624 .

أسطول فرنسي– ثم تقديمها لاسبانيا مقابل الثمن المعتبر. لكن المشروع فشل ، وفي نفس الوقت بدأت اسبانيا في تنفيذ مشروع الحصول على العرائش دون حرب فتكلف أحد المغامرين (جيانتينو مورتارا[18]) بتمثيلها في فاس بعد أن توصلت برسالة من الشيخ المامون بتاريخ 24 أبريل 1608 يعرض فيها استعداده للتنازل عن العرائش مقابل ما قد يتلقاه من المساعدة العسكرية[19] . وقد استعمل مورتارا لتسهيل حصول اسبانيا على العرائش طريقتين : الأولى اقناع المامون بضرورة التنازل عن العرائش مع ايهامه بعدم رغبة اسبانيا في استعمال القوة ليطمئن على ورقته في اللعبة ، والثانية الالحاح على اسبانيا في استعمال القوة اعتبارا لتردد المامون وسهولة العملية اعتمادا على ما يدرجه في تقاريره اليها من وصف لتجهيزات المدينة الدفاعية .

ويظهر أن تردد المامون في اللجوء إلى اسبانيا واقتناع اسبانيا بوَجاهة وجهة نظر مورتارا ، وشعورها بضرورة الاسراع بوضع اليد على المدينة قبل أن تسبقها دولة أخرى وبالأخص هولندة ، كل هاته العوامل جعلت اسبانيا تقرر غزو العرائش .

تحشد اسبانيا أساطيلها في يوليوز 1608 . وتوجه الحملة لتصل إلى العرائش في الشهر الموالي . لكن العملية تفشل اعتبارا لقلة اهتمامها بمقاومة المدينة بناء على تقارير مورتارا . ذلك أن الحملة الاسبانية تعرضت لمدافع

---

(18) Gianetino Mortara جيانتيو مورتارا ، نبيل من جنوة ، وممثل اسبانيا لدَى محمد الشيخ المامون . كان أول اتصال له بالملك المذكور عندما عرض عليه مجموعة مجوهرات 1605 ، ومن ذلك الوقت توطدت العلاقة بين الرجلين وغدا مورتارا عميلا لاسبانيا في البلاط الماموني .
يحمل سنة 1608 رسائل من المامون إلى اسبانيا ، ثم يسجن بعد أن يكتشف المامون تلاعبه ، غير أنه يعود فيطلق سراحه ، وينجح جيانتينو في اقناع المامون بالتنازل للاسبان عن العرائش .

(19) نفسه

الحصن الموجهة بكل دقة ، كما واجهها على الشاطئ فرسان مستعدون . مما يثبت أن الاتصالات التي كانت بين المامون واسبانيا لم تكن خافية على المغاربة الذين كانوا على استعداد للوقوف في وجه أي تسرب أجنبي إلى العرائش .

ظهر اذن بعد فشل هذه العملية ان حظوظ اسبانيا في الحصول على العرائش تضاءلت ان لم تكن انعدمت . خصوصا وأن المامون ــ وتعبيرا عن عدم رضاه عن التصرف الاسباني ــ اعتقل الممثل الاسباني بمجرد وصول نبأ بداية الهجوم . لكن ظروفا جدت ، جعلت المامون يعيد النظر في موقفه من اسبانيا وممثلها . ذلك أن جيوشه أخذت تنفض من حوله . وينهزم أمام زيدان أخوه أبو فارس وابنه عبد الله[20] المتزعمان لحركته . في حين ترابط سفينتان اسبانيتان قرب السواحل المغربية انتظارا لاشارة من المامون الذي لا يجد بدا من الالتجاء إلى اسبانيا .

يلتحق المامون ومورتارا بالعرائش على ظهر السفن الاسبانية . لكن قائد المدينة يمنعه من النزول بها ، ويقنبل السفن المرافقة له . وكمحاولة من المامون لاثبات حسن طويته يأمر باعتقال مورتارا مرة أخرى ويبلغ القائد أن لا علم له برسالة شاع أنه وجهها إلى اسبانيا متنازلا فيها عن المدينة لها . لكنه فشل في اقناع سكان المدينة الذين أظهروا الغضب والتذمر . فلم يبق للمامون إلا التوجه إلى اسبانيا .

استقر المامون في اسبانيا . وأخذت اسبانيا تحشد قواتها للوقوف بجانب القوات المامونية ضد زيدان الذي أحرز انتصارات كثيرة أمام عبد الله بن

(20) عبد الله بن المامون : استبد بالملك بعد مقتل أبيه ببلاد الهبط 1613 ، وملك فاس وما جاورها . إلى ان ثار عليه سليمان الشريف الزرهوني . وعرفت فاس اضطرابا كبيرا إلى أن عرض بعض الفاسيين على عبد الله الملك فحكم فاسا بشكل متقطع إلى أن مات 1623/1032 .

المامون ، وبدا في تحصين العرائش . وهذا ما جعل المامون يتعرض لبعض الاهمال عندما اعتقدت اسبانيا أنه عاجز عن الوفاء بوعده فيما يتعلق بتسليم العرائش اعتبارا لكون هذه الأخيرة تحت سلطة زيدان . غير أن مضايقة عبد الله بن المامون لزيدان وثورة أبي محلي على هذا الأخير رفعا اسهم المامون ، فعادت اسبانيا إلى الاهتمام به : فأذنت له في الالتحاق بالمغرب ، كما أجبرها على تغيير موقفها من المامون التقارب الكبير الذي كان بين زيدان والأراضي المنخفضة وتفكيرهما في تحصين العرائش في الوقت الذي عجزت فيه حملة اسبانية ثانية ضد العرائش عن مغادرة قادش في يوليوز 1610 بسبب عدم ملاءمة الرياح .

نزل المامون بسبتة ، ومنها إلى القصر الكبير حيث حاول الوفاء بوعده وتسهيل تسليم العرائش ، وكان عليه أن يستعين بجيشه ليخلي المدينة من سكانها المغاربة بعد أن امتنع هؤلاء عن مغادرتها طوعا واضطر قائدا الجيش الماموني إلى استعمال القوة حيث قتلا جماعة من سكان العرائش قبل أن تخلى من سكانها وتسلم لاسبانيا في 20 نونبر 1610 . وقد توصل المامون في مقابل ذلك بـ 200 ألف دوقة و6000 بندقية[21] .

2 — في المعمـورة

المعمورة نقطة تجارية اكتسبت أهمية كبيرة خلال القرن 16/10 . فقد كثر تردد التجار اليها باعتبارها المنفذ الطبيعي لسهل الغرب الغني ، وكانت تجتمع فيها — قبل التصدير — ثروات ذلك السهل من عسل وشمع وكتان وجلود وصوف[22] . في حين يستغل بعض سكانها ثروات الغابة المجاورة لتزويد سلا بالخشب اللازم للاعتناء بالسفن . وقد مكن الميناء من هذه

---

(21) اعتمدت في كل هذا الفصل على وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة : 1 — 628 وما بعدها .

(22) وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة — 1 : 624 .

الأهمية موقعه على مصب سبو مما يجعله ملائما لمعطيات الملاحة وامكانيات السفن انذاك.

وفي اطار التوسعات الايبيرية خلال القرن المذكور، اتجهت الاطماع البرتغالية إلى المعمورة حيث حاصرها أسطول برتغالي (يونيه 1515) وأنزل بالمنطقة جيشا قوامه 8 آلاف جندي. غير أن العملية فشلت في النهاية حيث لم يطل مقام البرتغال بالمدينة[23].

وبتخلص المعمورة من البرتغال بدأت أهميتها تزداد بفعل حلول عناصر جديدة بها: ذلك أن طبيعة السطح، وسهولة الدفاع عن المركز، عوامل مكنت القراصنة من مختلف الجنسيات من اتخاذ المعمورة نقطة ارتكاز لعملياتهم. وقد جر استقرار القراصنة بالمعمورة التجار بمختلف اختصاصاتهم بالاضافة إلى الوسطاء والبعثات الدينية المتخصصة في افتكاك الأسرَى كما استقرت بالمدينة أوراش بحرية للعناية بالسفن. وعلى أساس هذه الأنشطة المتنوعة ازدهرت المعمورة واغتنت، فربأ سكانها بأنفسهم عن التبعية لغيرهم، فاستقلوا بالمدينة ورأسوا عليهم واحدا منهم هو هنري ماينوارج[24]. وبذلك غدت المعمورة خطرا كبيرا على التجارة الأروبية، فاتجهت إليها أنظار أروبا.

ولم تكن اسبانيا ترغب في البداية في أكثر من التخلص من خطر المعمورة دون استعمارها. ورأت أن أحسن وسيلة لذلك هي العمل على منع السفن - كيفما كانت - من استعمال المرسَى[25] وفي اطار هاته السياسة

---

(23) انظر كواندرو. قصبة المهدية (بالفرنسية) - ص 47.

(24) Henry Mainwaring قرصان انجليزي من مواليد Chester نجح في الحصول على بعض السلطة ازاء قراصنة المعمورة 1614. غير أنه سرعان ما غادرها بعد سقوطها في يد الاسبان 1614/8/7. واستمر في ممارسة القرصنة. وفي سنة 1618 التحق بخدمة جنوة ليتركها سنة 1619. وفي سنة 1620 كان مشرفا على قصر له مذكرات عن المغرب في وثائق ذي كاستري - ابريطانيا - 2 : 501.

(25) وثائق دي كاستري - الأراضي المنخفضة - 1 : 626.

وجهت أسطولا نحو المعمورة (18 غشت 1611) ، مهمته اغراق 8 سفن محملة بالحجارة عند مصب النهر. لكن الأسطول فشل في مهمته ، وعاد إلى اسبانيا ليظهر في تقريره استحالة الوصول إلى الغاية المرتجاة ما دام جريان النهر (سبو) وقوة الحركة المائية في المحيط سيعملان على ازاحة كل ما يغرق عند المصب.

وقد كان لهاته العملية الاسبانية رغم فشلها أثر كبير: فقد أوضحت من جهة استحالة تطبيق المشروع الاسباني ، ومن جهة أخرى أوضحت للدول المهتمة بالأمر امكانية القيام بعمل ما ضد المعمورة ، ومن جهة ثالثة ضايقت العملية هولندة التي كانت لها نوايا توسعية في المعمورة بالذات.

قررت هولندة ــ باتفاق مع زيدان ــ وضع يدها على المعمورة وبناء حصن قوي بها. ولهذا الغرض وجهت هولندة 3 سفن حربية وسفينة مؤن ظلت تبحر بين أسفي والمعمورة في انتظار التوصل باذن زيدان ببداية الاحتلال والتحصين[26]. لكن انشغال زيدان بثورة أبي محلي جعله يماطل في اعطاء الاذن.

وفي هذا الوقت امطر قائد المعمورة بمجموعة من العروض التي ترغّبه في التبعية مقابل الاعتراف بوجوده وتأمين استقلاله[27] فلم يبق لاسبانيا ــ على هذا ــ إلا أن تنظم حملة عسكرية ضد المعمورة لتسبق غيرها اليها.

غادر ميناء قادش (1 غشت 1614) أسطول قوامه 99 سفينة عليها 7500 جندي في كامل الاستعداد ووافر المؤن. ووصلت الحملة إلى المدينة في اليوم الرابع من نفس الشهر[28].

---

(26) نفسه فرنسا ــ 2 : 568.

(27) نفسه وقصبة مهدية ــ كواندرو ــ ص 41.

(28) نفسه ــ الأراضي المنخفضة 1 : 628.

ولم يكن من السهل الاستيلاء على منطقة بنفس حصانة المعمورة ، خصوصا وأن القراصنة كانوا قد اتخذوا عند مدخل النهر حاجزا من الصواري والسلاسل يمنع أية سفينة من الدخول إلى النهر. على أن الحملة الاسبانية توفرت بالصدفة على مجموعة من العوامل المساعدة : فالسفن الهولندية المكلفة بتحقيق الاتفاق الذي سبقت إليه الاشارة مع زيدان والتي كانت ترابط منذ شهرين بين المعمورة وأسفي ، ضيقت على قراصنة المعمورة ومنعتهم من الاتصال بغيرهم[29] وواجه القراصنة في نفس الوقت مصاعب في البر.

وهكذا تمكنت القوات الاسبانية من الاستيلاء على الحصن[30] صبيحة يوم 29 جمادي الثانية 1023/ 6 غشت 1614 . وأعطى الاسبان للمعمورة اسما جديدا San Miguel de Ultramar.

ونزلت بهذا المركز الاسباني الجديد حامية مكونة من 1500 رجل لتشغل الحصن الذي بني على يد من سقط في الأسر من القراصنة . وكان قائد الحامية يرى أن عدد أفرادها الكبير موقت يجب الاحتفاظ به في انتظار اكمال اعمال التحصين التي ستغني بعد انتهائها عنه . وباستقرار الاسبان في المعمورة اكتمل البناء الاستعماري الايبري في المغرب ، وأضيفت إلى المستعمرات القديمة (مليلية وسبتة وطنجة والجديدة) مستعمرتان جديدتان : هما العرائش والمعمورة .

---

(29) وثائق دي كاستري– الأراضي المنخفضة– 3 : 335 .

(30) يظهر من خلال وصف العملية أن الحصن كان موجودا عند ضفة النهر وليس فوق المرتفع اما الموجود حاليا فهو من بناء الاسبان : انظر وثائق دي كاستري– فرنسا– 3 : 541 .

ثالثا : خطورة الاستعمار الايبيري بالنسبة للمغرب

يشكل احتلال اسبانيا لنقط على الساحل المغربي حدثا خطيرا بالنسبة للبلاد ، وتظهر هذه الخطورة على مستويين : مستوَى سياسي عسكري ، واخر اقتصادي اجتماعي .

أولا : على المستوَى السياسي العسكري :

يعني هذا الاحتلال فقدان المغرب لجزء من ترابه ، وتهييئا ممكنا لمزيد من الاحتلال الذي يعني في النهاية فقدانه لسيادته على كل أراضيه ولاستقلاله .

ذلك أن مواقع المدن المحتلة من طرف الأجانب مواقع تجعل ذلك المحتل يُطوِّق من جهتين رئيسيتين كل البلاد . فإذا اعتبرنا قرب تلك النقط من ايبيريا وسهولة تموينها وايصال القوات اليها لتصورنا مدَى سهولة اتخاذ تلك المدن كقواعد أمامية يمكن اتخاذها كمنطلق لاحتلال اجزاء أخرَى من البلاد ، أو اتخاذ تلك المدن — المعروفة بمناعتها — ملجأ للقوات الأجنبية في حالة تضييق المغاربة عليها . والأمر في الحالتين لا يشكل أي خطر على ايبيريا ما دامت العمليات العسكرية تجري فوق أرض غير ايبيرية ، وما دامت نتائج تلك المعارك ربحا في حالة الانتصار ، ولا خسارة في حالة الانهزام .

كثير من المغاربة كان يرَى في الوجود الايبيري مقدمات لاكتساح كل البلاد . ويوضح هذه النظرة اتجاه عام يفسر هذا الوجود بالطريقة التالية : «فلا يغيب عن فطنتكم كيدهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر .. واذكروا وذكّروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على الجزيرة ... وكانت أضخم

ملكا من هذه العدوة وأكثر عَدَداً وعُدَداً ... فلم يزل العدو ينازلها من أطرافها .. حتّى انتظمت كلها في سلكه .. وها هو قد عبر البحر الينا ...»[31] .

وهذه النظرة تعبر دون شك عن رأي عام ، فالذين وضعوها في هذا الاطار هم مجموعة من الفقهاء والقضاة والأعيان .

ومن جهة أخرى كان لِاستيلاء الاسبان على العرائش اعتبار خاص عند المغاربة . فقد تم هذا الاستيلاء دون حرب ، وقُدِّمت العرائش للمحتل كثمن لمساعدته لأمير مغربي في حرب مع أمير مغربي آخر . فظهرت العملية في مظهرين : الأول منهما احتلال دولة أجنبية لقسم من البلاد ، والثاني تدخل دولة أجنبية في مشكلة مغربية داخلية تتعلق باختيار المغاربة لملكهم . ويكفي لتصور خطورة هذه النظرة بالنسبة للمغاربة تصفح حوليات هاته الفترة ، حيث نجد العامة انكروا على بعض الأعيان استقبالهم للمامون عند رجوعه إلى المغرب حتّى أنهم ... في رجوعهم إلى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعا[32] . بل ان الناس أنكروا على بعض الفقهاء افتاءهم بجواز ما فعل المامون ، حيث قتلوا الفقيه محمد بن القاسم بن القاضي .. وسبب قتله ما اتهم به من موافقته على تمكين النصارَى من ثغر العرائش[33] .

ويدخل أيضا في باب التعبير عن هذه النظرة فرار جماعة من العلماء واختفاؤهم مدة استبراء لدينهم حتّى صدرت الفتوَى من غيرهم[34] .

---

(31) من رسالة موجهة إلى العياشي– في «الخبر عن ظهور العياشي» ص 31/30 .
(32) الاستقصا– الناصري– جـ 6/ ص 20 .
(33) نفسه ص 21– قتل بالقرويين 1631 .
(34) نفسه ص 22 .

وإذا كان الاحساس بخطورة هذا الاحتلال على المستوَى السياسي والعسكري يتطلب – لكي يظهر – نوعا من الوعي ، فان الاحساس بخطورته على المستوَى الاقتصادي والاجتماعي يظهر بمجرد معاناة أول مظاهر ذلك التوسع .

ثانيا : على المستوَى الاقتصادي الاجتماعي :

وتظهر هذه الخطورة على 3 مستويات يعدّ كل منها للذي يليه . وهذه المستويات هي :

أولا : جو الاضطراب وعدم الاستقرار المترتب مباشرة عن وجود قوات أجنبية في نقط ما ، مع اضطرار تلك القوات – بحثا عن بعض الحاجيات كالحطب وما شابهه – إلى مغادرة تلك النقط ، للقيام بعمليات داخل الأراضي الغير تابعة لها .

تنتهي هذه العمليات الخارجية في غالب الأحيان بالاصطدام بالمغاربة في شكل مناوشات كانت تنتهي – في غالب الأحيان أيضا – بالحاق بعض الخسائر بالمغاربة : بسقوطهم في الأسر أو فقدانهم لبعض ممتلكاتهم من مواشي وغيرها . وقد أدت هذه العمليات إلى ظهور تخوف عند المغاربة من ارتياد المناطق القريبة من المدن المستعمرة من جهة ، وإلى اضطرار البعض الاخر منهم إلى عقد شبه هدنة مع الاسبان لقاء ضريبة ما يتنازل عنها المغاربة الذين أصبحوا بالنسبة للايبيريين مغاربة مسالمين[35] وبالنسبة للمغاربة عملاء . في حين يعتبر أولئك أنفسهم مواطنين من نوع خاص ، فلا يتورعون عن القيام بعمليات تضر بدورها – كما تضر عمليات الاسبان أنفسهم – بالمغاربة .

---

(35) Moros de Paz نصادفهم حول سبتة وبين طنجة والعرائش – انظر أجوبة السكتاني (خطية الخزانة العامة رقم 1016) ص 42 – 43 – 44 ،

فما هو نوع الضرر اللاحق بهؤلاء المغاربة ؟ هناك أولا ضرر مباشر يتمثل فيما يتكبدونه من خسائر تصفها – مع نوع من المبالغة – مذكرات بعض حكام البريجة أو بعض المراسلات الواردة في وثائق دي كاستري[36] . وهناك ثانيا الضرر الناتج عن محاولة أولئك المغاربة تلافي الاصطدام بالأجانب اجتنابا للأضرار المذكورة انفا . غير أن محاولة الاجتناب هاته تؤدي إلى الامتناع عن استعمال قطاعات كان استعمالها يدخل في اطار جهاز اقتصادي معقد يعتمد على الربط بين معطيات المنطقة الطبوغرافية والترابية ، ومعطيات تغير الفصول لاستغلال قطاع ما في وقت ما . ولا بد أن نتذكر هنا ملاحظتين لها اعتبار كبير : الأولى ان قسما مهما من سكان الغرب – وهم على العموم عرب – يحترف الرعي بوجه خاص[37] مع ما تتطلبه هذه الحرفة من اتساع في حقل التحرك واختيار مناطق التحرك حسب ملاءمتها للرعي . والثانية أن منطقة الغرب تتكون من مجموعة قطاعات تتسم بملاءمتها للنشاط الرعوي مع اعتبار تنوع معطيات تلك القطاعات وتكاملها : فهناك غابة المعمورة وهناك المنطقة السهلية وهناك المنطقة المغمورة التي تعرف باسم المرجة غمرا يعرف مدا وجزرا حسب الفصول . وتفرض خاصية التكامل هاته تحرك القطعان من قطاع إلى اخر في فترات مضبوطة التوقيت . ونتصور بسهولة خطورة استحالة استعمال قطاع من القطاعات الثلاثة المذكورة . ذلك أن الوجود الأجنبي في العرائش والمعمورة بالأخص اخضع بكيفية غير مباشرة قسما من الغرب لأولئك الأجانب . «فالشائع أن ... النصارى امتدت مسارحهم إلى الغابة (المعمورة)»[38] . ونفس هذا القول ينطبق على الغابات البسيطة المحيطة بالعرائش وجزء من المرجات القريبة من المدينتين المذكورتين . وهذا

---

(36) Les sources inedites de l'histoire du Maro

(37) L'Afrique de Marmol. Livre IV – p. 146

(38) الخبر عن ظهور العياشي – ص 7

ما أرغم ــ دون شك ــ المجموعات التي تعودت استعمال تلك القطاعات على البحث عن قطاعات تكميلية جديدة تدخل في الجهاز الاقتصادي للمجموعات المجاورة.

وهذا ما يؤدي إلى الاطاحة بالتوازن الذي يتسم بكثير من الضعف في منطقة الغرب بين الاجزاء المخصصة لكل مجموعة قبلية.

ثانيا : تتميز الوضعية القبلية في منطقة الغرب في بداية القرن 17 بكثير من قلة الاستقرار الناتج مباشرة عن تصرفات السلطة السعدية. ودون الرجوع كثيرا إلى الوراء لتتبع مراحل استقرار القبائل القاطنة فيه، يكفي أن نتذكر ان هاته القبائل استقرت بالغرب منذ القرن 12م، وانها اتخذت فيه وضعية جيدة اعتبارا لعاملين:الأول اعتبار المنطقة منطقة نادرة السكان[39]. والثاني كون بعض القبائل المستقرة في المنطقة قبائل جيش أي تتوفر على أراضي تعتبرها خاصة بها مقابل ما تزود به الدولة من الدعم العسكري. والجديد في أواخر القرن 16 هو نقل المنصور قسما من الخلط الذين كانوا قبل في تامسنا حيث أنه لما «رأى ... فعلهم في معركة وادي المخازن أخذ النصف منهم وردهم إلى الجندية وأبقَى النصف الآخر في غمار الرعية، ونقلهم إلى ازغار فاستوطنوه[40]. ودون تحمل عناء استعراض مجموع القبائل التي كانت تقطن الغرب في هذا الابان، ودون تحديد لمواطنها يظهر بكل وضوح أن ايصال عدد جديد من السكان إلى منطقة تعود سكانها استغلال مواردها، وفقا لعدد من السكان، يؤدي دون شك إلى الاخلال بالتوازن الذي أقر بكيفية أو بأخرَى قبل دخول النازحين الجدد. وقد أدت هذه الوضعية إلى ظهور مجموعات بشرية «طافية» لا تجد مكانا للاستقرار وبالتالي لتعاطي نشاطاتها التقليدية. وقد ظهرت هذه المجموعات بشكل واضح في هوامش سهل الغرب : ففي جنوبه تشكلت جماعات

(39) Ed. Michaux-Belaire – le Gharb – in Arch. Mar-XX p. 20.

(40) الاستقصا ـ الناصري ـ ج 2/ص 177.

فوضوية وسط قبيلة أولاد سجير وفي شرقه ظهرت جماعات من الحياينة وشراقة . والسبب الواضح لظهور هذه الجماعات في المناطق التي ظهرت فيها أن تلك المناطق تشكل النهاية الطبيعية لكل توسع قبلي مثلما هو الحال بالنسبة لجنوب الغرب حيث تبدا في الظهور مرتفعات الهضبة الوسطَى أو النهاية البشرية كما هو الحال بالنسبة للجنوب أو الجنوب الشرقي حيث تظهر جماعات بشرية أخرَى تستغل هاته المناطق حسب جهازها الخاص : فاطراف ازغار الشرقية تشكل المراعي الشتوية لقبائل الأطلس المتوسط الغربي .

وبذلك كله تظهر صورة الاضطراب الكبير الذي عرفته منطقة الغرب : فبالاضافة إلى الاضطراب الناتج مباشرة عن الوجود الأجنبي ، هناك اضطراب اخر تسبب فيه استحالة ممارسة النشاط الاعتيادي بالنسبة لبعض الجماعات التي وجدت في ضعف السلطة الرسمية ، بل وفي استعانة تلك السلطة بها[41] ، الفرصة الملائمة لممارسة نشاط من نوع جديد يعتمد على القوة للسلب والنهب . وفي ذلك ما فيه من الاضرار بالمغاربة على مستوَى أوسع .

ثالثا : ذلك أن تأثير الوجود الايبيري الجديد لم يقتصر في هذا المستوَى على اقليم الغرب وحده بل عم سائر البلاد ، باعتبار ان احتلال اسبانيا للعرائش والمعمورة يشكل اخر مرحلة من مراحل التضييق الممارس على الاقتصاد المغربي . ويظهر ذلك من خلال الملاحظات التالية :

1 — يشكل سهل الغرب الصّلة الطبيعية بين شمال وشرق المغرب ، والسهول الأطلسية ومنها نحو باقي الاتجاهات . لذلك فقد وجدت في هذا الممر الطبيعي المهم شبكة مواصلات تخضع خضوعا كبيرا — باعتبار بساطة التقنيات — للمعطيات الطبيعية . حيث تنطلق من سلا أقرب المراكز

(41) انضمت قبائل شراقة لعبد الله بن الشيخ المامون — انظر الاستقصا — 6 : 52 .

البشرية من هذا السهل طريقان : يتجه الأول بمحاذاة الساحل إلى المعمورة ومنها نحو مدن الشمال ملازما الساحل باستمرار ، ويتجه الثاني نحو فاس دائرا بغابة معمورة في اتجاه شرقي . وتتجه من هذين المسلكين الرئيسيين شبكة مسارب وممرات تربط بين مختلف قرى المنطقة .

وتشكل نقطة التقاء هذين المسلكين قرب سلا منطقة استراتيجية مهمة نظرا لكونها الصلة الوحيدة — غربا — بين سهل الغرب والسهول الأطلسية . فاذا علمنا ان مسارح الاسبان في المعمورة امتدت إلى الغابة لتصورنا سهولة احتمال انقطاع تلك الطريق أو على الأقل عدم امكانية استعمالها بامان .

2 — تشكل الطرق القاعدة الأولية لكل نشاط تجاري . وقد عرفت المنطقة نشاطا تجاريا مهما اعتبارا لثروة المنطقة الفلاحية من جهة ولوقوع مدينتين صناعيتين رئيسيتين عند هوامشها هما فاس وسلا . ولسلا في هذا الابان وضعية خاصة : فهي مدينة هامشية بالنسبة للصراعات السياسية التي كانت تدور بشكل خاص ومُركّز حول العاصمتين فاس ومراكش ، في حين تعرف سلا استقرارا نسبيا بالمقارنة بهما . وسلا من ناحية أخرى شهدت منذ وقت قريب توافد عدد من المهاجرين الاندلسيين الذين اعطوا الانتاج الصناعي في المنطقة دفعة قوية . وسلا فوق كل هذا تشكل المصدر الرئيسي لكثير من المواد الاستهلاكية الاستعمالية بالنسبة لقسم مهم من سكان سهل الغرب الذين يعتبرون المدينة أقرب الأسواق الحضرية اليهم .

وفي نفس الوقت يشكل سهل الغرب موردا مهما لكثير من المواد الأولية اللازمة للنشاط الصناعي الذي تعرفه سلا . ويكفي أن نتذكر أن من بين الصناعات النشيطة فيها انذاك المنسوجات الكتانية والصوفية ، وصناعة الجلود بالاضافة إلى النجارة وصناعة الحصر ، وهي صناعات ظلت موجودة على الأقل إلى القرن 19 [42] وهذه كلها صناعات — وان

(42) الحوالة الحبسية لمدينة سلا — الخزانة العامة رقم 40 .

كانت تتوفر على بعض لوازمها الأولية من ضواحي المدينة مباشرة — فهي تعتمد كثيرا على منتجات الغرب من كتان وصوف وجلود وخشب ... [43].

ومن هنا يظهر التضييق الذي يمارسه الوجود الايبيري قريبا من المنطقة ، والتضييق الذي يمارسه بشكل واضح عند قطعه أو محاولة قطعه الاتصال التقليدي بين سلا وباقي الغرب.

وقد كان بالامكان أن ينتج عن هذا القطع تركز كبير لتيار التبادل بين الغرب وفاس ، لكن وضعية فاس لم تكن لتسمح بتعويض التيار المتجه إلى سلا ، ويكفي تصفح كتاب الاستقصا[44] في هاته الفترة للتعرف على الخراب الذي لحق بمدينة فاس.

3 — بالاضافة إلى هذه التاثيرات التي تتميز باقتصارها على منطقة معينة من البلاد ، فان للوجود الايبيري الجديد — في العرائش والمعمورة — آثارا تشمل كل البلاد . ويتمثل ذلك في ان احتلال المدينتين المذكورتين يغلق في وجه المغرب آخر منافذه التقليدية نحو البحر :

— فأهم الموانئ مُحتَكَرة من طرف الاجانب في مليلية وسبتة وطنجة والعرائش والمعمورة والجديدة وحجر بادس.

— الموانئ المتبقية محتكرة من طرف قُوًى سياسيةٍ جديدةٍ تستفيد لوحدها منها : مثل ماسة التي كانت خاضعة لسلطة أبي حسون السملالي ، وهي وان كانت لا تزال تشكل منفذا للتجارة الخارجية فان بُعدَها عن كثير من الأقاليم يجعلها ذات أهمية محدودة بالنسبة لتلك الأقاليم . ومثل اسفي التي كانت من نصيب السلطان السعدي في مراكش ، حيث جعل

---

(43) Les merjas de la plaine du Sebou – J. Celerier – p. 214.

(44) الاستقصا — الجزء 6 .

منها ميناء خاصا به[45] ومثل مصب أبي رقراق وتطوان الذين خضعا في هذا الابان لسلطة المهاجرين الأندلسيين الذين اتخذوا من تلك المراسي منطلقا لعمليات القرصنة التي لا تساعد على استمرار وجود نشاط تجاري عادي .

— أما الموانئ التي يمكن أن تستعمل من طرف المغاربة فهي على ذلك ازمور وأصيلا . اما أصيلا فالظاهر أنها لم تكن مستعملة قط كميناء . ذلك انها تحررت بشكل عَفْوي عندما غادرها البرتغال 1550[46] ثم احتلت مرة ثانية 1557[47] إلى سنة 1588 حيث غادرها البرتغال مرة ثانية ... تركوها يبابا وذهبوا[48] .

وعلى ذلك لم يبق للمغرب الأطلسي إلا ميناء واحد هو أزمور ، وهو كان عرضة للهجومات البرتغالية من الجديدة .

ويعني كل هذا أن الوجود الايبيري في المغرب يشكل خطرا مباشرا بما يسببه من التضييق اليومي على المغاربة ، بالاضافة إلى أنه يشكل خطرا على استقرار الجهاز الاقتصادي للبلاد . فما هو الموقف الذي اتخذه حكام المغرب لمواجهة هذا الخطر ؟

---

(45) تاريخ الدولة السعدية— مؤلف مجهول— ص 101 .

(46) Chronique de Santa-Cruz – Tr. De Cenival – p. 157.

(47) وثائق دي كاستري— إسبانيا— 3 : 320 .

(48) الاستقصا— 5 : 119 .

حكام فاس

(1) عبد الله بن المامون : 1012/1603 — 11رجب 1019/شتنبر 1610

(2) زيدان — أبو فارس — المامون : ؟ — 1020/1611

(3) سليمان بن محمد الزرهوني: 1020/1611 — 1026/1617

(4) محمد اللمطي المربوع : 1026/1617 — 1027/1618

(5) عبد الله بن المامون : 1027/1618 — 1028/1619

(6) محمد بن الشيخ زغودة: 1028/1619 (شهر واحد)

(7) محمد سليمان الأقرع

(8) علي بن عبد الرحمن

(9) أحمد بن الأشهب

(10) الحاج علي سوسان : 1028/1619 — 1032/1623

(11) ابن يعلى

(12) يزرور

(13) مسعود بن عبد الله

(14) عبد الملك بن المامون: 1032/1623 — 1036/1627

(15) أحمد بن زيدان : 1036/1627 — ؟

ملوك مراكش

(1) زيدان بن أحمد المنصور
1627/1037 – 1603/1012

(2) عبد الملك
1627/1037
1631/1040

(3) الوليد
1631/1040
1636/1045

(4) محمد الشيخ
1636/1045
1652/1063

(5) أحمد
1652/1063
1658/1069
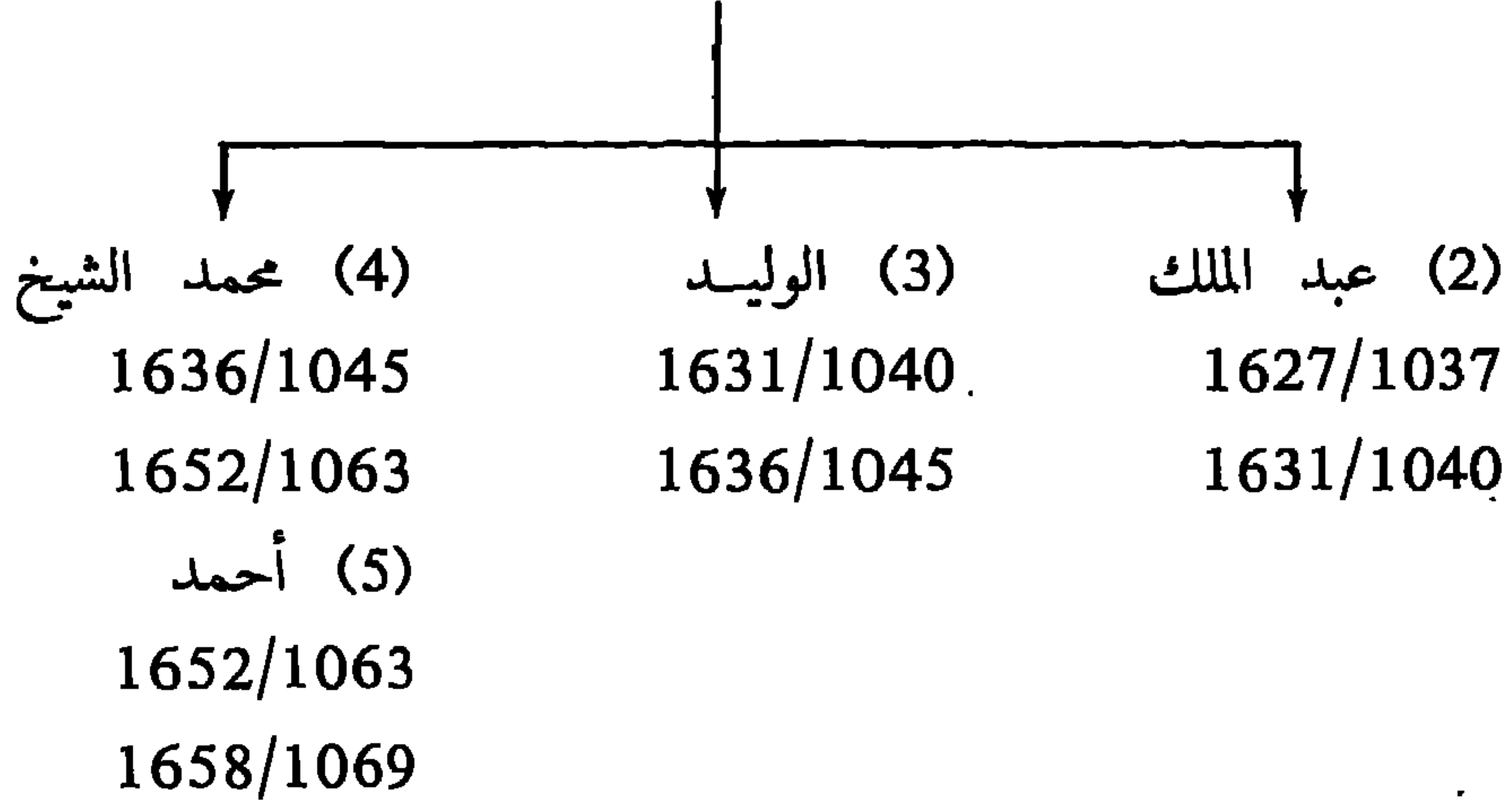
رابعا : ردود الفعل المغربية

1 – عجز السعديين عن مواجهة الغزو الاجنبي :

رغم الشكل الاستفزازي الذي اتخذته العمليات الاسبانية في المغرب في مناسبتين (1610 و14) ورغم الخطورة التي تنطوي عليها تلك العمليات – التي أشرنا اليها في الفصل السابق – يلاحظ أن السلطة السعدية توقفت عن القيام بأي عمل للرد على هذا التوسع أو محاولة التخلص منه .

والجدير بالذكر أن توقف السعديين المتاخرين عن الجهاد ما بين وفاة أحمد المنصور واحتلال العرائش (1603 إلى 1610) يعتبر توقفا اعتياديا يشابه فيه ابناء المنصور والدهم الذي لم يفكر وهو في أوج عظمته في تنظيم حملة ضد المراكز المحتلة مثل طنجة وسبتة ومليلية والجديدة . غير أن احتلال الاسبان لمدينتين – بالطريقة التي رأينا قبل – كان يقتضي قيام ابناء المنصور انطلاقا من سنة 1610 بعمل ما في باب الجهاد . غير أن هذا لم يتحقق ، اللهم الا ما كان من محاولة عبد الله بن الشيخ المامون لاستنفار الناس للرد على دخول الاسبان العرائش[49] . لكن المحاولة لم تتم . ومن جهة أخرى كان زيدان بن أحمد المنصور – حاكم مراكش في نفس الوقت – يعمل لتجهيز القوة اللازمة لمحاربة الاسبان ، ويتصل في هذا الشان بالباب العالي قصد الحصول على مساعدة عسكرية وذلك ... «حتّى نتمكن من الحاق الضرر باسبانيا»[50] . لكن المشروع يفشل بسبب مضايقة

(49) الناصري – الاستقصا – 6 : 18 .

(50) وثائق دي كاستري – الأراضي المنخفضة – 1 : 670 .

سفن اسبانية للسفن المغربية المتجهة إلى اصطنبول قرب الشواطئ المغربية .

أما السفارة التي وصلت إلى السلطان العثماني سنة 1617/1027 فانها لم تتمكن من تحقيق غايتها ، ذلك أن السلطان بعث مع السفير المغربي ... رسالة جواب ملأها بكلام جميل وهواء[51] . وتمثلت آخر محاولة للسلطان المغربي زيدان في محاولة تأسيس أسطول حربي ، واتصل في هذا الصدد بهولندة ، ونجح في الحصول على 3 قطع حربية ، لكن المحاولة انتهت بدورها بالفشل بعد أن أغرقت أو اتلفت اسبانيا القطع المذكورة[52] .

ومن هنا نرى أن العمل الجهادي الذي كان من المنتظر أن تقوم به السلطة السعدية لم يخرج من حيز الاعداد ، وينطبق هذا الحكم على زيدان كما ينطبق على ابنه الوليد الذي فكر هو الاخر في تنظيم عمليات جهاد ، لكن المشروع وقف عند حد التفكير[53] .

ولم تقف سلبية ابناء المنصور عند حد التوقف عن الجهاد ، بل طغت على علاقات بعضهم مع الأجانب صفة المهادنة والتوادد : فقد ربطت علاقات طيبة بين زيدان وبين الدون جورج ماسكارينياس[54] حاكم البريجة البرتغالي . وزود حاكم البريجة السلطان بفرقة من 200 جندي لمساعدته في حروبه ضد الحاحي (1625) بالاضافة إلى عتاد وذخيرة[55] ، وتقاطرت على زيدان قبيل ذلك العروض بالالتجاء إلى البريجة ومنها إلى اسبانيا[56] . أضف إلى كل هذا اصناف الهدايا والالطاف

(51) نفس المصدر– ص 2/671 .

(52) نفسه 673/1 .

(53) الخبر– أبو املاق ص 49 .

(54) Don Jorge Mascarenhas ابن Fransisco Mascarenhas de Castello Novo
عين حاكما على الجديدة بتاريخ 1636/11/11 ، وقتل في معركة ضد العياشي في 1640/4/11 .

(55) R. Ricard : Mazagan et le Maroc.. p. 44

(56) دي كاستري – فرنسا 3 : 20 وما بعدها .

التي تقدم من طرف البرتغالي في البريجة إلى السلطان في المناسبات وغير المناسبات . مع ما يتطلبه ذلك من الاعتناء والاحتفاء كاطلاق المدافع اظهارا للفرح بانتصاره ...

وكانت هذه المهادنة تصل – في بعض الأحيان – إلى حد تحقيق المآرب الشخصية المتمثلة في الرغبة في الحصول على السلطة ولو على حساب التراب الوطني . ويعطي موقف الشيخ المامون من قضية العرائش المثال النموذجي لهذه الحالة . وقد رأينا عند الحديث عن سقوط العرائش بعض تفاصيل كيفية حصول الاسبان على تلك المدينة ، ورأينا الدور الذي لعبه السلطان في تسهيل حصول دولة أجنبية على قسم من التراب المغربي . والذي يجب الانتباه اليه هنا ، هو ان ملكا مغربيا لم يتورع عن تسليم مدينة بكاملها للأجانب مقابل مساعدة بسيطة لم تفده في شيء في استرداد سلطته ، وان موقف هذا الملك كان له – دون شك – أثر سيئ على الاحساس الشعبي العام الذي لا شك أنه لم يرض عن هذا التصرف .

وقبل الحديث عن آثار موقف ابناء المنصور بشكل عام من الوجود الأجنبي ، لابد من محاولة التعرف على الاسباب التي جعلت هؤلاء السلاطين – وهم المسؤولون عن الدفاع عن البلاد – يمتنعون عن لَعْب الدور المنوط بهم في هذا الباب : وان كان هذا لا يعني – بالطبع – تبرير تصرفاتهم .

1 – أول أسباب عجز السعديين وتوقفهم عن مواجهة الغزو الأجنبي يتمثل في الوضعية السياسية التي عرفها المغرب عقب وفاة أحمد المنصور ، تلك الوضعية التي يمكن أن نقسمها إلى مراحل هي : المرحلة الأولى الممتدة من وفاة المنصور (1603) إلى التزام زيدان بالاعراض عن أمر الغرب ، والاهتمام بما يقع جنوب أم الربيع (1610). دامت هذه المرحلة 7 سنوات ، وامتازت بالنزاع بين 3 من أبناء المنصور (زيدان وأبو فارس

ومحمد الشيخ المامون). حيث وقعت 8 عمليات حربية كانت نتائجها تؤثر على استقرار أحد المتنازعين في العاصمتين فاس ومراكش. وتنتهي هذه المرحلة باستقرار زيدان بمراكش، والمامون بفاس في حين يموت الثالث (أبو فارس) قتيلا سنة 1018.

أما المرحلة الثانية فتعرف تعقدا في الأحداث كبيرا بسبب مشاركة شخصيات جديدة فيها: مثل أبي محلي والحاحي، بالاضافة إلى شخصيات ثانوية بعضها من البيت الحاكم مثل أحمد بن زيدان وعبد الملك بن المامون وعبد الله بن المامون والبعض الآخر أقرب إلى رؤساء العصابات منه إلى حكام. تمتد هاته الفترة من 1610 إلى 1626. وتتصف بالاضطراب الكبير وبعدم تمكن الملوك، الرسميين، من ممارسة أية سلطة، وقضائهم لكثير من وقتهم في التنقل بحثا عن الانصار أو فرارا من المهاجمين.

في حين تتميز المرحلة الثالثة (1626 ــ 1658) بتقلص سلطة السعديين لتشمل المناطق المحيطة بمراكش، وتتقاسم البلاد 3 قوى سياسية: أبو حسون السملالي في الجنوب الغربي، والدلائيون في وسط وشرق البلاد، والعياشي في الشمال الغربي والغرب. فيظهر مما سبق اذن أن سلاطين الدولة السعدية ــ خصوصا خلال المرحلة الأولى والثانية ــ لم يكونوا متفرغين لشيء آخر غير محاولة تثبيت نفوذهم في مراكز سلطتهم أو القضاء على مناوئيهم من غير المتنافسين الشرعيين. بل ان جو النزاع هذا كان في بعض الأحيان يشكل الحافز لبعض المتنافسين للحصول على المساعدة من الدولة الأجنبية التي تستعمر قسما من البلاد.

كما أن ظروف هذا الاضطراب كانت تشكل أحيانا عائقا أمام القيام بأي عمل جهادي. فهذا عبد الله بن المامون يعد العدة لمهاجمة العرائش في نفس سنة سقوطها، إلا أن حركته تفشل بمجرد اقتراب زيدان بجيوشه من فاس... حيث انفض الناس عن عبد الله خوفا من زيدان[57].

(57) الاستقصا ــ الناصري 6 : 18.

2 — وكانت أول نتائج هذه النزاعات تقلص سلطة السعديين الفعلية . وتجدر الاشارة هنا إلى صعوبة تعيين المناطق التي ظلت خاضعة فعلا للسعديين وترجع هذه الصعوبة إلى اعتبارين : الأول منهما يتعلق بمفهوم التبعية الفعلية ، إذ يظهر لأول وهلة أن التبعية الفعلية هي التي تقوم على وجود بيعة تربط بين السلطان وبين قبيلة أو مجموعة قبلية ، مع ما يقتضيه ذلك من وجوب الطاعة للسلطان أي الاعتراف بحقه في تجنيد الاجناد وجبي الجبايات والفصل في الخصومات ومن هنا تأتي صعوبة التعيين . ذلك أن المغرب في عمومه لازال يعترف بوجود عقد بيعة للسعديين ، غير أن تطبيق حقوق السلطان بمقتضي تلك البيعة هو الذي يصادف كثيرا من الصعوبة . أما الاعتبار الثاني فهو مرتبط بالنسبية الزمنية للتبعية ، فمنطقة تعترف بالسلطة السعدية في وقت ما ، قد لا تحافظ على تلك التبعية بعد مرور وقت طويل أو قصير ، وهذا مرتبط بالنزاع بين ابناء المنصور ، واستغلال بعض القبائل لهذا النزاع للتخلص من تبِعات التبعية لهذا الحاكم أو ذاك . على كل يمكن القول إن المناطق التي كانت تابعة فعلا للسعديين لم تكن تمثل القسم المهم من البلاد وعلى ذلك فقد انتفت عن السعديين الصلاحية الشرعية لقيادة المغاربة في شؤونهم الدينية والدنيوية ومنها الجهاد . زد على ذلك أن التبعية تعني على المستوَى المادي اطاعة الأوامر عند الاستنفار ، والاذعان لها عند الجباية . ومتَى تقلصت رقعة المناطق المطيع أهلها للأوامر قلت بتقلصها القوة العسكرية اللازمة لكل عمل عسكري .

3 — فقد كان من بين أسباب توقف السعديين عن الجهاد — دون شك — افتقارهم إلى الأموال اللازمة لتنظيم أية عملية عسكرية بما تتطلبه هاته من ارزاق للجند ومؤن وسلاح وذخائر ، والملاحظ أن الدولة السعدية — في مراكش أو فاس — لم تعد تتوفر على المال ، وهذا لعدة أسباب :

أولا : اضمحلال موارد المال التقليدية التي كان يستفيد منها أحمد المنصور الذي بنى عظمته الاقتصادية على 3 أسس هي السكر والذهب والتجارة الصحراوية :

فبسبب ظروف الحرب التي عرفتها البلاد خربت معظم معاصر السكر التي كانت منتشرة في سوس وشيشاوة وغيرهما ، دون أن يكون ذلك التخريب شاملا ، بحيث لا زالت كميات من السكر المغربي تصل إلى أروبا ، حيث نجد زيدان يوجه يهوديا لبيع 235 صندوقا من السكر اليها[58] . غير أن هذه العملية لم تكن الا حالة استثنائية ، بالاضافة إلى هذا ، قلت أهمية المغرب في باب انتاج السكر اذا ما قورن بدول العالم الجديد التي أصبحت تنتج بكميات أكبر وبشكل مستمر.

ومن جهة ثانية قل مستورد المغرب من تبر افريقيا نتيجة عدة عوامل منها : انهيار نظام التبادل الذي أقره السعديون وتحكموا بمقتضاه في سعر الذهب[60] . ومنها ما يتعلق بتغير الطرق التجارية المعتادة ، وطغيان أبي حسون السملالي على تارودانت ودرعة الشيء الذي مكنه من لعب دور الوساطة — على حساب شمال الأطلس الكبير— بين افريقيا وأروبا[61] .

ومن جهة ثالثة قلت أهمية التجارة الصحراوية بفعل خروج توات من تحت السلطة السعدية بعد وفاة المنصور ، وخضوعها لعدة قوى سياسية وجهت التيار التجاري نحو شواطئ المتوسط الخاضعة للاتراك ، وبفعل منافسة التجار الاوروبيين الذين أصبحوا يتصلون مباشرة بسواحل افريقيا الغربية ، زد على ذلك موقف سكان افريقيا أنفسهم من الوجود المغربي في السودان[62] .

---

(58) De Castries — Ang-2 : 490
(59) Histoire du Maroc — Boutaleb et autres p. 219
(60) Histoire du Maroc p. 220
(61) Ibid — 221
(62) Ibid — 221

ثانيا : قلة الموارد المحلية المتأصلة من الضرائب

وهذا مرتبط من جهة بتقلص مناطق نفوذ السعديين ، ومن جهة ثانية بضعفهم الذي لم يكن يساعد على جباية الضرائب وهي العملية التي تتم في ظروفها العادية نتيجة خوف القبائل من العقاب ، ولا عقاب من غير قوة . وهكذا كانت السلطة السعدية تدور في حلقة مفرغة : فهي ضعيفة لأنها لا تستطيع جباية الضرائب ، والتوقف عن جباية الضرائب يزيد من ضعفها . ورغم أن بعض السلاطين كان يظهر أن توقفه عن الجباية فيما يتعلق بالخراج هو من باب الرفق بالرعية والخوف من الاتيان على أموالها[63] فان ذلك كان تبريراً لذلك الامتناع أكثر منه تفسيرا له .

ثالثا : كثرة مصاريف الدولة وكثرة ضياع أموالها نتيجة الاضطراب .

ذلك أن تجهيز العمليات العسكرية كان يتطلب مصاريف كثيرة ، وكثرة العمليات أدّى إلى أن المامون مثلا ... لم يجد لتهييئ العساكر طاقة لفراغ يده من المال وقلة جبايته[64] . كما أن كثيرا من رجال الدولة استغل هاته الظروف للاغتناء على حساب الخزينة العامة . فيونس الايسي ترتب في ذمته من الأموال الشيء الكثير[65] ، وابراهيم بن يعزي حصل بكيفية غير مشروعة على ما ينيف على 50 ألف أوقية[66] ، في حين تنهب مجموعة سلعة تزيد على 50 ألف أوقية ، وينهب شخص آخر سماطا من ذهب يزيد على 60 ألف أوقية .

ولم يكن حظ الشيخ المامون أحسن من حظ أخيه زيدان ، فقد نهب ماله ومنه نحو المد من الياقوت[67] . بل ان ظروف الاضطراب هاته

(63) الاستقصا ــ الناصري 6 : 43 .
(64) نفسه 6 : 9 .
(65) نفسه 6 : 43 .
(66) نفسه 6 : 49 .
(67) الاستقصا ــ الناصري ــ 6 : 23 .

شجعت الأجانب بدورهم على مد أيديهم لثروات السعديين فقد بقي من اثاث المامون نحو سفينة كان قد تركه بطنجة ... فاستولى عليه نصاراها من البرتغال[68] . ومن ذلك أيضا قضية كاستيلان[69] التي فقد فيها زيدان كثيرا من ذخائره وكتبه . وكانت هذه العمليات كافية لانهاك خزائن السلاطين السعديين خصوصا وان المداخيل قلت أو انعدمت كما رأينا قبل .

4 — اما السبب الرابع في تفسير توقف السعديين عن الجهاد فيتمثل في ضياع كثير من قدرات المغرب العسكرية . فقد انهك النزاع القوي المغربية في حروب لم تنته بصورة واضحة الا بانتهاء الوجود السعدي . حيث تسبب النزاع المذكور في مقتل عدد كبير من الرجال الذين كان من الممكن استغلال مقوماتهم ضد الأجانب . وكان القتل يشمل اعدادا كبيرة في كثير من معارك أبناء المنصور . فقد أمر زيدان مثلا بقتل كل الذين تخلفوا في مراكش من أهل فاس أواخر 1015 ، وكان عدد من قتل حوالي 5500 فرد[70] . وكان رد فعل أهل فاس بعد انتصارهم بقيادة عبد الله بن المامون على جيش زيدان في مشارف سلا قتل حوالي 9 الاف

---

(68) نفسه — 6 : 23 .

(69) Jean Philippe Castelane تاجر من مرسيليا . نجده سنة 1611 في أسفي كقنصل لبلاده (فرنسا)، عارضا على زيدان مشروع تحالف مع فرنسا . يتحمس زيدان للمشروع ويطلق سراح مجموعة من الأسرى الفرنسيين ، ويرفق كاستيلان بهدايا إلى لويس 13 . يجد الفرنسي السلطان المغربي — بعد رجوعه من فرنسا — فارا أمام أبي محلي ، ويطلب منه زيدان استئجار سفن لنقل متاعه وأسرته إلى سوس بحرا . وهكذا تركب الأسرة الملكية سفينة هولندية بينما تشحن ممتلكات زيدان على سفينة كاستيلان ومنها بالأخص 73 حملا من الكتب ، ويتفق الطرفان على مبلغ 3 الاف دوقة أجرة الكراء ، وبوصول السفن إلى اغادير ، يرفض كاستيلان تسليم الحمولة قبل التوصل بالأجرة، ويطول انتظاره فيفر، فتعترض طريقه سفن اسبانية تستولي على السفينة ، وتحكم محكمة قادس البحرية بمصادرة الممتلكات وسجن كاستيلان . وتسبب هذه الحادثة أساسا لتوتر العلاقات الفرنسية المغربية .
مات كاستيلان 1619 .

(70) الاستقصا ، الناصري ، 6 — 8 .

1016 [71] ، وفي معركة ثالثة قتل نحو 500 رجل سنة
وفي رابعة نحو 3 الاف في معارك أبي محلي بسجلماسة [73] .
ن هذا النوع كثيرة .

بهة أخرى أدت ظروف الحرب المستمرة إلى الاخلال بالنظام مع
عن ذلك من ندرة في المواد الاستهلاكية ، فإلى ارتفاع فاحش
، أدّى بدوره إلى صعوبة التموين فإلى مجاعة ذهب ضحيتها
46 في مدة لا تتعدّى 5 أشهر [74] . الشيء الذي زاد من حدة
، عرفته البلاد بين 1597 و1608 [75] . وواضح أن هذا العدد
القتلَى كان يؤثر على البنية الديموغرافية للمغرب ، وانه من
تهمنا هنا ، يقلل كثيرا من الاعداد التي يمكن الاعتماد عليها في
عسكري ضد الأجانب .

أثار هذه الوضعية لم تقف عند حد التسبب في هلاك عدد من
ديين أو أفراد الرعية البسطاء ، بل تعدت ذلك إلى التسبب في
من الشخصيات العسكرية والمدنية التي تعتبر دون شك من
كانت مؤهلة للاعداد لأي عمل عسكري ثم قيادته وتنظيمه .
قتلوا بسبب الوضع السياسي أحمد عميرة [76] ، والقائد
شا [77] [78] ، بالاضافة إلى شخصيات كانت مؤهلة لتلعب دور

— 6 : 9 .
— 6 : 19
— 6 : 30 .
— 6 : 55
دي كاستري— ابريطانيا— 3: 354 .
صا— الناصري— 6 : 56 .
ى باشا : هناك 3 قواد سعديين يحملون نفس الاسم ، أحدهم كان في خدمة
، ، ووكل اليه الدفاع عن تادلا . وقد قاد جيوش زيدان ضد المامون في فاس ،
انهزم أمام عبد الله بن المامون وقتل 1609/7/16 .
نصا— الناصري— 6 : 16

القيادة والتوجيه في كل ما يتعلق بالسياسة العامة للبلاد: ومن هاته الشخصيات مفتي فاس محمد بن قاسم القصار[79] الذي مات في القيد وهو في طريقه إلى مراكش موجها من طرف المامون الذي أخذ عليه مبايعته لزيدان[80] سنة 1012 ، والقاضي علي بن عمران السلاسي[81] [82] ، بالاضافة إلى عدد من رجالات الدولة مثل الوزير أحمد بن محمد الغرديس[83] ، ومحمد بن قاسم ابن القاضي[84] ، وعلي بن يوسف الأندلسي[85] ، ومحمد بن أبي الحسن الاغصاوي[86] ، والقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم[87] ، ومحمد بن سليمان اللمطي[88]... وهذه أمثلة المماثل لها كثير ، تدل كلها على ما كانت تتعرض له البلاد من الضياع بفعل ازمة الحكم ، ويكفي أن نتذكر أن عبد الله بن الشيخ

---

(79) القصـــار : أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار الغرناطي الأصل الفاسي النشأة. قدم أبوه من غرناطة 897 . واستقر بفاس . كان متبحرا في جميع العلوم (من منقولها ومعقولها). وقد ولاه المنصور الذهبي الفتوى بجامع القرويين ، وكلفه بتوزيع صدقات المساكين. وكان يتعاطى التدريس ، غير أن ضيقا في عبارته قلل تلامذته بحيث لم يكن يحضر مجلسه الا الواحد أو الاثنان ، وضاع بسبب ذلك كثير من علمه.
بعد وفاة المنصور ، طلبه زيدان إلى مراكش ، فمات في طريقه اليها سنة 1012 .

(80) نفسه — 6 : 6 .

(81) السلاسي : علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي ثم الفاسي. قاضي الجماعة بفاس. كان له اهتمام بالتدريس ونصيب من العلم ، فكان يستظهر مختصر خليل ، وله مشاركة في النحو.
ولد 960 ، وسجنه زيدان 1017 إلى أن سمه في السجن ، فمات في ربيع الثاني 1018 .

(82) نفسه — 6 : 14 .

(83) نفسه — 6 : 23 .

(84) نفسه — 6 : 21 .

(85) نفسه — 6 : 16 .

(86) نفسه — 6 : 22 .

(87) نفسه — 6 : 58 .

(88) نفسه / نفس الصفحة

المامون أعدم مرة واحدة 11 قائدا من بينهم جؤذر باشا[89] .

5 — وكان أخيرا من بين العوامل التي أبعدت السلاطين السعديين عن التفكير في مكافحة الأجانب ، مميزاتهم الشخصية التي كانت تظهر الكثيرين منهم في صفة تجعلهم بعيدين جدا عن الحصول على ثقة الرعية أو احترامها .

فمن الشائع المتداول صفات المامون الخلقية التي تظهره كرجل غير متحكم في غرائزه ، في دخوله إلى مراكش ، يرتكب من المعاصي ، ولا يتورع عن .. أكل رمضان وشرب الخمر فيه جهارا[90] ، وتصرفه أيام ولايته على فاس —على عهد والده— شبيه بما ذكر. أما أخوه أبو فارس ، فهو أكول عظيم البطن ، مصاب بمس الجن[91] ، في حين يظهر الأخ الثالث بمظهر أكثر استقامة ، الا ما كان من أنه غير متوقف في الدماء ولا مبال بعظائم الأمور[92] . مع امكانية مناقشة هذا الوصف على غرار ما فعل الناصري[93] . على أن زيدان كان يتصف بصفة أخرى لا شك أن لها تأثيرا سيئا على شعبيته ، ذلك أنه كان منكوس الراية طول أيامه ، ولم يخل قط في سنة من سني دولته من هزيمة عليه أو وقيعة بأصحابه .. [94] .

وقد سار أبناء زيدان وأبناء المامون على سيرة ابائهم ، ويكفي أن نتصفح بعض ما كتب عنهم لأخذ فكرة عن مدَى قسوتهم التي تصل إلى حد الوحشية أحيانا[95] .

---

(89) وثائق دي كاستري— ابريطانيا— 2 : 362 .
(90) الاستقصا— الناصري— 6 : 7 .
(91) نفسه — 6 : 5
(92) نفسه— 6 : 70 .
(93) الناصري — الاستقصا — 6 : 71 .
(94) نفسه — 6 : 70 .
(95) وثائق دي كاستري— مذكرات روبير كو ، في المجلد 1 الأراضي المنخفضة ص 82 .

من الحق أن أبناء المنصور وأبناءهم توفروا على بعض الصفات الحسنة : فهذا زيدان فقيه مشارك له تضلع في العلوم ، وتفسير على القرآن العظيم[96] ، وهذا أبو فارس يرد ابن أخيه عبد الله بن المامون عن المناكر ويَزجُره عن كثير من القبائح[97] . الا أن الانطباع العام الذي نحس به بعد تتبع اخبار هؤلاء السلاطين بصورة عامة هو عدم صلاحيتهم لاكتساب ثقة الرعية والحصول على الشعبية الضرورية لحصول الانسجام اللازم للقيام بأي عمل مجد .

وقد ترتب عن توقف السعديين عن الجهاد ، وتفاصيل الأسباب التي أدت بهم إلى ذلك ، كثير من النتائج التي نلخصها فيما يلي :

أولا : تعسف السلطة السعدية

ذلك أن حالة الحرب الدائمة كانت تخلق وضعية مزدوجة تؤدي دون شك إلى الظلم والتعسف ، فحاجة السلاطين إلى المال ضرورة تفرضها حالة الحرب ، وحالة الحرب أدت إلى استنزاف السلاطين لكل الوسائل المشروعة للحصول على ذلك المال : فقد أتى عليهم حين كانوا يقترضون فيه الأموال من الناس بشكل سلمي مثلما فعل المامون[98] وابنه عبد الله[99] . غير أن هاته الوسيلة لم تعد ممكنة بعد أن ظهر للناس عجز السعديين عن الوفاء بديونهم . فاتجه الكثير منهم إلى حلول متطرفة مثلما فعل عبد الله بن المامون حينما صادر أموال القواد الكبار[100] ، ثم اتسعت دائرة التعسف حينما أراد أولئك الملوك ارضاء جنودهم لتأمين استمرار طاعتهم : فعبد الله بن المامون يبيح لجيشه مدينة مراكش ، فينهب الدور

(96) الناصري— الاستقصا— 6 : 70 .
(97) نفسه 6 : 17 .
(98) الاستقصا— الناصري— 6 : 7
(99) نفسه— 6 : 9
(100) نفسه — 6 : 6 : 9 .

ويستبيح المحارم[101]، أما جيش زيدان المتغلب مرة على فاس، فانه ينتسف الزرع[102] ثم يعود نفس الجيش إلى المدينة فيطلق فيها السبيل ويحكم في أهلها السيف[103]، ويعود مرة ثالثة إلى فاس، فيأمر زيدان بسلب أهل فاس الذين خرجوا لاستقباله فسلبوا رجالا ونساء .. وكان عدد السلب نحو 101 الاف كسوة[104]. أما عبد الله بن المامون فانه يعطي جيشه أجنة الناس ودورهم .. ومد جيشه اليد إلى حريم الناس ونهبوا الأسواق وجاهروا بالفساد .. واقتحموا على الناس دورهم[105].

وتعطي الأمثلة السابقة صورة عن طبيعة العلاقة التي تربط بين فئتين من المغاربة : السلطة السعدية ومن يدور في فلكها من جهة، وباقي المغاربة الذين أصيبوا في أموالهم وأنفسهم وأعراضهم من جهة ثانية، وكان من الحتمي أن تنهار ثقة الرعية في السعديين.

ثانيا : انهيار الثقة لدى الرعية :

وكان مرد هذا الانهيار إلى مجموعة عوامل تظافرت لتظهر عدم صلاحية ورثة المنصور لممارسة السلطة : فمن جهة أولى سئم الناس جو النزاع المستمر الذي لم يستفد منه أحد، ويعبر عن هذا الرأي قول أبي محلي : ان أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتى فني الناس فيما بينهم وانتهبت الأموال وانتهكت المحارم ..[106].

وسئم الناس من جهة أخرى المواقف التي لم يتورع أبناء المنصور عن اتخاذها في سبيل المحافظة على السلطة، والتي تصل إلى حد التصرف في

(101) نفسه — 6 : 7
(102) نفسه — 6 : 13
(103) نفسه — 6 : 18
(104) نفسه — 6 : 18
(105) نفسه — 6 : 52.
(106) الاستقصا — الناصري — 6 : 52.

التراب المغربي بالبيع أو الشراء : فالمامون يتنازل للاسبان عن العرائش ، ويظهر وكان زيدان يفكر في التنازل لهم عن أسفي[107] ، أو كأنه راض عن الوجود البرتغالي في الجديدة[108] . وما كانت هذه التصرفات إلا لتزيد من تذمر الناس ، ثم من تعبيرهم عن ذلك التذمر بتصرفات معادية لأولئك الحكام . فالمامون ... تمله النفوس ، وترفضه القلوب ، ويضيق أهل فاس بشؤمه ذرعا[109] . بل ان هذا العداء يتعدّى الحكام ليشمل المتعاملين معهم : فقد أنكر الناس على بعض أهل فاس استقبالهم للمامون بعد عودته من اسبانيا ... حتَّى أن أولئك المهنئين .. في رجوعهم إلى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم[110] .

على العموم اذن يظهر أن السعديين لم يعودوا يمثلون بالنسبة للرعية تلك السلطة المقدسة التي تعتبر نفسها مسؤولة عن المحافظة على الاستقرار ، والدفاع عن البلاد ، وذلك كله في جو من المثالية التي تعطي النموذج للرعية . وبوصول الأسرة السعدية إلى هذا المستوَى ، لم تعد صالحة لتزعم أية حركة جماعية ، وما دام من الضروري توفر تلك الزعامة ، فان المغاربة بدأوا يلتفون حول زعامات أكثر صلاحية .

ثالثا : ظهور حركة وطنية ودينية على المستوَى الشعبي

من المؤكد ان موقف الرعية مما كان يدور في المغرب من الأحداث عقب وفاة المنصور كان موقف التذمر وعدم الرضَى . وهذا ما يمكن التعرف عليه من خلال ما كتب المغاربة ، في تقاييدهم ، ومن خلال

---

(107) Mazagan et le Maroc... R. Ricard p. 44

(108) تاريخ الدولة السعدية — مؤلف مجهول — ص 103 .

(109) الإستقصا — الناصري — 6 : 12 .

(110) نفسه — 6 : 20 .

ملاحظات أجانب عاشوا في المغرب في نفس الفترة[111] . وقد عرف هذا التذمر تطورا منطقيا ادَّى في الأخير إلى ظهور اتجاه يدعو إلى التخلص من السلطة السعدية . فما هي المراحل التي مر بها التذمر العام إلى أن وصل إلى ما وصل اليه من الرغبة في التخلص من الوجود السعدي ؟

أولا : رأى المغاربة أن النزاع القائم بين أبناء المنصور هو من باب ما يقع بين الاخوة من نزاع ، وحاولوا تقريب وجهات نظر العناصر المتنازعة . وفي هذا الصدد توجهت بعثة من العلماء لتقريب الاتجاهات المتنافرة إلى فاس[112] ورغم أننا لم نتمكن من تتبع مراحل تدخل هاته الوساطة ، فان نتيجتها كانت واضحة اذ فشلت في مهمتها ، وشبيه بهذا أيضا ما حاولت القيام به — ولكن بنظرة ضيقة لا تخرج عن رغبة أم في تحسين وضعية أحد أبنائها — الخيزران أم أبي فارس والمامون[113] . وواضح أن المحاولتين — وان صدرتا عن تفكيرين متباعدين — فانهما تسعيان معا ، وفي وقت متقارب (1605) إلى ايقاف المذابح المترتبة عن استمرار النزاع بين الاخوة . ولعل هذا ما يمثل موقف المغاربة عموما : ذلك الموقف المتمثل في الرغبة البسيطة في التخلص من وضع غير طبيعي . ويجب أن نقف هنا لنسجل ان هذه الرغبة تتبلور في عمل ملموس يقوم به جماعة من الفقهاء ورجال التصوف .

ثانيا : تطور الموقف بشكل بسيط بعد ظهور فشل المحاولة الأولى . وأخذ المغاربة يتخذون موقفا خاصا من القضية حسب ميلهم الشخصي لهذا الدعي أو ذاك . ومن بين المواقف المتخذة الانزواء والابتعاد عن الأحداث مثال ذلك ما فعله عبد العزيز الفشتالي الذي لم يعد له وجود في

---

(111) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 368 .

(112) وثائق دي كاستري— ابريطانيا— 2 : 342 والأراضي المنخفضة 1 : 99 واسبانيا 1603/12/16 .

(113) وثائق دي كاستري— الأراضي المنخفضة 1 : 99 .

الأحداث التي هزت البلاد ، وما فعل القايد عزوز[114] والقائد أحمد بن منصور الذين اتخذا ملاجئ في الأطلس الكبير[115] ومن ذلك أيضا ما فعله بعض العلماء مثل الامام محمد الجنان وأحمد المقري ، والجماعة التي فرت إلى البادية كالحسن الزياتي[116] وأحمد بن يوسف الفاسي[117] ، ولم يقتصر هذا الموقف على الرعية بل عم أيضا بعض أفراد الأسرة الحاكمة التي شهدت انزواء الحسن بن أحمد المنصور في الأطلس الكبير.

واذا كان أصحاب هذا الموقف قد أوضحوا رغبتهم في عدم الدخول في هذا النزاع ، فان جماعة أخرى دخلته وشايعت أحد المتنازعين ضد الاخر. وقد كان هذا الاختيار منحصرا بين المامون وزيدان. فنتج عن ذلك وجود حزبين يضم كل منهما أصحاب القوة العسكرية أو المعنوية : من قواد ومرابطين وصوفية. فهذا شيخ ينضم لصف زيدان ويسهل دخوله إلى سوس ثم يعمل على استمرار خضوع هذا الاقليم له ولو لمدة[119] ، وكذلك الحال بالنسبة لأحمد النقسيس الذي انحاز إلى صف زيدان ونظم ثورة ضد المامون[120]. وفي الطرف المقابل يظهر صوفي اخر

---

(114) القائد عزوز : عبد العزيز بن سعيد المزوار الوزكيتي الورززاتي المسمّى القائد عزوز. ولد في تارودانت 1549 ، دخل المخزن أيام المولى عبد الله (1557 — 1574) واتخذ منه أحمد المنصور مستشاره الخاص حيث حصل القائد أيام هذا السلطان على قوة كبيرة. وكان للقائد قصر حصين في جبل درن ، فيه انعزلت أسرته وبه كان يخفي ثرواته.

(115) وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة 1 : 267.

(116) الزياتي : الحسن بن يوسف الزياتي ، دخل إلى فاس في طلب العلم ، فتلقّى بها على مشاهيرها ، وصاحب أبا المحاسن الفاسي وصاهره واستقر بفاس. ثم تصدّى للتدريس وألف شروحا كثيرة. ولما اضطرب أمر المغرب بتنازع أبناء المنصور ، خرج إلى جبل كورت إلى أن توفي ودفن به عام 1023.

(117) الاستقصا — الناصري — 6 : 22.

(119) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 349.

(120) نفسه — 2 : 438.

اسمه ابراهيم يجمع قوات كثيرة (20 ألف رجل) لخلع زيدان وتمكين المامون من السلطة[121]. وقد فشل زيدان في القضاء على وجود هذا الصوفي رغم ما قام به من حملات ضده[122].

والأمثلة من هذا النوع كثيرة رغم عدم احتفاظ المصادر بالشيء الكثير منها. وهي تعطي نظرة عن تطور نظرة المغاربة إلى الوضعية، واختيارهم لشخصية دون أخرَى اختيارا لا شك أن له مبرراته المرتبطة اما باعجاب شخصي بهذا أو ذاك أو باقتران المصالح. ذلك أن المتنازعين أخذوا يتقربون من بعض ذوي الشعبية ـ مثل الفقهاء ـ لتأكيد وجودهم، ومن ذلك ما فعل زيدان مع اليالصوتي حينما تنازل له عن بعض المداخيل لقاء المحافظة على التبعية له[123].

ثالثا: وبفشل المحاولة الثانية تبدأ مرحلة جديدة تتميز بظهور حركات شعبية تسعَى ـ في حدود الطاعة للسعديين ـ لتحل محلهم في بعض اختصاصاتهم وبالأخص في باب الفصل في النزاعات العادية التي تطرأ بين الأفراد أو القبائل، والقيام بعمل ما في باب الجهاد.

وقد بدأ هذا التدخل في اختصاصات السلطة السعدية بعد ظهور عجزها عن القيام بتلك الاختصاصات؛ بشكل بسيط في البداية. بدأ على شكل احتجاجات مثلما وقع بين المامون ومحمد بن الحسن الأغصاوي[124]. ثم انتقل إلى التدخل المباشر لحل النزاعات: ويعطي

---

(121) نفسه 2 : 416.
(122) وثائق دي كاستري ـ الأراضي المنخفضة 1 : 473.
(123) قبيلة بني زروال ـ محمد البشير الفاسي ـ ص 56.
(124) الاستقصا ـ الناصري ـ 6 : 22.

الصورة الواضحة لهذا التدخل ما قام به الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الذي كان يقوم بدور الوسيط في بعض النزاعات، وأبو محلي الذي كان يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس(126) ، والحاحي الذي كانت له شهرة عظيمة بالصلاح وتوجهت إلى زيارته الهمم(127) ويجب التذكير هنا بان هذا العمل — وان كان يعد من اختصاصات السلطة — كان يتم مع الاعتراف بوجود تلك السلطة . فأبو محلي يؤكد أنه لا يرغب في الحرب بل في تحرير المدن المحتلة(128) ، ومحمد بن أبي بكر الدلائي كان يعترف بسلطة السعديين(129) وكذا الحال بالنسبة للحاحي(130) .

وتعطي الأمثلة السابقة الشكل الواضح لما قدمناه من تقدم بعض المغاربة لتسيير بعض الشئون ، وبجانب هاته الشخصيات التي كانت تلعب دورا سياسيا إداريا ، تقدمت جماعة أخرى من المغاربة لتعويض السلطة السعدية في ميدان الجهاد . ومن هاته الجماعات أسر حصلت على شهرة خاصة في هذا الباب مثل آل النقسيس وآل غيلان وال أبي الليف .

1 — عائلة النقسيس

أرغم قرب المستعمرة البرتغالية (سبتة) من تطوان ، وانطلاق عمليات هجومية منها ضد سكان المناطق المجاورة ، هؤلاء على الاحتياط لأنفسهم عن طريق محاصرة البرتغال في قلعتهم ، والعمل للتخلص من وجودهم . لكن المغاربة ... وان تنازلوا عن فكرة طردهم رأسا ، فانهم تمرنوا لمقاومتهم فجعلوا رباطا على القرب القريب من القناة والسور ، يرابط فيه

(126) الاستقصا — 6 : 30 .
(127) نفسه — 6 : 35 و63 .
(128) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 474 .
(129) الاستقصا — الناصري — 6 : 101 .
(130) الاستقصا — الناصري — 6 : 36 .

المجاهدون بالمداولة..[131] . ولا شك أن هؤلاء المجاهدين قدموا عليهم واحدا منهم لتسيير شئون الجماعة اعتبارا لمؤهلاته الشخصية من شجاعة ومعرفة بشئون الحرب ، بالاضافة إلى مميزات خلقية تجعله محل الاحترام والتوقير. وبذلك ظهرت شخصيات اقترن باسمها لقب المقدم الذي لا يُستبعَد أن يكون معناه مرتبطا بالتقديم الذي يعني الترئيس . ومن بين المقدمين الذين حصلوا على كثير من الشهرة ابناء النقسيس .

وقد خص محمد داود عائلة النقسيس ودورها بقسم مهم من تاريخ تطوان[132] ، حيث يظهر أن رتبة المقدمية كانت متوارثة في هذه العائلة التي لعب منها 10 أفراد الدور المهم والرئيسي في تاريخ تطوان. والمناطق المجاورة لها بين 1597 ـ 1710 .

ولا تخلو بداية ابناء النقسيس السياسية من غموض . وسبب هذا الغموض كامن في عدم الدقة في التأريخ ، وفي تشابه أسماء كثير من أفراد هذه العائلة تشابها قد يؤدي إلى الخَلْط بينهم . ويظهر أن أول اتصال لأبناء النقسيس بالحكم كان عندما عرض محمد النقسيس ـ وهو طالب علم في تطوان ـ على أهل المدينة تزعم حركة تعمل على تخليص المدينة من هجمات القبائل المجاورة ، وتقبل تطوان العرض ، وينجح الطالب في تحقيق ما وعد به ، فتخضع له المدينة ابتداء من 1597 إلى أن يخلفه أحمد النقسيس ـ ابن عمه الذي ساعده في تحقيق مشروعه السابق الذكر ـ وذلك 1610[133] .

---

(131) بليونش ومصير سبتة ـ جرمان عياش ـ مجلة البحث العلمي/ 110 .
(132) تاريخ تطوان ـ القسم 2 المجلد 1 من ص 173 إلى ص 273 .
(133) نفسه ـ ص 176 .

أبناء النقسيس بتطوان

المقدم عيسَى

محمد
1006 — 1019

أحمـــد
1019 — 1031

عيسَى

عبد الله

أحمد

محمد

عبد الكريم
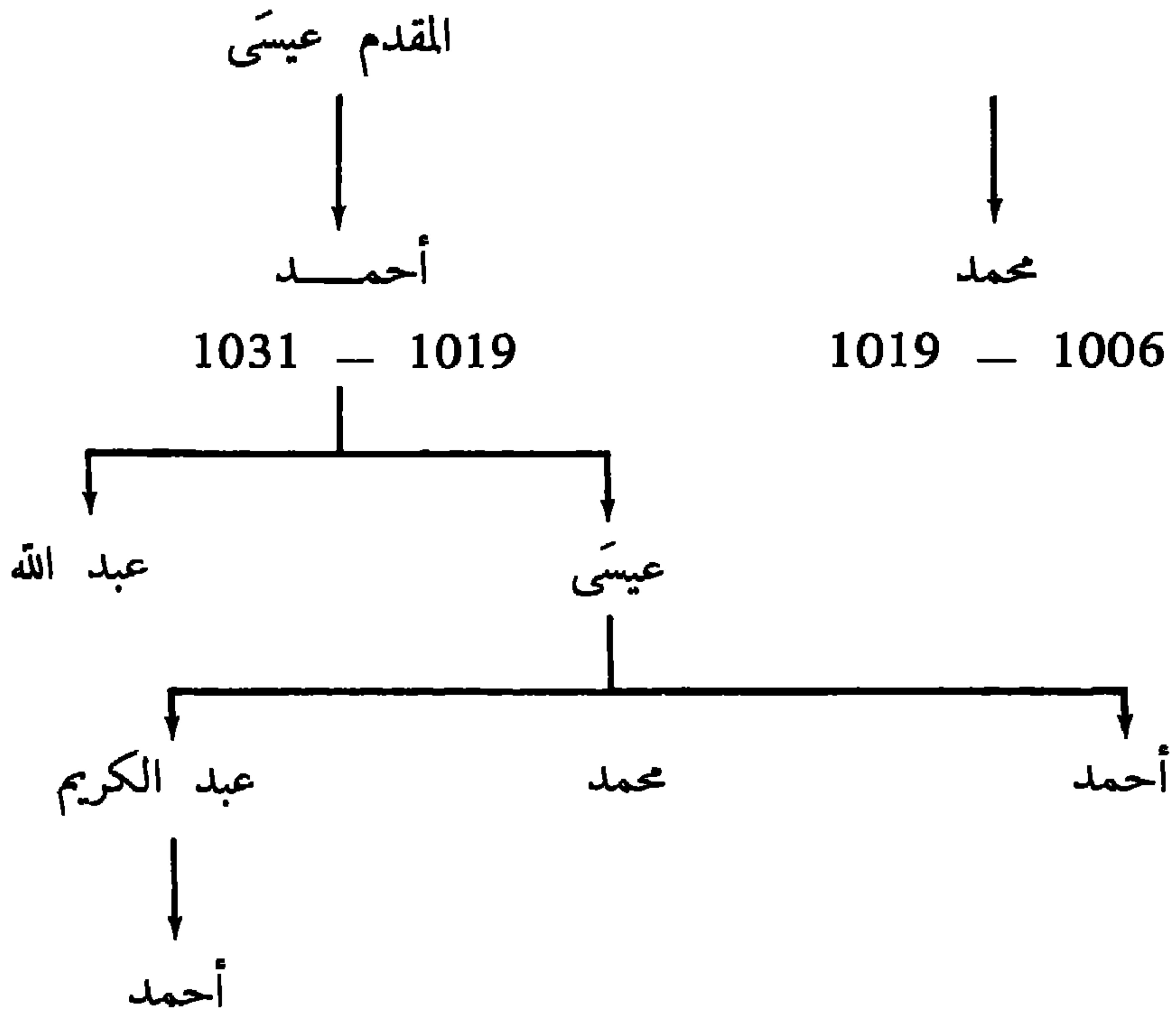
أحمد

(عن تاريخ تطوان — محمد داود)

ويرَى غيره[134] ان ذلك تم سنة 1641 . ويزيد في تعقيد القضية ان هناك شهادة أخرى تؤكد أن أحمد النقسيس كان حاكما بتطوان 1608[135] .

يقتضي الخروج من هذا الخلط ابعاد الرواية القائلة بأن تقديم النقسيس كان 1641 نظرا لما نعلمه من أدوار لعبها أبناء النقسيس قبل هذا التاريخ بكثير. كما يقتضي أيضا اعتبار الخطأ الذي كان يقع فيه الأوروبيون عندما يعطون هذا الشخص أو ذاك لقب حاكم دون معرفة دقيقة بالعلاقة التي تربط بينه وبين من يعتقدون هم أنهم محكومون من طرفه. وعليه من الممكن القول بأن صفة الحاكم المقترنة باسم أحمد النقسيس لا تزيد عن صفة المقدمية المعروف بها وبذلك تستقيم الأحداث، ويكون أول نقسيس مارس نوعا من السلطة هو محمد النقسيس، ثم خلفه أحمد النقسيس، مع اعتبار أن تلك السلطة محدودة لا تخرج عن سلطة السعديين التي لم يكن ينازع فيها أحد إلى 1603 تاريخ وفاة المنصور.

وقد تطورت علاقة أبناء النقسيس بالسعديين: رأينا قبل أن أحمد يثور ضد المامون ويدعو لزيدان. حوالي 1610، ثم يجاهر أحمد بعداوة المامون ويرفض استقباله بعد عودته من اسبانيا[136] ويعلن أحمد في الأخير عدم خضوعه للمامون، ويفر إلى الجبال لائذا بأحد الأضرحة[137]، إلى أن تسنح له الفرصة فيدخل تطوان ويقتل قائد المامون بها سنة 1022/1613[138] .

لا شك اذن أن حركة النقسيس كانت حركة سياسية ازاحت بالقوة

---

(134) تاريخ تطوان - محمد داود - القسم 2 - المجلد 1 ص 176 .
(135) نفسه ص 178 .
(136) تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول - ص 94 .
(137) تاريخ تطوان - ص 180 .
(138) نفسه ص 184 .

أحد أبناء البيت السعدي ، وحلت محله ، غير أن هذا لا يعني أن هذه الحركة كانت مستقلة بذاتها ، وليس لدينا ما يثبت ذلك أو ينفيه ، بل ان الظاهر أن أحمد النقسيس وان كان قد خلع طاعة المامون فهو لم يخلع طاعة زيدان ، فهو يستعمل في توقيعاته حاكم تطوان ، ولكنه يستعمل أيضا تعبير : فعل ملكنا(139) فهو يعترف — وان كان الاعتراف غير واضح — بسلطة زيدان ، لكن هذا لا يمنع من أنه لعب دورا مهما في الجهاد البري والبحري . فقد كانت لأبناء أحمد ... «مراكب يجهزونها في بعض الأحيان ويرسلونها إلى حماية سواحلنا من سفن سبتة وطنجة ، وأيضا لبياغتوها إذا استطاعوا...»(140) . كما كان أحمد نفسه ينظم عمليات عسكرية ضد المراكز القريبة من تطوان .. ويحاربهم في كل يوم(141) . فشاغل أحمد النقسيس الجديدة ، مثل ربط اتصالات مع دول أوروبية لتسهيل التجارة والقرصنة ، ما كانت لتشغله عن مواصلة الجهاد الذي كان في الأصل أساس شهرة أسرته حتّى في زمن المنصور ، حيث كان في عهده ... رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة في قتال العدو ومنهم أولاد النقسيس(142) .

2 — عائلـة غيـلان :

استقرت عائلة غيلان بشمال ازغار بعد قدومها من الأندلس في القرن العاشر الهجري ، فيما يرجح(143) . وأول من استقر منها بالمغرب عمر غيلان بن ابراهيم ، استقر ببادية بني جرفط مدة جعلت هاته القبيلة تعطي اسمها لعائلة غيلان التي أصبحت تعرف بعائلة غيلان الجرفطية . وككثير من

---

(139) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2ز 527 ؟
(140) تاريخ تطوان ص 194 .
(141) نفسه — نفس الصفحة .
(142) الاستقصا — الناصري — 56 : 5 : 119
(143) Khadir Ghailan — Perctier — in Arch-Mar-tom 19, p. 11.

الأندلسيين اللاثذين بالمغرب ، مارس آل غيلان الجهاد ، في عمليات أكسبتهم كثيرا من التجربة العسكرية التي أهلتهم للتقدم على مجموعة من المجاهدين . وهكذا أصبحت صفة المقدمية متوارثة في هذه العائلة التي لا يستبعد أن يكون شرفها – الغير أكيد –[144] واحدا من بين مؤهلات أبنائها للتقدم .

وعلى أية حال ، فقد قام أبناء غيلان بعمليات كثيرة ، لكن الذي سجل التاريخ بسيط جدا لا يمكن الا من تتبع بعض تحركاتهم بشكل سطحي . ففي 1571 شارك عمر بن ابراهيم غيلان في معركة وادي المخازن[145] ، وبعد ذلك بمدة ، يظهر اسم ابنه علي بصفته المقدم على الجهاد في بلاد الهبط[146] .

من المؤسف أننا لا نتوفر على المادة التاريخية اللازمة لتأكيد الدور الذي كان من المنتظر أن يلعبه آل غيلان في النشاط السياسي لمغرب ما بعد وفاة أحمد المنصور . فكل ما نعلم أن علي غيلان تصدّى للمقدمية ، وان ذلك كان عقب وفاة والده (1617) وهو تاريخ قريب جدا من سقوط العرائش والمهدية ، ومقتل الشيخ المامون ، أي من الوقت الذي انعدمت فيه سلطة مركزية قوية يصل اشعاعها إلى الأطراف الشمالية الغربية من البلاد ، وكان من المنتظر فيه تقدم من يحق لهم ذلك – لبطولتهم ، وربما لشرفهم – لتسيير شئون الناس . وواضح أن انعدام – أو على الأقل قلة – المواد التاريخية مرتبط بالدور الذي لعبه الخضر غيلان في أوائل ظهور العلويين . وستصادفنا نفس الصعوبة عند الحديث عن الأسرة الثالثة .

---

(144) ورد في المصدر الآنف ذكره – ص 12 أن كتاب : شذور الذهب في خير النسب ينفي بوضوح شرف آل غيلان ، ثم يوضح في ص 13 و14 أنهم من أصل علوي .

(145) نفسه ص 14 .

(146) نفسه – ص 21 .

3 — أولاد أبي الليف :

من العائلات التي اشتهرت بالشجاعة والنجدة في قتال العدو في زمن المنصور[147] . كانت تقطن منطقة الهبط . ولا نعرف شيئا عن أصلها ولا عن الدور الذي لعبته في هذه المنطقة قبل أن تشتد العداوة بين أحد أفرادها وبين قائد مدينة القصر الكبير إلى درجة استوجبت نفي هذه العائلة إلى فاس حوالي 998[148] . غير أن مقامها لم يطل بفاس ، حيث يظهر أن المنصور اذن للمقدمين محمد وعمر بو الليف بالرجوع إلى بلادهما بعد حوالي العام من نفيهما عنها . فعادا إلى الهبط ، وواصلا قيادتها للجهاد مع المشاركة الفعلية إلى أن قتل احدهما محمد في ربيع 1002/2[149]. ولا ندري هل خلف عمر أخاه في المقدمية أم أن فردا آخر من العائلة هو الذي تصدّى لها ، كل ما هناك أن العائلة استمرت في جهادها إلى أن توقفت عنه ، حيث صالح أفرادها النصارَى بعد أن أقطعهم المامون مالا أو أرضا[150]. والراجح أن هذا الموقف لم يكن عاما عند كل أولاد أبي الليف ، حيث أن واحدا منهم تكلف باغتيال المامون 1022[151] .

ونجد أنفسنا مرة أخرَى ازاء نفس الصعوبة إذ تخلو المصادر من أية اشارة إلى أولاد أبي الليف ، وواضح أن هذا لا يعني في شيء توقف هذه العائلة عن بعض عملها الجهادي .

كانت الأمثلة الثلاثة السابقة تهدف إلى توضيح الدور الذي قامت به عائلات لا تتوفر على أية سلطة سياسية واضحة في باب الجهاد ، كتعويض للنقص الحاصل في هذا العمل بعد توقف السلطة المركزية عن ممارسته .

(147) الاستقصا — 5 : 119 .
(148) نفسه — 5 : 120 .
(149) نشر المثاني — القادري — النسخة الخطية — ورقة 10 ظ .
(150) تاريخ الدولة السعدية — مولف مجهول — 95 .
(151) الاستقصا — 6 : 22 .

ونلاحظ بعد ذلك :

أولا : ان الدور الرئيسي كان يلعب من طرف فئتين من المغاربة : رجال التصوف ورجال الجهاد

من بين أفراد الفئة الأولى شخصيات كانت تتمتع بشعبية ما في جنوب البلاد (الحاحي)، أو جنوبها الشرقي (أبو محلي)، أو في وسطها (الدلائي) أو في شمالها (الأغصاوي)، أو في غربها (عبد الله بن حسون). فما هي مؤهلات هؤلاء الذين نددوا بشكل أو بآخر بموقف السعديين من حالة البلاد ومن الغزو الأجنبي ؟

ان أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن العامل المشترك بين هؤلاء هو صلاح أخلاقهم وتفقههم في الدين واقبالهم على العبادات بشكل يفوقون به باقي الناس. وان معرفتهم هاته «بما قال الله وما قال الرسول» تمكنهم من التمييز بين المعروف والمنكر، وتلزمهم بتغيير المنكر ــ بما أمكن باليد أو اللسان ــ وعلى ذلك يكون قيامهم بما قاموا به من باب الاحتياط لدينهم بالخروج عن عهدة التنبيه وعدم السكوت عن وجود المنكر. أي أن الغاية من عملهم ذاتية فردية، هدفها الأول والأخير تلافي ارتكاب المعصية المستوجب للعقاب.

غير أن قليلا من التعمق يكفي للخروج بموقف رجال التصوف في حيز الفردية ووضعه في محله الصحيح. ذلك أن تفقه رجال الدين، تفقها يظهر لزوم تغيير المنكر، يظهر أيضا مغبة الخروج عن الامام، وقتل النفس بغير حق والتسبب في انتهاك المحارم وازهاق الأرواح. ومن هنا يظهر أن المتصوف كان امام اختيارين : المشاركة في النشاط السياسي كضرورة يقتضيها لزوم تغيير المنكر، أو الامتناع عن المشاركة في ذلك النشاط تلافيا للوقوع في آفات الخروج عن طاعة الامام. وكان الاختيار صعبا جدا، وفضل الكثيرون التزام الحياد في هذا الصراع مثل عبد الرحمن

السكتاني[152] [153] ، ومحمد بن أبي بكر الدلائي في قصته مع أبي محلي[154] .

غير أن البعض الآخر شارك في الأحداث ، وتحمل «مسئولية» تدخله ذلك . مع ملاحظة ان ذلك التدخل اتخذ في بدايته شكلا بسيطا –كما وضحنا ذلك قبل– فإذا سلمنا بان خروج من خرج على السعديين كان عملا خطيرا على المستوَى الأخلاقي الديني ، لكان علينا أيضا أن نسلم بان من الدوافع التي رجحت كفة المشاركة في الأحداث، اقتناع رجال التصوف بضرورة القيام بعمل ما مادام غيرهم لا يستطيع القيام به ، واحساسهم بأن اعمالهم مساندة من طرف الرعية ، بشكل يكفي من جهة لاعطاء موقفهم الصبغة الشرعية اللازمة لأي عمل يظهر– باعتباره خروجا عن الطاعة– لا شرعيا ، وبشكل يكفي من جهة ثانية لاعطاء موقفهم القاعدة الشعبية التي تخرج بالموقف من حيز القول إلى مستوَى العمل .

ثانيا : ان مواقف الشخصيات المذكورة كان تعبيرا عن موقف ما يسمَّى بالعامة : أي موقف الرأي العام

ولا نتصور كيف كان بامكان أي فرد من الذين تصدوا لتغيير المنكر القيام بعمله لو لم يكن وراءه من يسانده : فسيدي ابراهيم –كما رأينا قبل– يجتمع حوله 20 ألف رجل ، وأبو محلي يتبعه من الناس عدد كاف لدخول سجلماسة ... والأمثلة من هذا النوع كثيرة ، وفي الطرف المقابل

(152) انظر رسالته في الموضوع إلى الحاحي ، النزهة ص 226 .

(153) أبو مهدي عيسَى بن عبد الرحمن الرجراجي السكتاني . درس بمراكش وفاس وأخذ عن المنجور والقصار . ثم التحق بتارودانت حيث ولي قضاء الجماعة إلى أن قام الحاحي ضد زيدان ، فخالفه في الرأي والتجأ إلى البادية بعياله بعيدا عن السياسة . وبعد مدة التحق بمراكش ، حيث اسندت اليه مهمة القضاء إلى وفاته 1062 .
من اثاره شرح صغرى الصغرَى للسنوسي ، وجه مجموعة من الفتاوي جمعها بعض تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين : الحسن اليوسي .

(154) المحاضرات – الحسن اليوسي – ص 91 .

نجد جيش أبي زكرياء الحاحي يمتنع عن الاقامة في مراكش بعد أن اقتنع بأنه أدّى مهمته التي دعي لها ، مهمة اعادة السلطان إلى عاصمته(155) ، ونجد الجيش الذي يبعث به زيدان لمحاربة أحد الفقهاء الثائرين عليه ، ينضم إلى الثائر..(156) .

فما هي العوامل التي كانت تدفع بعض الناس إلى الالتفاف حول هذا الصالح أو الآخر؟

يمكن أن نتعرف على الأقل على 3 عوامل :

علاقة الصحبة التي تربط بين أحد الشيوخ ومريديه

شهد المغرب في أواخر القرن 16 تأسيس مجموعة من الزوايا : الزاوية الدلائية المؤسسة –فيما يظهر– سنة 1566(157) ، والزاوية الناصرية المؤسسة سنة 1576(158) ، والزاوية الفاسية التي ظهرت بفاس 1581(159) ، في حين ظهرت قبل هذه التواريخ بقليل زاوية أخرى بسوس يراسها سعيد بن عبد المنعم الحاحي ثم من بعده ابنه ثم حفيده المشهور بالحاحي ، وبعد ذلك بقليل أيضا زاوية أخرى بالساورة يرأسها أحمد أبو محلي ، في حين يستقر بسلا حوالي منتصف القرن 10هـ عبد الله بن حسون. وبذلك غطت شبكة من المؤسسات الدينية كل البلاد.

والزاوية في مفهومها البسيط مدرسة تصوف تتكون من رئيس أو شيخ تتوفر فيه عدة شروط من صلاح ودين ومعرفة بالكتاب والسنة واتصال بسند معروف بأحد رجال التصوف المشهورين : الاقطاب ، ومن طريقة خاصة يضعها الشيخ في الذكر باختيار عدد معين من الصلوات والهيللة

(155) الافراني– نزهة الحادي– ص 209 .
(156) وثائق دي كاستري – الأراضي المنخفضة– 1 : 473 .
(157) الزاوية الدلائية– محمد حجي– ص 30 .
(158) نفسه ص 57 .
(159) الزاوية الدلائية– ص 61 .

وغيرهما ، ومن مجموعة من الاتباع أو المريدين أو الأصحاب أو الاخوان ، يجتمعون دوريا لتلاوة الاوراد الخاصة بطريقتهم ، وقد لا يجتمعون مع محافظتهم على التزامهم بتطبيق توجيهات الشيخ .

وتبدأ العلاقة بين الشيخ والمريد بالمجالسة للتلقي ، حيث يحفظ المريد أوراد الزاوية واذكارها . وتفترض تلك المجالسة الاعتقاد في الشيخ والزاوية . وهذا الاعتقاد هو الذي يربط المريد بالشيخ ويجعل للثاني على الأول دالة قوية تلزمه بالوقوف عند أوامره ، ولا يخرج عن تلك الأوامر الا باذن .

وبذلك يظهر نوع العلاقة التي تربط بين الشيخ والمريد ، فهي علاقة تبعية روحية قائمة على اعتبارين : الأول منهما قائم على ما للشيخ من قدرة على الحصول على طاعة المريد واحترامه ، أصل تلك القدرة «نور الهي يلقي به الله محبة لأوليائه في قلوب مريديهم» بينما يتمثل الثاني في التفويض الارادي ، من طرف المريد ، لكل امر دينه للشيخ مادام هذا الأخير اعرف بما يقرب من الله . وواضح أن هذا التفويض في أمور الدين ينتقل ـ كلما دعت الضرورة ـ إلى تفويض في أمور الدنيا ، اعتبارا لما بين الدين والدنيا من فاصل رمزي وحد شكلي لا يبقَى له أي اعتبار عندما ينظر إلى التصرفات الدنيوية ، لا من حيث فائدتها أو ضررها ، بل من ناحية احتمال حليتها أو حرمتها .

صلاحية الشيخ في نظر المريد للتحدث باسمه

يشكل الشيخ أو الصالح ، ضِلْعاً في ثلاثية تتقاسم النشاط السياسي في المغرب باستمرار : السلطان ـ الرعية ـ الشيوخ أو رجال الدين . ويلعب الشيخ باستمرار دور الصلة بين السلطان والرعية في كل من الاتجاهين ؛ وتأخذ الصلة من السلطان إلى الرعية عدة اشكال وتتم على عدة مستويات : أولها تزكية البيعة باعتراف الفقهاء والصلحاء والأولياء بها ،

وقد تظهر هذه التزكية على مستوَى أعلى عندما تكون سابقة للبيعة مثلما وقع في وصول السعديين إلى الحكم . وثانيها اعطاء بعض تصرفات السلطان الجديدة طبيعة شرعية باصدار فتوَى تجيز تلك التصرفات أو توجبها . وثالثها المحافظة على وجود السلطان بالوعظ عن اقتناع أو عن غير اقتناع .

كما تأخذ الصلة بين السلطان والرعية شكلا اخر في الاتجاه المعاكس ، عندما يرفع الصالح أو الشيخ ظلامات الرعية إلى السلطان ، أو عندما يعبر الصالح أو الشيخ عن طاعة الرعية — عن اقتناع أو عن غير اقتناع أيضا — في خطبه ودعواته ، وفي هذه الحالة يظهر رجال التصوف والعلم وكأنهم يتقمصون شخصية المتكلم باسم الرعية والناطق بلسانها . وهو دور لا يمكن أن يلعبه غيرهم حسب معطيات الثلاثية المذكورة المبنية أساسا على أهمية عنصر الدين والشرف الرابطة بين السلطان والرعية . فدور رجل الدين دور رئيسي في نظام قائم على الدين ، وما دامت سلطة السلطان سلطة خليفة الرسول وأحد حفدته فلا أحد يمكن أن يقلل من شرعيتها غير رجل الدين .

وتظهر تلك الصلاحية على مستوَى أبسط وأكثر مادية ؛ فالشيخ وكيل يحسن الكتابة ويعرف شروطها ، ويتقن التلاعب بالكلمات تلاعبا يقلل في الغالب من قساوة المعاني .

ثالثا : ان المواقف المتخذة من الوضع لم تكن فردية بل تدخل في اطار تنظيم عام لمواجهة الموقف المضطرب

تربط بين رؤوس الحركة الصوفية خلال الثلث الأول من القرن 10هـ صلات وعلاقة متنوعة .

وأول هذه الصلات تلك المتمثلة في الانتساب إلى نفس المدرسة التصوفية . فللحركة الصوفية في المغرب جذور ترجع على الأقل إلى القرن 4

الهجري حيث يصل تأثير مدرسة أبي القاسم الجنيد على يد وجاج اللمطي بواسطة تلميذه عبد الله بن ياسين ثم نجد اصداء تأثير المدرسة التصوفية الشرقية في حركة الموحدين، حيث شكل رباط تينمل في وقت من الأوقات مركز الحركة الصوفية في المغرب، ثم في استقرار مولاي بوشعيب برباط طيط، وهو تلميذ أبي مدين الغوث، الذي تتلمذ على الشيخ عبد القادر الجيلاني وفي نفس الوقت كان علي بن حرزهم ينشر في فاس مبادئ الغزالي.

وبذلك يظهر أن الحركة الصوفية كانت إلى هذا الحد فرعا لحركة التصوف في المشرق. غير ان حلول القرن 7 للهجرة، يعطي حركة التصوف المغربية دفعة جديدة عندما يوحد أبو الحسن الشاذلي بين مبادئ شيخيه عبد السلام بن مشيش ومحمد بن حرزهم ليخرج بطريقة جديدة عرفت باسم الشاذلية. وقد صيغت هذه الطريقة في الغالب بمصر، ثم انتقلت إلى المغرب بطريقين[160]:

1 — أبو العباس المرسي — ابن عطاء الله السكندري — داوود الباخلي — محمد بن وفا — علي بن وفا — أبو زكرياء القادري — أحمد بن عقبة — أحمد زروق — ابراهيم الحجام.

2 — أبو عبد الله المغربي — أبو العباس القرافي — عنوس البدوي — بو الفضل الهندي — عبد الرحمن الرجراجي (أو تقي الدين الفتي) — سعيد الهرتناني — محمد امغار — محمد بن سليمان الجزولي.

ويعطي محمد بن سليمان الجزولي بدوره دفعة أخرى للتصوف المغربي، فتكاثر اتباع الطريقة، وتتابع التوريث المباشر للقطبانية إلى أن ظهر في القرن 17 في 3 شخصيات: أبو بكر الدلائي (وبالأخص ابنه محمد) وعبد الله بن حسون، وأبو المحاسن الفاسي:

(160) الزاوية الدلائية — ص 51، وكذا Les confreries religieuses – Ed. Michaux

الجـزولي

التبـــاع

الفلاح	الزعري	الغزواني	الخطاب
القسطلي	الشرقي	الهبطي	المجذوب
أبو بكر الدلائي		عبد الله بن حسون	أبو المحاسن الفاسي
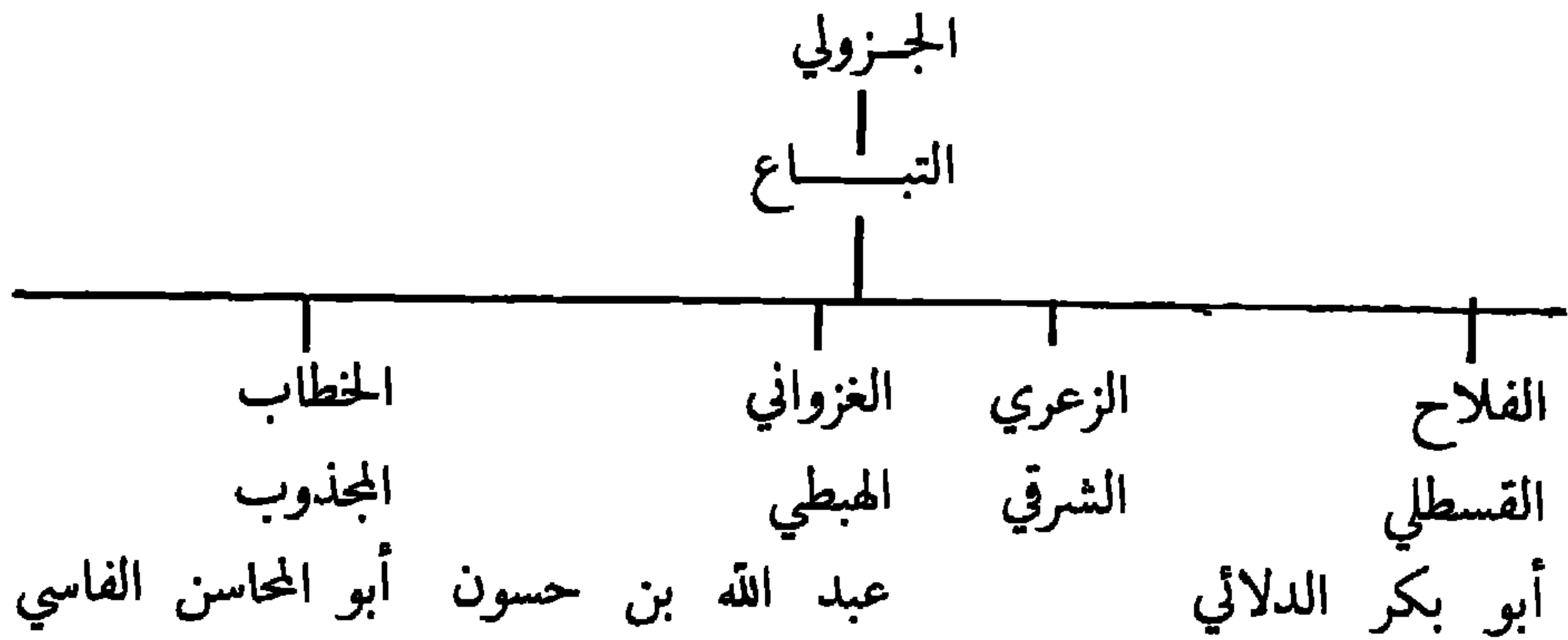
وبذلك يظهر نوع التقارب الذي يمكن أن يكون بين الشخصيات الثلاثة المذكورة ، فهي تنتمي إلى مدرسة صوفية واحدة ، وان اختلفت أورادهم فانهم كانوا يشعرون بما بينهم من أخوة صوفية . من الحق ان انفراد كل واحد منهم بمدرسة خاصة قد يستدعي حصول بعض التنافس فيما بينهم من أجل الحصول على أكبر عدد من الاتباع ، غير أن هذا التنافس لا يبقَى له أي مفعول عندما نتذكر أن مسافات كانت تفصل بين مراكز اشعاع كل واحد منهم ، وان كلا منهم اختص نفسه بدائرة نفوذ روحي في اطار سعي تلقائي لتلافي كل تنافس .

وتظهر علاقة أخرى تربط بين رجال التصوف على مستوًى ثان : ذلك أن رجل التصوف كان يبدأ حياته العملية ـ في الغالب ـ بالسعي لتلقي العلم قبل أن يغير اتجاهه نحو الفقر . وعلى اعتبار ان فاس ـ قبل وفاة المنصور ، وزاوية الدلاء ـ بعد وفاته ، تشكلان قطب الحركة التعليمية ، فان كثيرا من الفقهاء والفقراء قد وجدوا أنفسهم في وقت من الأوقات يتلقون العلم أو الفقر على استاذ واحد أو في مكان واحد : فأبو محلي والحاحي سكنا معا في بيت واحد ، وتلقيا العلم في فاس في وقت

واحد[161] ، ومحمد بن أبي بكر الدلائي ، يتصل بعبد الله بن حسون في سلا[162] .

وكان من نتائج هذا التتلمذ المتزامن ان احتفظ كثير من شيوخ الصوفية بروابط حافظوا عليها بالتزاور والتذاكر. ولهذا لم يكن من المستغرب أن تتم اتصالات بين كثير من رجال الوقت في موضوع القضية المغربية بعد وفاة المنصور.

وقد اتخذت هذه الاتصالات عدّة أشكال : فهي أحيانا جدل حَول الموقف الواجب اتخاذه ، يبدي فيه كل رأيه مدعما ما يقول بحجج تعتمد في الغالب على الشرع الاسلامي[163] وتتخذ أحيانا أخرَى شكل اتفاق على ضرورة العمل في الالتزام بتقاسم المهام : ففي الوقت الذي يبدأ فيه أبو محلي في القضاء على سلطة زيدان في مراكش ، يتكلف أبو الليف باغتيال المامون[164] ، وفي أقصَى سوس يدعو الحاحي اتباعه إلى الاستعداد للجهاد ، ولا شك أن دعوته كانت عقب اتصال بينه وبين بعض رجال التصوف في المغرب الشمالي[165] . وكانت الاتصالات ثالثا تأخذ شكل اتفاق على ضرورة القيام بعمل ما ، مع توضيح طبيعة ذلك العمل : فمحمد العربي الفاسي يراسل محمد بن أبي بكر الدلائي في هذا الموضوع ، ويطلب منه توضيح ضرورة الجهاد لاتباعه[166] ، ومحمد بن أبي بكر

---

(161) الزاوية الدلائية ص 136 .
(162) نفسه ص 77
(163) انظر مراسلات أبي زكرياء الحاحي والسكتاني– النزهة ص 226 .
(164) الاستقصا – 6 – 23 .
(165) الفوائد الجمة– التمنارتي .
(166) الخبر عن ظهور العياشي – ص 17

الدلائي يكاتب في نفس الموضوع عبد الرحمن العايدي ، ويعطيه نفس التوجيه[167] .

فيظهر اذن من كل ما سبق أن الحركة الصوفية لعبت دورا مهما في توجيه تاريخ البلاد وجهة معينة بعد ظهور ضعف ابناء المنصور ، وأكد ضعفهم عن تسيير الأمور وتيسير ظروف الحياة العادية . ومعنَى ذلك أن الحركة الصوفية شكلت قوة سياسية في مغرب القرن 17 إلى قيام العلويين .

---

(167) نفسه — ص 21 .

الباب الثاني

الحركة العياشية

رأينا في باب سابق كيف شكل الوضع العام في المغرب سببا في ظهور رد فعل على مستويين : أحدهما نظري ينادي بضرورة العمل ويرسم خطة العمل ، والثاني عَمَلي يطبق الخطة المقترحة . ورأينا أن المستوَى الأول يتمثل في الشخصيات الدينية بينما يتمثل الثاني في المجاهدين . غير أن الذي يلاحظ أن الاتصال لم يكن دائما بين المستويين لسبب بسيط راجع إلى البعد المكاني بين مراكز الجهاد – التي هي بالضرورة المناطق الساحلية – وبين مراكز التصوف في مغرب الربع الأول من القرن 17 ، التي كانت في وسط البلاد والهوامش الصحراوية . لذلك ظلت التحليات والأوصاف التي تذكر عادة في حق رجال الربع الأول من القرن المذكور ، انعكاسا لهذا التباعد ، ففي حق مجموعة رجال الدين نصادف باستمرار أوصاف الورع والصلاح والعلم ، وفي حق مجموعة المجاهدين نصادف أيضا باستمرار أوصافا مثل الرئيس المجاهد المدافع عن الاسلام ... فكان من اللازم اذن – لكي يأخذ مستويا رد الفعل المغربي شكلا متكاملا أشد التكامل وأتمه – ان تجتمع في شخصية واحدة صفتا العلم والعمل . وكانت تلك الشخصية هي : محمد بن أحمد العياشي : الولي الصالح الزاهد المجاهد في سبيل رب العالمين ، حسب قول معاصره محمد ميارة الفاسي .

أولا : نشأة الحركة

في نهاية العقد الأول من القرن السابع عشر م . بدأ حديث الناس في مراكش وغيرها ، يدور حول قائد من قواد الجهاد في دكالة ، هو محمد بن أحمد العياشي ، لما له من الشجاعة والاقدام ، والمعرفة بمكائد الحرب ، ولما كبّده من خسارات للبرتغال المستقرين بالجديدة . ولقد كان أول اتصال للعياشي بدكالة ، حينما وجهه شيخه عبد الله بن حسون إلى تلك المنطقة حوالي 1604/1012 ، آذنا له بالجهاد ، بعد أن تضايق أهل فحص البريجة من عمليات البرتغال المحيطين بهم[1] . وتنفرد نزهة الحادي – من بين المؤلفات المغربية القريبة من وقت العياشي – بتفصيل الكيفية التي فارق بها العياشي استاذه متوجها إلى دكالة . فتقول ان بعض أشياخ القبائل أهدَى إلى ابن حسون فرسا ، فأمر الشيخ باسراجه وقال : أين محمد العياشي ، فقال له : ها أنذا يا سيدي . فقال له : اركب فرسك ودنياك واخرتك . فتقهقر متأدبا ، فحلف له وحبس له الركاب بيده وقال : ارتحل عني إلى أزمور ، وانزل على أولاد أبي عزيز وجاهد في سبيل الله[2] .

ويظهر من هذه الصورة أن أمر التوجيه للجهاد فكرة طارئة ، وانها لم تكن مدار أي حديث سابق بين الاستاذ وتلميذه . غير أنه من غير المستبعد أن يكون عبد الله بن حسون فكر فيما قبل ذلك في توجيه أحد تلامذته للجهاد في ناحية دكالة ، وانه – بعد طول مراقبة لتلميذه ، وبعد أن

(1) الاستقصا – الناصري – ج ذ 6 : 51 .
(2) الخبر عن ظهور العياشي – أبو املاق – 2 .

تعرف على مميزاته وخصائصه – وجد في مناسبة اهداء فرس اليه ، الفرصة المنتظرة لتحقيق ما فكر فيه قبل . أما الذي يستوقف النظر من جهة أخرى ، فهو وقوع اختيار عبد الله بن حسون على دكالة ، وعلى أولاد أبي عزيز بالضبط . وأول ما يتبادر إلى الذهن لتفسير هذا الاختيار هو أن منطقة الجديدة هي أقرب النقط الصالحة للجهاد في وقت كانت فيه العرائش والمعمورة غير خاضعتين للأجانب ، وفي وقت كانت فيه طنجة وسبتة ، وما والاهما من جهة المشرق من المستعمرات الايبيرية بعيدة عن سلا . وفيها على أية حال من يقوم بوظيفة الجهاد من أمثال ابناء النقسيس كما سبقت إلى ذلك الاشارة.على أن هناك تفسيرا اخر يعتمد على احتمال وجود علاقة بين ابن حسون ودكالة ، أو قل بينه وبين بعض صلحائها . وهذا غير مستبعد اعتبارا لما رأيناه من طبيعة العلاقات بين رجال التصوف التي ربما شجعت أحد صلحاء دكالة على أن يطلب من ابن حسون توجيه شخص تتوفر فيه مميزات معينة لقيادة الجهاد ، ثم استجابة ابن حسون لذلك الطلب . والواقع ان منطقة دكالة لا تعدم صلحاء في هذا الوقت . منهم سعيد بن محمد القاسمي ، وعبد الرحمن بن عبد السلام . وسعيد والد اسماعيل صاحب الزاوية المشهورة بدكالة ومبارك بن يحيَى الزياني المالكي[3] . بل ليس من المستبعد أن يكون لوجود هذا الأخير – وهو كما نرَى زياني مالكي – صلة بوقوع اختيار ابن حسون على العياشي كرجل . وعلى دكالة كمنطقة . وهناك افتراض آخر لا يخلو من صدق هو أن يكون مبارك بن يحيَى المالكي قد اتصل بالعياشي ، وحبب اليه المشاركة في عمليات الجهاد ، ويؤكد هذا الافتراض ما ورد في النزهة من أن توجه العياشي إلى دكالة كان عن اذن شيخه . وواضح أن الاذن يعني الموافقة . وان الموافقة تقتضي سبق الطلب .

---

(3) Villes et tribus du Maroc – les Doukkala p. 141

(4) Place de Mazagan – R. Ricard – p. 8

يستقر العياشي اذن عند أولاد أبي عزيز حوالي 1604 . ويستمر مقامه هنالك إلى 1615[4] . فيكون مقامه بدكالة قد دام اذن حوالي 10 سنوات . وخلال هاته الفترة الغير قصيرة . مارس العياشي عمليات عسكرية ضد البرتغال . والظاهر أن وضعيته هناك لم تكن وضعية الفرد المتطوع للمشاركة – وسط غيره – في الجهاد . بل لا شك أنه ترأس العمليات هناك . لما له من المكانة بين أصحابه باعتباره مجاهدا دخل الجهاد وهو يحمل توصية من أحد قادة الحركة الصوفية في البلاد – عبد الله بن حسون –، وباعتباره عارفا بوجوه المكائد الحربية[5] . وبذلك بدأت شهرة العياشي سواء بالنسبة للمغاربة أو بالنسبة للبرتغال . فوجود العياشي في المنطقة أثر كبير التأثير على سكان البريجة . وجعل قائد المدينة يبني كثيرا من ارائه الدفاعية اعتمادا على دراسة الحرب المغربية انطلاقا من عمليات العياشي[6] . كما أثر وجوده من جهة أخرى على المغاربة . حيث وصلت أنباء انتصاراته إلى مراكش ، تسامع الناس أخباره ... ولم يزل على ذلك إلى أن توفي قائد الفحص في حدود (1611 – 1612) . فسأل السلطان زيدان بن أحمد الذهبي عمن يليق بتولية ذلك الثغر . والقيام بوظيفته ونواحيه . فقيل له : سيدي محمد العياشي . فكتب له بالتولية لذلك ..[7] .

وبذلك اكتسب العياشي الصفة الرسمية . فواصل عمله الجهادي محاولا ارضاء السلطان زيدان بمراكش بما يبعث إليه من الغنيمة . ليرضيه طبعا . وليبرهن عن تبعيته له ، في وقت قل فيه من يعترف له بتلك التبعية .

غير أن عمليات العياشي التي نتج عنها ... أن ازدادت شهرته وتناقل

(5) الخبر – أبو املاق – 2

(6) Mazagan – R. Ricard – p. 37

(7) الخبر – أبو املاق – ص 5 .

الناس حديثه ...[8]، كانت تعتبر بالنسبة لزيدان مقدمات لحركات ربما يخشى منها على ملكه. وعلى ذلك وجه زيدان فرقة مكونة من 400 فارس بقيادة محمد السنوسي مكلفة بالقاء القبض على العياشي وقتله.. فالقى الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قُذِف به. فبعث له خفية ان أنج بنفسك فانك مغدور...[9] ومما قذف به العياشي... انه مسموع الكلمة في تلك النواحي (نواحي دكالة)، وانه ممن لا تومن غائلته، وربما يخشى منه على الملك، كأحمد بن عبد الله بومحلي[10]. وبذلك يظهر تصرف زيدان ازاء العياشي معقولا.

غير أن هناك رواية أخرى تفسر كيفية وسبب مغادرة العياشي لدكالة. وقد وردت هذه الرواية في تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول[11]، وفي الترجمان المعرب للزياني[12]، وفي الخبر عن ظهور العياشي[13] وأخيرا في الاستقصا. ويظهر من هذه الرواية ان مغادرة العياشي لأزمور كانت بامر من زيدان وباذنه، استجابة لطلب وفد وفد على السلطان مستنجدا بعدما تضايق سكان سلا من تحرشات اسبان معمورة.

تختلف الروايتان اذن في طبيعة العلاقة بين زيدان والعياشي. ولكل منهما حظوظها من الصدق: فبالنسبة للرواية التي تؤكد مغادرة العياشي لأزمور، ناجيا بنفسه، بعد أن بلغه سقوطه في عين السلطان، يمكن تدعيمها بدليلين: أولها ان هاته الرواية تساير السياق التاريخي لبداية ظهور العياشي، حيث سنرى فيما بعد أن السلطان زيدان سيعيد مرة ثانية اصدار

(8) نفسه ص 6.
(9) نفسه، نفس الصفحة.
(10) نفسه — نفس الصفحة.
(11) ص 103.
(12) ص 366.
(13) ص 7.

الأمر بالايقاع بالعياشي والقبض عليه ، والأمر موجه هذه المرة إلى قائده على قصبة سلا : الزعروري . وثانيهما ان مراسلات دارت بين السلطان زيدان ، وبين أبي زكريا يحيَى الحاحي ، قد تكون بعض اشاراتها تتعلق بهذا الموضوع : فمن المعلوم أن الموقف الذي وقفه الحاحي من زيدان ، والمساعدة التي قدمها له للتخلص من أبي محلي ، جعلت للفقيه دالة على السلطان ، وأهلته لابداء رأيه في كثير من مسائل الوقت . ومن ذلك مثلا أن الحاحي يطلب من زيدان معالجة امر السواحل[14] . وقد ورد في رد زيدان ... عزلنا صاحب أزمور ، وسرحنا من كان عنده ...[15] . وقد دارت هذه المراسلات – فيما يرجح – حوالي 1615/1023 . أي في تاريخ مغادرة العياشي لأزمور . كما يجب الا نغفل – بالاضافة إلى هذين الدليلين – الجو العام الذي كان يطبع هاته الفترة ، بعد مقتل أبي محلي بمدة يسيرة ، وتخوف السلطان على سلطته من الذين يتخذون الجهاد أو الأمر بالمعروف – في نظره هو – وسيلة للوصول إلى الملك .

أما بالنسبة للرواية الثانية ، والتي ترَى أن مغادرة العياشي لأزمور كانت بأمر من زيدان ، فهي بدورها تتوفر على دليلين يزكيانها : أولهما انها وردت في مؤلف لا نقول أنه يتحامل على الدولة السعدية ، ولكن هو على أي حال مؤلف يبرز على الخصوص الجوانب السيئة لبعض سلاطين تلك الدولة . فيكون اعتراف المؤلف بتوجيه زيدان العياشي لنجدة أهل سلا من باب : الحق ما شهدت به الأعداء ، مع بعض التسامح في استعمال كلمة اعداء . وثانيهما ، أن هنالك من الاشارات التاريخية في مؤلفات أخرى ، ما ينطبق على قسم مهم من الرواية الثانية ، في القسم المتعلق بوصف قدوم وفد سلاوي على الحضرة الزيدانية بمراكش . في نفس الوقت تقريبا ،

(14) اليفرني – نزهة الحادي – ص 214 .

(15) نفسه ص 219 .

وفد على أبي زكرياء الحاحي بسوس . وفد من سلا أيضا لنفس غاية الاستنجاد[16] .

فأي الروايتين نرجح ، أو كيف يمكن التوفيق بينهما ؟

يمكن أن نتصور تسلسل الأحداث بالكيفية التالية : في أواسط عام 1615/1023 . وبعد مرور فترة على استقرار الاسبان بالمعمورة كافية لشعور أهل سلا بالمضايقات التي يمارسها أولئك ، وعجزهم عن مواجهة تلك المضايقات ، يتشكل وفد من هذه المدينة ، يتوجه أولا إلى مراكش ، طالبا المدد من زيدان ، غير أن هذا السلطان لم يكن يتوفر على ما يوطد به مركزه ، بَلْه توجيه المدد إلى مدينة بعيدة عن مركز نفوذه ، فكان موقفه من الوفد أن... صار يعدهم بالنصرة ويمهلهم ، فسئم الوفد المماطلة ، وغادر مراكش ، بعد أن... خرجت هدية عظيمة من عند نصارَى البريجة ففهم أهل سلا حينئذ بأنه قد قبض حق البلاد كما فعل محمد الشيخ المامون بالعرائش...[17] ، ويواصل الوفد وفادته باتجاه الجنوب ، ويحل بسوس ضيفا على أبي زكرياء الحاحي ، ويصف له حالة أهل سلا وما يعانونه من النصارَى . ويذكر التمنارتي أن الوفد نزل سوس بعد العشرين وألف[18] . وواضح ان التاريخ غير مضبوط ، اذ يستوجب تشكيل الوفد المستغيث مرور فترة ما على تاريخ نزول الاسبان بالمعمورة (1614/1023). وبعد تأكد الحاحي من جلية الأمر ، يسرع كعادته إلى مكاتبة السلطان زيدان ليعيب عليه تقصيره في بعض ما يتعلق بمهمته كسلطان ، وبالأخص فيما يتعلق بمعالجة أمر السواحل[19] . ويسارع زيدان إلى تسريح صاحب أزمور[20] ، غير أن الفرقة الموجهة بأمر التسريح إلى

(16) انظر رسالة الحاحي الى أهل سوس في الفوائد الجمة باسناد علوم الأمة .
(17) الخبر — ص 7 .
(18) الفوائد الجمة — التمنارتي — ص
(19) رسالة الحاحي الى زيدان — النزهة — 214 .
(20) رسالة زيدان الى الحاحي — النزهة — 219 .

العياشي ، ترهب بعض سكان فحص ازمور ، الذين يظنون أن قصدها الاساءة إلى العياشي ، فيبلغون خبر قدومها إلى العياشي ، الذي يستبعد بدوره أن يكون المراد به خيرا ، فيفر . وينزل قائد زيدان بأزمور ، ويضطر إلى معاقبة شرذمة من أهل الفحص لما أثاروه من الريب التي كانت سببا في فساد العلاقة بين العياشي وبين زيدان . ونخرج من كل هذا بافتراض ان خروج العياشي من أزمور كان على أساس سوء تفاهم . وبعد ذلك يستقر العياشي بسلا .

وليس هناك ما يميز استقرار العياشي بمدينة أبي رقراق في بداية الأمر عن استقراره في دكالة . فبعد أن استقر به الترحال بها ، وزار قبر شيخه ، تقدم اليه بعض أهل سلا الذين ذكروه بالوضعية التي تعرفها المدينة ، وهي مهددة باستمرار باحتمال مهاجمة اسبان المعمورة لاحوازها . فيقرر العياشي القيام بعمل من شأنه أن يعرف أولئك الاسبان بوجود قوة كافية تستطيع الدفاع عن المدينة . ويمهد العياشي للعملية باستجماع كل ما يمكنه من امكانيات . ولم يتجاوز عدد البنادق التي اجتهد السلاويون في جمعها 400 . ورغم تلك الامكانيات المحدودة توجه العياشي باصحابه إلى احواز المعمورة ، واستطاع أن يحرز على انتصار مهم من حيث الدور الذي لعبه من جهة في رفع معنويات المغاربة ، ومن جهة أخرى في تذكير اسبان المعمورة بوجود مغاربة مستعدين للرد على تحركاتهم . ويعود العياشي إلى سلا وقد توفرت في شخصيته عدة معطيات : فهو رجل علم وتقوَى ، وهو صوفي أخذ الفقر عن صوفي مشهور في وقته هو عبد الله بن حسون ، وهو رجل حرب اثبت خلال مقامه الطويل بدكالة من الشجاعة والمعرفة بشئون الحرب ما سمعه أهل سلا سماعا ، وهو أخيرا اتبث قدرته الحربية في معركة ضد الاسبان شهدها أهل سلا معه عيانا . فكان العياشي بذلك مؤهلا لكي يكون رجل الساعة في وقت تفتقد فيه سلا رجل ساعة بما تعرفه من الاضطراب السياسي وانعدام الأمن ، وما يتبع ذلك عادة من الاضرار

بمصالح الناس فما هي الوضعية السياسية التي كانت عليها مدينة سلا في هذا الوقت ؟ .

الوضعية السياسية لسلا حوالي 1615

يظهر أن بعد مدينتي مصب أبي رقراق عن عاصمتي السعديين المتاخرين (مراكش وفاس) وموقعها الهامشي بالنسبة لمحور المرور الذي كانت تستعمله قوات الاخوة المتحاربين عبر تادلا (حيث يلاحظ أن معظم المعارك وقعت في تادلا أو على مقربة من وادي أم الربيع) جعلاهما تعرفان بعض الاستقرار. إذا ما قورنتا بما كان يجري بعد وفاة المنصور في فاس ومراكش . وبذلك ظلت سلا والرباط خارج مناطق النزاع[21] . غير أن هذا الاستقرار لم يستمر ، اذ يحاصر عبد الله بن الشيخ المامون سلا سنة 1605 ، وتستعصي عليه القصبة التي تسارع إلى الاستنجاد بأبي فارس دون جدوَى ، حيث ينجح عبد الله في دخولها[22] . ولا تستمر تبعية المدينتين لعبد الله مدة طويلة ، ذلك أن انتصارات زيدان قلصت مناطق نفوذ الشيخ المامون وابنه عبد الله بعد مقتل أبي فارس ، ولا نصادف في المواد التاريخية بعد ذلك ما يؤكد تبعية هذه المنطقة لهذا السلطان أو ذاك . إلى أن تبدأ المصادر في الحديث عن وجود قائد من لدن زيدان على قصبة سلا هو عبد العزيز الزعروري[23] . وابتداء من 1615 تبدأ الوضعية في الاضطراب حيث يثور سكان الرباط على قائد زيدان المذكور، ثم على قائده الثاني عجيب[24] حيث رفضوا طاعته، وطردوه عن الرباط

---

(21) وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة — 1 : 85 .

(22) نفسه — ابريطانيا — 2 : 356 .

(23) الزعروري : عبد العزيز الزعروري ، تولّى شؤون الرباط بامر زيدان الى أن ساءت علاقته بالسلاويين ، فنهبت دار الزعروري والقي عليه القبض 1627 .

(24) عجيب : الفتى عجيب اسباني مسيحي أسلم . وهو من موالي السلطان زيدان بن أحمد المنصور ، كانت له عنده حظوة ومكانة ، فكان يكلفه بجليل المهات . ففي 15 غشت 1623 ترأس عجيب جيشا لمحاولة قمع قبائل دكالة ، وفي شتنبر 1626 وجهه زيدان ـ

1627/1036[25] أما الرباط فقد اتخذت لنفسها نظاما سياسيا خاصا بها . في حين ظلت سلا ... فوضى لا ولي بها ، فكثر بها وباحوازها العيث والنهب ، ومد اللصوص أيديهم للمال والحريم ، وكثرت الشكاية من التجار والمسافرين من اخافة السبيل وقطع الطرقات[26] .

وفي نفس الوقت كان اسبان المعمورة والعرائش يضيقون على المغاربة ، ويصل اثر تضييقهم إلى سلا ، التي انقطعت صلاتها الاعتيادية مع المناطق الواقعة شمالها ، في حين كانت تصرفات السلطان تزيد من حدة الخنق الحاصل في المبادلات ، ذلك أن احتياج الشيخ المامون إلى القوات ـ لمحاربة منازعيه ـ جعله يصادر كل سفينة تقترب من السواحل المغربية ليتخذ من ركابها وطاقمها جنودا ، لما يعرفه من مهارة الاروبيين في الرماية بالخصوص ، ولما تتوفر عليه تلك السفن من مدافع[27] . ورغم اننا لا نتوفر على اشارة واضحة إلى وضعية سلا ، فان من المرجح أن تكون وضعيتها مشابهة لما في باقي المراسي المغربية التي اغلقت بسبب ظروف الحرب[28] .

وعلى هذا كانت مدينة سلا في حاجة إلى مسير ، للنظر في أمور سكانها ، واقرار ما يجب اقراره من أمن ، لا يتأتى عادة الا بوجود صاحب أمر ، ثم لمحاولة تغيير وضعية الحصار الذي تتعرض له المدينة .

لم تكن سلا تخلو ممن عرف بصلاحه وعلمه ، وتاهله النظري للقيام

= على رأس بعثة لتهنئة كونصالو كوتنيو بمناسبة تعيينه حاكما على البريجة . ثم وجهه زيدان حاكما على الرباط ، لكن أهل المنطقة أساءوا استقبالهم ، ثم طردوه ليقتل على يد بعض سكان ضواحي الرباط .

(25) سنعود الى تفصيل هذه الأحداث .

(26) الخبر عن ظهور العياشي — ص 10 .

(27) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 361 .

(28) نفسه — ابريطانيا — 2 : 244 .

بوظيفة تغيير المنكر ، اذ نجد من بين شخصيات الوقت من لا يستبعد مشاركته في الاحداث واستعداده للقيام بالأمر مثل : محمد بن سعيد العتابي[29] ، وهو تلميذ عبد الله بن حسون وخليفته ، أو محمد بن أحمد الشماخ العثماني[30] ، وغيرهما كثير ، غير أننا لا نتوفر على ما يمكننا من الجزم بمشاركتها في الأحداث ، غير أنه من غير المستبعد أن تكون رغبتهما أو رغبة احدهما في تغيير الوضعية السيئة ، الموصوفة انفا من جهة ، وعلاقتهما بمحمد العياشي — من باب التتلمذ المشترك على عبد الله بن حسون — من جهة ثانية ، ومعرفتهما بقيمة العياشي التنظيمية والعسكرية من جهة ثالثة ، كل هذا قد يكون من العوامل التي وجهت اختيار السلاويين ، بدفع من القاضي العثماني أو الفقيه العتابي ، وجعلت السلاويين يَهْرعون اليه (العياشي) طالبين منه القيام جهده بأمور الجهاد ، والسعي في مصالح العباد...

ويظهر اذن ان رئاسة العياشي كانت بالتقديم وليس بالتقدم ، غير ان اتفاق مجموعة من الناس على تقديم شخص ما يستلزم وجود رأي غالب وجه الاختيار أو على الأقل اقترح الاختيار ، ومن هنا كان من اللازم وجود نوع من التنظيم قبل وصول الاختيار إلى العياشي ، ونرَى أن ذلك التنظيم كان — باعتباره في مدينة مسلمة في القرن 17 — بطريقة معهودة في المجتمعات الاسلامية : اذ من المحتمل جدا أن يكون المسجد قد شهد خطبة لخطيب المسجد — الذي لا يستبعد أن يكون هو القاضي — تناولت كالعادة المشكل اليومي للمدينة ، ذلك المشكل المتمثل في الاضطراب وانعدام الأمن ، ثم اقترحت كحل لذلك تقديم شخص اطنبت الخطبة في وصفه ووافق كل ذلك هوًى في نفوس السلاويين ، فتقدموا إلى العياشي وطلبوا منه ما طلبوا .

---

(29) محمد (فتحا) بن سعيد العتابي . خليفة الشيخ عبد الله بن حسون بعد وفاته . توفي 1032 .

(30) محمد بن أحمد الشماخ العثماني ، قاضي سلا . توفي 1058 .

وكان تاريخ هذا التقديم بالتقريب ما بين 1030/1621 ، و1032/1623 . حيث يؤرخ التاريخ الأول لأول عملية عسكرية ضد المعمورة ، والثاني لمحاربة العياشي من نكث بعهده من قبائل الغرب .

إلى هنا والحديث يدور حول شخصية اتصفت بصفات خلقية ميزتها عن غيرها ، وجعلتها محط أنظار السلاويين ، فمن هو هذا العياشي ؟ .

التعريـف بالعياشـــي :

ولد أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد المالكي الزياني سنة 1573/980 . ويختلف الرواة كثيرا في شكل اسم المجاهد . فالبعض يضبطه بالفتح كما في النشر المخطوط (ظهر ورقة 92) وفي الصفوة (ورقات 44 — 45 — 79 وجه)، وفي الاستقصا (جزء 6 — ص 24)، في حين لا تفصح النزهة المطبوعة عن شكل التسمية ، بل نجدها بالرفع في نسخ النزهة الخطية د 117 (صفحات 253 و256) وفي د 70 (ص 180) .

والمرجح أن يكون الاسم بالفتح اعتبارا للاستعمال الشائع عند فقهاء سلا المعاصرين ، كما يطرح الاسم مشكلة ثانوية أخرى تتعلق بأصل كلمة العياشي المقترنة دائما باسم المجاهد . والمؤكد أن لا علاقة لهذه الكنية ... بالقبيلة البربرية التي يقال لها أيت عياش[31] . وقد حاول البعض تفسير هذه التسمية ، فذكر ان لذلك علاقة بانتصار عسكري للمجاهد عقب معركة وقعت في منطقة كانت تحمل اسم عياشة[32] . ويظهر أن ذلك التفسير في غير محله : ذلك أن المعركة المعتمد عليها وقعت بتاريخ أوائل رمضان 1038 (أبريل 1629)، في حين أن العياشي حمل هذا اللقب قبل هذا التاريخ بوقت غير يسير ففي مذكرات J. Harrisson يسمي هذا الأخير العياشي The great saint sidi Hamet Laiäshi

(31) الخبر — ص 1 .
(32) مقال الدكتور ابراهيم حركات— دعوة الحق/مارس 1972— ص 115 .

وذلك في مذكراته المؤرخة بـ 11 شتنبر 1627 [33] . واذن فالعياشي لقب كان ملازما للمجاهد قبل انتصاره في المعركة المذكورة ، وليس هناك ما يمنع من أن تكون تلك التسمية ملازمة له منذ صباه . فكثيرا ما يستغل بعض المغاربة بعض الأحداث لتسمية ابنائهم ، مثل الأعياد أو الأحداث البارزة .

وقد ولد العياشي في بيت تتفق المصادر المغربية على وصفه بالصلاح ، فبيته بيت خير وصلاح منذ القديم . غير أننا لا نتوفر على غير هاته الاشارة للحكم على بيت العياشي بالصلاح أو غير الصلاح . ومن الغريب حقا ان تخلو المؤلفات المغربية السابقة للعياشي من أية اشارة إلى عائلته ، مع ما نعرف من حرص المغاربة على تقييد مناقب الصلحاء وتسجيل اخبارهم ، فلا يبعد أن يكون وصف أبي املاق لبيت العياشي بالصلاح هو من باب الرغبة في تجسيم صلاح العياشي نفسه ، زد على ذلك أن تأخر أبي املاق بالنسبة لوقت العياشي ، وانفراده بالاشارة السّابقة ، ينفي عن تلك الاشارة كل أهمية .

وتنفرد اشارة أخرى — مرة أخرى — بالقول بأن عائلة العياشي كانت لها الرئاسة المتوارثة على بني مالك في الغرب [34] . وليس هناك ما يزكي هذا الوصف اللهم الا ما كان من امكانية استقراء ذلك من خلال ملاحظة ان هجرة قروي إلى المدينة في طلب العلم قد تكون دليلا في بعض الأحيان — بسبب امكانية الاستغناء عن ذلك القروي — على سعة الرزق أما ما ورد في رسالة من العياشي إلى ملك ابريطانيا من تحلية اسم والد العياشي ب : مولانا الامام المقدس أبي العباس أحمد، فهو من باب التقليد ولا يفيد في شيء في تحديد المكانة الاجتماعية لعائلة العياشي.

---

(33) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 39 .

(34) Archives Marocains – Tom 18- p. 110

وبنو مالك هم بنو مالك بن زغبة بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . فالقبيلة اذن قبيلة من القبائل التي كانت مستقرة في افرقية في القرن 12م. لكن كيفية استقرار هذه القبيلة في الغرب ، والمراحل التي قطعتها قبل الوصول إلى مواطنها التي احتلتها في القرن 17 ، تظل غامضة ، ويقول J. Berque «لسفيان وحدهم تاريخ، ولا شيء يذكر عن بني مالك قبل ازمة القرن 17 التصوفية، حيث يظهرون ابطالا لهم قيمة ويعرفون — مع العياشي — زمن هيمنتهم ، ولكن لا أحد يعلم أصلهم ولا من أين قدموا ، اللهم الا ما كان من أنهم اخوان سفيان ، وهو شيء يفرضه تساكنهم ...»[35] .

وأول ما يجب الانتباه إليه في هذا الصدد : أولا أن اسم بني مالك لم يظهر في منطقة الغرب الا في القرن 16 ، بحيث لا يظهر هذا الاسم بين القبائل التي وطنها L. Massignion انطلاقا من ملاحظات ليون الافريقي ، والتي هي عاصمة وشبانة (؟) والخلط ، وصبيح[36] . وثانيا : انه بمجرد ظهور هذا الاسم — بعد مدة قليلة بعد ذلك ، يقترن ذكره بذكر سفيان ، سواء في مذكرات Marmol [37] أو في بعض الاشارات الواردة في وثائق دي كاستري ، حيث يظهر أن قبائل بني مالك سفيان شاركت بجانب السعديين في معركة وادي المخازن[38] .

أما قبل القرن 16 ، فلا أثر لبني مالك في المغرب ، ولا أثر لسفيان في الغرب . فإذا رجعنا إلى الوراء — وبالضبط إلى القرن 7 للهجرة/13 للميلاد — فاننا نصادف من جهة سفيان ، كفرقة من قبائل جشم ، تعيش في تامسنا ، يقول ابن خلدون .. وتوافدت اليه (السلطان أبو يوسف

(35) Cité par le Coz – Le Charb – p. 237 – Tom ı

(36) L. Massignon, le Maroc dans les 1ères années du 16è siècle, p. 135

(37) De l'Afrique, pp. 146, 149

(38) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 1 : 315 .

المريني) امداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الأثبج ...[39].

وعلى ذلك تكون سفيان من القبائل العربية التي يقول فيها أيضا ابن خلدون .. فنقل المنصور (الموحدي) جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب .. ونقل جشما هؤلاء الذين غلب اسمهم على من معهم من الأحياء وانزلهم تامسنا ..[40].

أما بنو مالك ابن زغبة، فينقسمون إلى ثلاثة بطون: سويد — الحرث — الديالم. نجدهم في نفس الوقت مستقرين في نواحي وهران، يتقوون، فيفرضون الاتاوات على من حولهم[41] أو يضعفون ويضطرون إلى دفع الاتاوات لغيرهم[42]. ثم نصادف اسم بني مالك مرة أخرى سنة 720هـ حينما يعقد السلطان أبو الحسن المريني لونزمار ابن عريف على سويد وسائر بني مالك[43].

فيظهر اذن انه في الوقت الذي كان فيه سفيان مستوطنين تامسنا، مما يلي أسفي، في منتصف القرن 8 للهجرة[44]، كان بنو مالك لا يزالون في الاطراف الشرقية من الغرب. فكيف تم وصول كل من القبيلتين إلى الغرب بعد أكثر من قرنين؟، ثم كيف تم الاتصال بين بني مالك وسفيان؟

لا شك أن سفيان انضمت في بداية القرن 16 إلى السعديين فيمن

---

(39) ابن خلدون — التاريخ — مجلد 7 — ص 379.
(40) نفسه م 6/ ص 58.
(41) نفسه م 6/ ص 95.
(42) نفسه م 6/ص 96.
(43) نفسه — م 6/ ص 99.
(44) نفسه م 6/ 62.

انضم اليهم من قبائل تامسنا[45] ، في وقت كان فيه محور التحركات السعدية — في اطار محاولة القضاء على بقايا بني وطاس في فاس — من الجنوب إلى الشمال . ولا شك أيضا في أن سفيان حظوا بما حظي به الخلط عندما اقطعهم المنصور بعض الغرب بعد معركة وادي المخازن[46] . وبذلك نصل مع سفيان إلى الغرب حيث نجدهم في القرن 16 .

أما بالنسبة لبني مالك فلا وسيلة إلى الربط بين وجودهم في المغرب الشرقي في القرن 14م، ووجودهم في الغرب في القرن 16 الهجري . الا بافتراض تنقل مستمر باتجاه الغرب بعد الاضطرابات التي عرفها المغرب بعد بداية ضعف بني مرين . يقول ابن خلدون : لما نصب بنو حصين ابن عم السلطان (1365م) هبت من يومئذ ريح العرب .. ووطئوا من تلول بلادهم (زناتة) ما عجزوا عن حمايته ...[47] . فلا يستبعد أن يكون هذا التيار قد حمل — فيما حمل — بني مالك ، وأوصلهم إلى الغرب في اخر حكم بني مرين ، أي في بداية استقرار السعديين أي في الوقت الذي كانت سفيان تبحث فيه عن مستقر . وعليه لم يكن من المستبعد أن يحصل اتصال بين بني مالك وسفيان ، بشكل بسيط في البداية . ثم تقوّى ذلك الاتصال متخذا شكل تحالف فرضته الاضطرابات المترتبة عن حداثة الاستقرار ، ثم تطور التحالف إلى تساكن ، مع التاكيد على كلمة تساكن التي تؤدي معنًى واضحا هو انعدام حد فاصل بين القبيلتين المندمجتين في بعضهما بشكل يفرض على كل من تكلم عنهما ذكر اسم بني مالك سفيان دون استعمال حرف العطف. وهناك نظريتان لا تخلوان من أهمية لتفسير هذا الاندماج[48] ، غير أننا نرَى أن هذا التقارب ناتج عن حادثة

---

(45) الاستقصا — الناصري — 2 : 176 .

(46) نفسه .

(47) ابن خلدون — التاريخ — 6 : 100 .

(48) Le Coz, le Gharb, I/269

مهمة في تعمير الغرب كان منطلقها ترحيل المنصور السعدي لمجموعات بشرية واقرارها في الغرب. يقول الفشتالي ان المنصور... (نظر في اعطاف دولته ، وكان من أول المهات التي صرف اليها عنايته ، ارحال القبائل التي كانت الدولة تقصيهم عن مواطنهم بجهات مراكش والسوس إلى بلاد ازغار من ممالك فاس ... فلما تراجعت القبائل الراحلة .. إلى منازلهم المعمورة ، ومواطنهم التي اقطعتهم الدولة بازغار ، وجدوا أهل هذا الوطن من الخلط وغيرهم ... قد مدوا جناحهم على تلك المواطن .. فاستنكفوا عن اسلامها ، وزاحموهم فيها بالمناكب .. وحدثتهم أنفسهم بمقاومة عرب السوس ومراكش .. فاستنكف عرب الدولة عن التجافي لهم عن شيء اقتطعه اياهم الخلفاء ، فنشبت لذلك نار الحرب والفتنة..) (49) .

وبذلك تشهد منطقة الغرب قبل نهاية القرن 16 اضطرابا بشريا كبيرا تعقده تدخلات الدولة بجانب أحد اطراف النزاع . وكانت هذه الوضعية سببا في تقارب كثير من المجموعات القبلية للمحافظة على مسارحها .

أما موقف العياشي من كل هاته الاحداث ، فلا وسيلة إلى التعرف عليه . كل ما يمكن تقديمه انه تلقي العلم في مسقط رأسه ، ثم كان عليه —كسائر الراغبين في التحصيل— مغادرة قبيلته ، والتوجه لطلب العلم في أحد المراكز العلمية المشهورة في وقته : فاس أو سلا ، ففضل الثانية . واتجه اليها حيث تبدأ حلقة أولى من حلقات شهرته .

تكوينــه العلمــي :

لا يمكن الحديث عن تكوين العياشي من الناحية العلمية والصوفية، الا من خلال تحليل علاقته بشيخه واستاذه: عبد الله بن حسون. ذلك

---

(49) الفشتالي — مناهل الصفا — ص 110 .

أن ما نعرفه عن تكوين المجاهد من الناحيتين لا يزيد عما يمكن استنتاجه من معارف الشيخ ، ما دمنا لا نتوفر على أي مصدر اخر ، نستطيع ان نقول — اعتمادا عليه — بأن العياشي تلقّى من هذا الشخص أو ذاك وبالتالي تلقّى ذلك العلم أو الاخر؟. وعليه فمن اللازم قبل الحديث عن تعليم العياشي وتكوينه ، توضيح العلاقة التي ربطت بينه وبين عبد الله بن حسون .

وقد ولد عبد الله بن حسون ، وهو عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي المشهور بابن حسون ، سنة 1515/920 ، بمدشر سلاس بناحية فاس . ولا نعلم شيئا عن أصله وأسرته ، اللهم إلا ما كان من محاولة الحاقه بالشرف : فهو سيدي عبد الله بن أحمد بن الحسن بن حسون بن يوسف بن سيدي الحاج علي ، بن عبد الرحمن ، بن عبد العلي ، بن ابراهيم ، بن أحمد ، بن محمد ، بن ادريس ، بن عبد الله ، بن الحسن ، بن الحسن ، بن علي حسبما يظهر من وثيقة يحتفظ بها نقيب الحسونيين حاليا ، وهي مؤرخة بـ 1096هـ .

وقد اتصل عبد الله بن حسون عندما رحل إلى فاس لطلب العلم بعلماء المدينة وأخذ عن مشاهيرهم مثل عبد الواحد الونشريسي ، وأبي الحسن علي بن هارون ، وعبد الوهاب الزقاق ، وعبد الرحمن بن ابراهيم الجلالي ... وغيرهم(50) .

ومن خلال استعراض بعض ما درس اساتذة ابن حسون ، يمكن التعرف على المعارف العلمية التي كان صالح سلا متوفرا عليها . فعبد الواحد الونشريسي مثلا كان متضلعا في النقد والنحو والأدب وغيرها من الفنون(51) ، والزقاق لا يجاري في حفظ مختصر خليل وله مشاركة في

(50) نشر المثاني — القادري — جـ 1 : 95 .
(51) نفسه في وفيات 955 .

الأدب والأصلين والطب والتفسير والحديث والنحو[52] .

والظاهر أن عبد الله بن حسون عاد إلى سلا بعد قضائه مدة لتلقي العلم بفاس . ولا نعرف شيئا عن نشاطه بالمنطقة ولا عن المدة التي قضاها بها . وكل ما نعلم أنه انتقل إلى سلا وان انتقاله هذا كان ــ حسب روايات متعددة ــ لاسباب شخصية .

وابن حسون رجل تصوف تربطه بسلسلة التصوف المغربية روابط متينة : فهو أخذ الفقر بفاس عن عبد الله الهبطي عن الغزواني عن التباع ، عن الجزولي . وهذا الجانب هو أساس الشهرة التي حصل عليها ابن حسون . فهو بالنسبة لمعاصريه أو من أتى بعدهم بقليل آخر حلقة تربط بينهم وبين الجزولي .

يقول الدلائي : فله (للعياشي) مدد من هذا النور... وسنده فيه والبرهان ينتهي من استاذه المنقطع إلى الله العارف بالله الامام أبي محمد سيدي عبد الله بن حسون افاض الله علينا من بركاته . إلى وارث القطبانية والنور الشعشاع ، أبي فارس سيدي عبد العزيز التباع ، إلى القطب الجامع لاشتات الكمال سيدنا ومولانا أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي[53] .

فعبد الله بن حسون اذن قطب من أقطاب الزمان ، وهذا ما يفهم من النص السابق بكيفية واضحة ، وما يمكن استقراؤه من خلال ما أوردته المؤلفات التي تحدثت عن ابن حسون وروت كراماته . فقد تحدث اليوسي في المحاضرات ، ونقل عنه القادري في النشر[54] مجموعة من كرامات ولي سلا . ويمكن تلخيص تلك الكرامات في ثلاث نقط رئيسية : أولا : قال

(52) نفسه في وفيات 961 .
(53) الخبر ــ أبو املاق ــ 22 .
(54) نشر المثاني ــ القادري ــ 1 : 95 .

ابن حسون لأحدهم : رجل قيل له من مس لحمك لم تمسه النار . ثانيا : قال اليوسي : ان الله غيبه عن صورتها (الآلة) الباطلة . وأشهده الباطن فيها . ثالثا : انه كان يطالع اللوح المحفوظ .

وهذه الملاحظات — على غرابتها بالنسبة لكثير من الناس في عصرنا — كانت محل اعتقاد كبير من طرف معاصري ابن حسون ، لأنها تدخل في اطار مجموعة من المسلمات الدينية المتكاملة . ذلك أن النقطة الأخيرة بالأخص تشكل أساسا من أسس تصنيف الصلحاء في الهيرارشية الصوفية . فرجال التصوف يعتقدون بامكانية وصول الالهام إلى أحدهم شرط أن تدركه العناية الالهية . يقول أحدهم : (فبقطع العلائق . ومحو الصفات المذمومة . والاقبال بالهمة على الله ، يفيض النور وينجلي ما هو مسطور في اللوح المحفوظ)[55] .

ولا تكون تلك الصلة الا بعد التدرج في درجات التصوف من : الذكر — التفكر — الفقر وأخيرا الحب[56] . وعند الوصول إلى مرتبة الحب بعد بغض الدنيا وأهلها تتم الصلة بالمحبوب . ويكون عبد الله بن حسون قد وصل — بالنسبة لعلاقته بالخالق — إلى أقصى درجات القرب . وبالنسبة لمعاصريه إلى درجة القطبانية وهي قمة السُّلَّم التصوفي المتكون من النقباء — النجباء — الابدال — الاوتاد — الامام وأخيرا الاقطاب . وللقطب أهمية كبيرة : فهو رجل «عظيم يحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المبهمة والأسرار .. ويطلب منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء» .

من كل ما سبق ، تظهر الرتبة التي كان يحتلها ابن حسون في الوسط السلاوي وبهذه الشخصية سيتصل العياشي ، وعليها يتتلمذ .

---

(55) أبو الحسن الشاذلي — سالم أبو عمار — ص 180 .
(56) نفسه — ص 114 .

وقد كانت العلاقة التي ربطت بين العياشي وصالح سلا تتعدّى حد التتلمذ العادي . ذلك أن العياشي لازم شيخه ووقف نفسه على خدمته . وكان أسرع التلاميذ إلى خدمة الشيخ وأكثرهم طاعة له . وكان بذلك قد وضع نفسه تحت تصرف استاذه منتظرا كل الفرص الممكنة للاستفادة منه . وما دام ابن حسون فقيها وصوفيا في نفس الوقت فقد كانت استفادة العياشي منه مزدوجة . وكان تلقيه منه على وجهين : وجه التتلمذ العلمي . ووجه المصاحبة لأخذ الفقر . ورغم ان ابن حسون لم يجز أحدا . فان كل الذين تحدثوا عن العياشي أطنبوا في تحليته بالقاب العلم والمعرفة .

*

ثانيا : اطوار الحركة

رأينا في فصل سابق كيفية استقرار العياشي بسلا. وقد تم ذلك الاستقرار حوالي 1615/1023. وابتداء من هذا التاريخ تبدأ أطوار الحركة العياشية لتستمر إلى وفاة المجاهد 1641. ويمكن أن نقسم هذه المدة الطويلة (28 سنة) إلى 3 مراحل كبيرة تقسيما يعتمد على تغيرات موقف العياشي من الجو العام.

الفترة الأولى :

تمتد هذه المرحلة من 1615 إلى حوالي 1621. ويظهر خلالها العياشي — في الظاهر — بعيدا عن الأحداث التي تهز مصب أبي رقراق. بل يصعب كثيرا توطينه تاريخيا فيها ومرد هذه الصعوبة إلى عاملين: احدهما صعوبة التمييز بين الضفة اليمنى والضفة اليسرى للنهر. نظرا لاستعمال المصادر — سواء منها المغربية أو الأوروبية — للفظة سلا لتسمية كل من الضفتين[57]، والثاني الاضطراب الكبير في تواريخ الأحداث التي عرفتها المنطقة اضطرابا يزيد من حدته ان أهم مصدر مغربي عن الفترة والمنطقة — وهو نزهة الحادي — يروي الأحداث بتتابع يوحي بأن تلك الأحداث متقاربة تاريخيا رغم أنها متباعدة جدا في الواقع.

وللخروج من هذا الاضطراب ينبغي عرض الأحداث والتواريخ أولا بكل ما فيها من اضطراب، ثم فحصها بالدقة اللازمة للخروج بتوقيت واضح.

---

(57) R. Ricard et J. Caillé — in Hesp. 1947. pp. 42-44.

(58) De Castries — SI. Fr 3 : 67 et Ang 2 : 517.

1 — يفهم من المصادر المغربية — وهي في عمومها تنقل عن النزهة — ان العياشي استقر بسلا بعد سقوط المعمورة في يد الاسبان بقليل أي حوالي 1615/1023 ، وانه لزم داره بها إلى أن نظم عملية ضد المعمورة سنة 1621/1030 [58] .

2 — يفهم من المصادر المغربية أيضا أن زيدان اصدر أمره إلى قائده على سلا (الرباط) [الزعروري] بالقبض على العياشي ، الشيء الذي كان سببا مباشرا في سوء العلاقة بين الأندلسيين والزعروري ؛ ومن ورائه زيدان فيطرد الزعروري من المنطقة ، ونعلم أن هذا الطرد كان قبيل 1625/1034 [59] .

3 — ومن جهة أخرى نجد أن العياشي — ردا على ما قال به بعض طلبة الوقت من أنه لا يحل الجهاد إلا مع الأمير — يلزم الملتفين حوله بالاعتراف كتابة بتقديمه ، ثم يحارب بعد مدة من نكث بالعهد بتاريخ ذي الحجة 1032/أكتوبر 1623 [60] . واعتبارا لتاريخ هذه العملية يمكن القول أن تقديم الناس للعياشي كان قبل هذا التاريخ بقليل .

فكيف نجمع بين الرواية القائلة بأن «سلا بقيت فوضَى لا ولي بها وكثر بها وباحوازها العبث والنهب ، وسيدي محمد العياشي يرَى ويسمع ، ولا يتكلم في شيء من ذلك كانه غير حاضر» [61] ابتداء مما بعد مقتل القائد الذي خلف الزعروري وهو عجيب من قبل زيدان 1627/1036 ، وبين نفس الرواية التي يفهم منها أن تقديم الناس للعياشي كان قبل 1623/1032 ؟.

ولعل أيسر السبل للخروج من هذه التناقضات هو الفصل بين تاريخ

---

(59) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 191 .
(60) الخبر عن ظهور العياشي — أبو املاق — ص 12 .
(61) نفسه — ص 10 .

سلا وتاريخ الرباط . ويكون التسلسل المنطقي للأحداث بالكيفية التالية :

أولا : بالنسبة للرباط ، لا تعرف المنطقة خبر وفود العياشي على سلا . ويظل سكان المدينة في تبعية اسمية للسلطان الممثل عندهم من طرف القائد الزعروري ، إلى أن يتم طرد هذا الأخير سنة 1625 ليخلفه القائد عجيب مدة إلى سنة 1627 . وسبب هذه النفرة بين مراكش والرباط رغبة السلطان زيدان في استعمال الموركسيين نفس الاستعمال الذي كان يستعمله المنصور من قبل كفرق في الجيش ، ورغبة الموركسيين في نوع من الاستقلال . أما الربط بين طرد الزعروري ثم قتل عجيب ، وبين رغبة الأول في التخلص من العياشي فما هو الا وليد مخيلات الرواة المغاربة الذين يوردون في اطار تقديسهم للعياشي – من الاخبار ما يؤكد ان كل من اساء إلى المجاهد معاقب .

ثانيا : بالنسبة لسلا : استقر العياشي بسلا غير ملتفت لما يقع خارجها ، وقد تضررت سلا في هذه الأونة من الوجود الاسباني في المعمورة ، فيعرض سكانها على العياشي – لما له من الشهرة في هذا الباب – تنظيم عملية جهادية تنتهي بانتصار للسلاويين . فيصل النبأ إلى زيدان الذي يوجه الأمر إلى قائده على المنطقة بالقاء القبض على العياشي . غير أن سكان سلا يحمون زعيمهم ، فيتوقف الزعروري عن الاهتمام بالضفة اليمنَى (سلا) ، متفرغا للمشاكل التي تخلقها له علاقته بمرؤوسيه . وبذلك تنقطع الصلة بين الضفتين ابتداء من سنة 1621 . وانقطعت بانقطاعها صلة سلا بمراكش . وبذلك يمكن القول بان سلا بقيت فوضَى لا ولي بها .

وقد كانت هذه الوضعية الغير عادية – أي عدم توفر المدينة على مسير – تفرض على سكان المدينة التفكير في اتخاذ زعامة سياسية توطد الأمن وتردع أهل البغي والغي والفساد ، وتسعَى في مصالح العباد . وقد

وجد السلاويون في العياشي ضالتهم : كرجل يؤمن بضرورة القيام بعمل ما للتخفيف من خطر الوجود الأجنبي . اكتشف بالممارسة ان الجهاد عملية ليست سهلة . بل تلقَى المضايقات حتَّى من الحكام ، فييأس من مواصلة عمله التطوعي . وينعزل . رغم ماله من الحنكة والمهارة . ورغم ماله من الشعبية . تلك عوامل تؤهل العياشي للرئاسة ، فتتجه إليه الأنظار ... «وهرع إليه الناس طالبين منه القيام جهده بأمور الجهاد والسعي في مصالح العباد». وبذلك تنتهي المرحلة الأولى ، من مراحل حياة العياشي السياسية ، يظهر فيها المجاهد بعيدا عن الأحداث . رغم ما يقدمه البعض من أن العياشي لم يكن غريبا عن توتر العلاقة بين أهل الرباط والزعروري[62] . ولكن الفترة مع ذلك مهمة بالنسبة لما بعدها فقد ظهر خلالها العياشي وكانه غير راغب في الدخول في مشاكل الوقت تاركا المبادرة لتقديمه تأتي من غيره . وبالتقديم تبدأ الفترة الثانية .

الفترة الثانية : 1622 — 1632

اتجه اهتمام العياشي خلال هذه المرحلة إلى الناحية العسكرية بالخصوص . أولا بتنظيم مجموعة من العمليات الجهادية كلها ضد المعمورة والعرائش ، وثانيا لمحاربة المجموعات البشرية المناوئة له أو التي يشكل تصرفها عرقلة في سبيل تحقيق الجهاد . أما على المستوَى السياسي فقد ظل العياشي محافظا على علاقة طيبة مع السلاطين السعديين بمراكش ويتلقَّى الدعم من باقي القوَى السياسية في البلاد . غير أن الجديد في هذه الفترة هو وجود رباط شرعي بين العياشي ومجموعة من المغاربة . ذلك أن التفاف من التف حول العياشي بقصد الجهاد كان يشكل انطلاقة حركة على رأسها زعيم ، وكان من الضروري أن تتوضح نوعية العلاقة التي تربط بين الزعيم وباقي الناس . وتظهر عندئذ في الوسط السلاوي مشكلة جانبية مؤداها ان

(62) وثائق دي كاستري — فرنسا 3 : 190 .

الجهاد لا يحل الا مع الأمير أو السلطان[63].

فما هو الأساس الذي انطلقت منه هذه الفكرة؟ قد يكون انطلاقها نتيجة تخوف السعديين من ظهور العياشي كمنافس لهم، وبالتالي نتيجة رغبة منهم في اظهار لا شرعية ما يقوم به من عمل، وقد يكون محاولة جديدة من زيدان ـ بعد فشل محاولتين سابقتين مبنيتين على استعمال القوة ـ للتخلص من العياشي بكيفية غير مباشرة. وقد يكون منطلق الفكرة من العياشي وانصاره، وهذا هو الأرجح. ذلك أن الشائعة لم تسر في الاتجاه الذي كان يجب أن تسير فيه لو انها كانت منطلقة من اعداء العياشي، بل نجدها تاتي في الوقت المناسب تماما ليطلب العياشي من الذين قدموه الالتزام كتابة بذلك التقديم. يقول الافرني: ولما طلبه الناس للتقدم عليهم للنظر في مصالح المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم، أمر أشياخ القبائل واعيانها من عرب وبربر ورؤساء بان ينزلوا خطوطهم في ظهير بانهم رضوه وقلدوه وقدموه على أنفسهم، والتزموا طاعته، وأي قبيلة خرجت عن طاعته وأمره، كانوا معه على مقاتلتها حتّى تفيئ إلى أمر الله... فكتبوا بذلك خطوطهم ووافق عليه قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازى...[64].

فالقضية اذن من أساسها تريد الوصول إلى هذا الموصل: ربط العياشي بالذين قدموه بواسطة رباط شرعي واضح المعالم: فالعياشي مقدم على الناس لغايتين: النظر في المصالح العامة، وتنظيم الجهاد. وذلك التقديم آت من رغبة تلقائية من الناس، يلتزمون بها ويتعهدون بالمحافظة على الطاعة، ومحاربة من فكر في الخروج عن تلك الطاعة، أما الذين قدموا العياشي، فليسوا سكان سلا فقط بل هم سكان المناطق المجاورة من عرب وبربر، وهذا الاتفاق ليس اتفاقا سريا، بل وافق عليه قضاة

(63) النزهة ـ الافرني ـ 265.
(64) النزهة ـ ص 265.

الوقت وفقهاوه من تامسنا إلى تازة . ومن هنا يلاحظ أن رد العياشي كان أقوَى وأعمق بكثير من التهمة الموجهة إليه في الأصل من عدم حلية الجهاد الا مع الأمير. بل يظهر أن هاته الاتفاقية ـ أو قل الميثاق ـ كان معدا ومدروسا ولم يكن وليد الساعة . اذ كان يكفي لاسكات قول بعض طلبة الوقت ـ وتستعمل المؤلفات المغربية كلمة طلبة مع نوع من الاستخفاف والاستهانة ـ ردود كثير من الفقهاء وفتاويهم مثل عبد الواحد بن عاشر وابراهيم الكلالي والعربي الفاسي وغيرهم من الأئمة من أن قتال العدو والكافر لا يتوقف على وجود امام (أو سلطان)[65] بل يزيد صاحب الخبر عن ظهور العياشي ... واما ما افتَى به الأئمة رضي الله عنهم .... فواضح لمن له أدنَى تأمل ، حتَّى أنه لا يحتاج معه إلى كثير بحث أو تعقل[66] .

على أية حال ، توفر للعياشي وسيلة شرعية كافية لتهدئة كل منطقة الغرب . ذلك أن الاضطراب البشري الذي خلقه جدة الاستقرار في المنطقة ، والاضطراب الجديد المترتب عن استقرار الاسبان في العرائش والمعمورة ، خلقا نوعا من الطفو بالنسبة لبعض القبائل التي لم تكن تجد الا منفذا واحدا هو هوامش سهل الغرب نحو الجنوب بالنسبة لأولاد سجير ونحو الشرق باتجاه فاس بالنسبة للحياينة وشراقة[67] . فكانت أولى مشاغل العياشي هي محاولة وضع حد لتحركات هذه القبائل في اطار العهدة المنوطة به ، والمتمثلة في رعاية مصالح المسلمين. وكان أول ما بدا به من نشاط مباشرة بعد التقديم استعداده لمحاربة من نكث العهد من قبائل شراقة والحياينة ، وأولاد سجير. ويظهر أن المجموعة الأولى كانت أكثر خطرا . ذلك أنها وجدت لعملياتها مسيرا في شخص عبد الله بن المامون الذي كان في حاجة إلى من يدعم سلطته : فقد شكل شراقة غالب جند

---

(65) الخبر عن ظهور العياشي ـ أبو املاق ـ ص 11 .

(66) نفسه .

(67) انظر فصلا سابقا ـ ص 32 .

عبد الله.. وممن انضم اليه منهم حماته وأنصاره وبهم كان يعتصم حتّى أعطاهم أجنة الناس ودورهم[68] . وكانت هذه القبائل قد التفت حول عبد الله بن المامون قبل ظهور العياشي (1611). غير أن فرقا منها ــ على الأقل ــ كانت ممن حَضر تقديم العياشي وممن أمضَى على ميثاق تقديمه فيما بعد ، لذلك وللتضييق الذي يمارسه شراقة على أهل فاس[69] استعد العياشي لمنازلة هذه القبيلة . لكنه اكتشف ضعف امكانياته ، فلم يجد بدا من الاستنجاد بمحمد بن أبي بكر الدلائي . ولم يتوقف هذا الأخير عن انجاده بجيش يقوده ابنه محمد الحاج يستطيع وضع حد لتصرفات شراقة في شتنبر 1623[70] . غير أن انهزام شراقة لم يضع حدا لتحركاتها[71] .

وفي نفس الوقت كانت أولاد سجير تشن الغارات على مدينة سلا وتخرج عن الاتفاق المعقود مع المجاهد ، فيحاربها العياشي ، وينتصر عليها . دون أن ينجح في ايقاف عملياتها فبعد أن غلبهم وظفر بهم[72] 1623 ، عاد أولاد سجير مرة أخرى إلى التضييق على من حولهم[73] ، وسنرجع أيضا مرة أخرَى للحديث عن هاته القبائل .

ورغم أن الانتصارات التي حقق العياشي لم تكن حاسمة فانها كانت كافية لاقرار نوع من الاستقرار وكانت من جهة أخرى ايذانا بتوجه العياشي ومن معه إلى الهدف الأصلي المتمثل في الجهاد . والجهاد قبل كل شيء عمل عسكري يتوقف القيام به على توافر الأسلحة . وقد اظهرت المحاولة الأولى للعياشي نقص متوفرات السلاح حيث لم تستطع مدينة سلا ــ رغم الاجتهاد ــ أن تعد أكثر من 400 بندقية . وكان المورد الوحيد للسلاح هو

(68) الاستقصا ــ الناصري ــ ص : 52 .
(69) الاستقصا ــ الناصري ــ 6 : 53 .
(70) الخبر عن ظهور العياشي ــ 12 .
(71) انظر فصلا مقبلا ص 166 .
(72) الخبر ــ 16
(73) الخبر 22

مصانع أروبا . لذلك كان على العياشي أن يربط علاقات ما بدولة أروبية يحصل منها على السلاح وربما على عون أكثر من السلاح .

وفي هذا الوقت كثر الحديث في ابريطانيا عن المغرب ، وعن الأسرَى الانجليز فيه ، وفي هذا الصدد رفعت إلى البرلمان الانجليزي عرائض تطالب بالنظر في قضية الأسرَى[74] . ووجدت هذه المطالب الاذن الصاغية من الجهات المسئولة ، حيث عين جون هاريسون[75] ممثلا للملك شارل الأول بالمغرب ، وكانت المهمة المنوطة به العمل على عتق الأسرَى الانجليز . ويبدأ هاريسون جولته في المغرب من تطوان ، ومنها يتجه إلى سلا حيث يعلم العياشي بقدومه وغاياته ، فيسهل تنقله ويتصل به ويحسن استقباله ، ويوجه معه رسالة إلى شارل الأول مظهرا فيها استعداده لربط علاقات ودية بابريطانيا . وينال العياشي بعض ما يرغب فيه حينما يجيبه ملك ابريطانيا برسالة تظهر فرحه بموقف العياشي[76] . وبذلك يسهل العياشي مامورية هاريسون مقابل الحصول على الأسلحة[77] . بل تتوثق العلاقات إلى حد التفكير في مشروع تحالف تتشكل بمقتضاه قوة انجليزية مغربية تعمل من أجل تحرير المعمورة[78] . غير أن المشروع يفشل لعدة عوامل ، لكن فشله لم يكن يعني توقف استفادة العياشي من علاقاته بابريطانيا . فقد حصل على بعض ما كان يرغب فيه : السلاح . وبذلك استعد لتنظيم أول حملة قوية ضد المعمورة .

---

(74) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 1 وما بعدها .

(75) نبيل انجليزي اتصل أول مرة بالمغرب عندما وجهته ابريطانيا برسالة الى زيدان ، وقد كانت مهمته الأولية هي تحرير الأسرَى الانجليز ثم تعدَّى ذلك الى الاهتمام بتسهيل ربط علاقات تجارية وغيرها بين مختلف القوَى السياسية في مغرب القرن السابع عشر. قام بثمان رحلات ما بين 1610 و1632 . تحدث عنه دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 441 .

(76) نفسه 3 : 60 .

(77) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 60 .

(78) نفسه — ابريطانيا 3 : 20 .

قرر العياشي اذن تنظيم حملة على حصن المعمورة ... ليتقوى المسلمون بذخائره[79] . فتخرج من سلا بفرقة تحاصر الحلق مدة . ورغم حصانة الحصن ينجح العياشي في التضييق على من به ، خصوصا وأنه أصبح متوفرا على جهاز للمدفعية قوامه 6 مدافع حصل عليها بالشراء من الانجليز . وكان التضييق من الشدة بحيث أجبر قائد الحصن على طلب المدد من الوطن الأم . على أن طول الحصار ، وبداية نفاذ مؤن العياشي ، أجبر المجاهد على التفكير في رفع الحصار . وكادت عمليته هاته تشبه — في نهايتها — عمليات سابقة حيث ...«كان المسلمون قد حاصروه أيضا غير ما مرة وتعدد ذلك منهم فلم يقدروا على شيء»[80] . وفي اخر لحظة أجبرت صعوبة البحر بعض السفن — التي ربما كانت من السفن المنجدة للحصن — على اللجوء إلى ساحل الرمل ، لكنها تنشب في الرمال ، فيستولي عليها العياشي وبها 800 أسير ومدافع وذخيرة[81] . ويظهر أن بعض الأسرَى نجح في الافلات ، في حين نجح العياشي في تحرير 300 أسير من المسلمين كانوا في قبضة الاسبان . وبذلك يتحول الحصار الذي كاد أن يفشل ، إلى انتصار استفاد منه بالحصول على عدد مهم من الأسرَى بالاضافة إلى السلاح والذخيرة . غير أن انتفاع العياشي من الغنيمة قل عندما استحوذ الأندلسيون المشاركون في العملية على بعض المدافع[82] . ويرَى أبو املاق أن الافرني لم يذكر لهذه الغزوة تاريخا ويكتفي بذلك[83] . وقد وقعت هذه العملية بتاريخ مايو 1627[84] . وبعد هذا الانتصار يتجه العياشي إلى عملية يحيط بها بعض الغموض .

---

(79) الخبر أبو املاق — ص 24 .

(80) نفسه .

(81) Mazagan et le Maroc... R. Ricard. p. 160 — et De Castries Ang. 3 : 46.

(82) وثائق دي كاستري - ابريطانيا 3 : 28 .

(83) الخبر أبو املاق - ص 25 .

(84) وثائق دي كاستري — ابريطانيا 3 : 28 .

فقد انفرد صاحب «الخبر عن ظهور العياشي» بذكر هاته العملية التي يسميها غزوة الغربية . وقد وقعت هذه العملية في وسط اقليم الغرب — على اعتبار أن الغربية المذكورة هي المنطقة التي تحمل نفس الاسم اليوم —. وهي منطقة بعيدة عن أقرب مركز اسباني باكثر من 50 كلمترا ، الشيء الذي يدفع إلى التساؤل عن السبب الذي دفع قوات اسبانية إلى التوغل داخل اقليم الغرب إلى المسافة المذكورة . ثم يظهر الغموض على مستوَى اخر عندما يذكر أبو املاق أن المعركة خلفت 3000 من القتلَى . وهذا ما يدعو إلى الشك في هذا الرقم بل الجزم بمغالاته اذ لم تكن المعمورة أو العرائش تتوفر على مثل هذا العدد من السكان . وقد وقعت هذه المعركة حسب أبو املاق سنة 1627 .

وفي نهاية هاته السنة يتوقف عمل العياشي الجهادي لانشغاله بمشاكل من نوع جديد . تتمثل في توتر العلاقات بينه وبين سكان الرباط ثم دخوله في حرب ضدهم تستمر إلى 1630 . كما تتمثل في النزاع القائم بين أنصار العياشي وأبناء النقسيس في تطوان . وبعد ايجاد حلول ، وان كانت موقتة لهذه المشاكل . سيوجه العياشي اهتمامه مرة أخرَى إلى الجهاد ، وستعرف هذه السنة . والسنة الموالية نشاطا كبيرا في عمليات الجهاد .

فقد نظم العياشي حملة ضد برتغال طنجة ، في المنطقة المعروفة باسم جبل الحبيب . ونقل صاحب الخبر هذه العملية عن النشر[85] ، ذاكرا انها وقعت بتاريخ أبريل 1629 . كما ذكر أنها خلفت 588 قتيلا في صف البرتغال ، ويسميها غزوة عياشة الأولى . ولا أثر لذكر هذه العملية في غير النشر من المؤلفات المغربية .

يقضي العياشي بعد ذلك فترة متنقلا بين سبتة وطنجة[86] ، منشغلا

(85) نشر المثاني — القادري — I : 153 .
(86) رسالة العياشي الى الوليد بن زيدان — في الخبر — ص 39 .

بمعارك ضد البرتغال حيث يتعرض لشبه هزيمة : ذلك أن برتغال طنجة نظموا عدَّة عمليات انطلاقا من يناير 1630 . وتنجح هاته العمليات في الحصول على غنائم باردة قوامها مرة 300 رأس من المواشي وبعض الأسرَى المغاربة ، ومرة أخرى فارسين و3 خيول[87] . وكرد على هاته العمليات ينظم العياشي عملية يحشد لها القوات من قرًى ومدن الفحص ويسير باتجاه طنجة ويتم اللقاء بين الطرفين في منبسط من الأرض جنوبي طنجة ، ويضطر المغاربة إلى التراجع[88] . والظاهر أن العملية لم تزد على مناوشة بين القوتين لم تسفر عن انتصار بين لاي من الطرفين ، فالمصدر البرتغالي يؤكد أن عددا كبيرا من المغاربة قد قتل نتيجة المهارات العسكرية والشجاعة الكبيرة التي أبداها البرتغال . كما يؤكد أن عددا من البرتغاليين تحصّل أسيرا في يد العياشي . ويُظهر أيضا وجود عدد من القتلَى في الصف البرتغالي .

وبعد المعركة استمر الاتصال بين الطرفين لتصفية مخلفاتها. فالعياشي يبعث إلى قائد الحامية بطنجة خطابا بتاريخ 11 يناير 1630[89] يأذن له فيه في الخروج من طنجة لجمع قتلى قواته. ويجيب قائد الحامية برسالة يطغَى على أسلوبها الصلف والغرور. يذكر فيها العياشي بأنه — أي القائد — هو المالك الفعلي لبادية طنجة وان باستطاعته أن يخرج اليها كلما شاء ودون اذن من أحد . وبعكس ذلك لا يمكن لأحد أن يدخلها دون موافقته هو والا هلك[90] . ولا تتوفر بعد هذا مادة تاريخية تمكن من تتبع هذا الاتصال المباشر بين العياشي واحد قادة الاحتلال الأجنبي .

بعد سنة كاملة من هذه الأحداث ، ينظم العياشي عملية جديدة ضد

(87) وثائق دي كاستري فرنسا 3 : 275 .
(88) وثائق دي كاستري فرنسا — 3 : 276 و277 .
(89) نفسه -- ص 279 .
(90) من جواب القائد للعياشي --- نفسه .

العرائش. وتعطي هذه العملية الشكل النموذجي لعمليات الجهاد، وتتحقق فيها كثير من وجوه التكتيك العسكري المغربي. فبعد الاستنفار للجهاد تجتمع العناصر المجاهدة من مختلف القبائل في غابة قريبا من العرائش، وتكمن هنالك حوالي الاسبوع انتظارا لفرصة تنتهز في العدو. وتسنح الفرصة فعلا عندما يخرج من العرائش بعض سكانها الاسبان، فيحيط بهم المغاربة من كل جانب «.. فلم يفلت منهم أحد في ساعة واحدة طحنوهم طحن الحصيد»[91]. وقد وضح العياشي نفسه بعض تفاصيل العملية في رسالة بعث بها إلى الوليد بن زيدان بتاريخ 17 أبريل 1631. يقول فيها «وقد كيف الله سبحانه في غرة رجب (1040) غزوة اسفر فيها وجه الاسلام مشرق الجبين.. خرج من ثغر العرائش ما يزيد على 500 كافر فلم يفلت منهم أحد»[92].

وبهذه الاشارة من العياشي لا يبقَى أي شك في وقوع العملية ولا في تاريخها، خصوصا وان اشارة أخرَى تؤكد وقوعها بتاريخ فبراير 1631[93].

ويترك العياشي ناحية العرائش متجها نحو طنجة، حيث يتعرض مرة أخرى لهزيمة على يد قائد الحامية البرتغالي. في رواية تنفرد بها المصادر المغربية ولا أثر لها في غيرها. وتذكر هاته الحادثة باسم يوم المسامير. فقد ذكر الافرني ان العياشي حنق على يوم المسامير حيث نصب برتغال طنجة مسامير من 4 رؤوس تثبت ثلاثة منها على الأرض ويبقَى الرابع مرفوعا... مكيدة عظيمة تضرر منها الفرسان والرجالة[94]. ويظهر أن العملية تمت حوالي ماي 1631. وأنه بينها علاقة وبين العملية المشار اليها قبل والتي

(91) الخبر — ص 26.
(92) نفسه — ص 41.
(93) وثائق دي كاستري — لبريطانيا — 3 : 125.
(94) النزهة — ص 267.

تمت بتاريخ يناير 1630 ، حيث أن العياشي يؤكد في رسالته إلى الوليد[95] قراره بالاستقرار بين سبتة وطنجة ، وطال به الاستقرار فعلا مدة إلى 1631 حيث لبّى دعوة أهل فاس للمشاركة في عملية ضد العرائش ، وتشهد هذه السنة نشاطا كبيرا في عمليات الجهاد . حيث أضيفت إلى عملية العرائش (فبراير 1631) والعمليات التي انتهت بانهزام العياشي (ماي 1631) عملية ضد النصارَى في العرائش مرة أخرَى (أبريل 1631) ، وأخرَى ضد المعمورة (يونيه 1631) . ويزيد صاحب الخبر نقلا عن القادري في النشر ، غزوة أخرَى يسميها غزوة عياشة الثانية يظهر انها نفس العملية التي تمت ضد العرائش بتاريخ فبراير 1631 . وبعد ان استعرض أبو املاق العملية وتاريخها ونتائجها ، اشار[96] إلى امكانية الخلط بين هاته العملية وأخرى سبقتها في نفس المنطقة (غزوة عياشة الأولى) حيث يقول : ولولا ما تقدم من تاريخ الغزوة الأولى ، عن تاريخ هاته ،... لقيل انهما غزوة واحدة لوقوع هاتين الغزوتين بموضع واحد يقع به اللبس .

كما انتبه إلى امكانية الخلط بين العمليتين محمد بن الطيب القادري في التقاط الدرر حيث قال : فان كانت هاته هي المتقدمة فانها أثبت . لأنها التي عند صاحب المطمح في بعض تقاييده ، وهو ثبت ..[97] .

على أن املاق والقادري لم ينتبها إلى امكانية كون هاته العملية هي نفس العملية التي تمت ضد العرائش والتي سبقت الاشارة اليها . فقد ذكر المقيد وأبو املاق ان هذه العملية وقعت بعياشة قرب جبل الحبيب بتاريخ 5 رجب 1040/ 7 فبراير 1631 ، بينما يذكر العياشي في رسالته إلى الوليد ، وهي مؤرخة ب 15 رمضان 1040 ما يلي : وقد أشار الكتاب

---

(95) الخبر – ص 39 .

(96) نفسه – ص 27 .

(97) التقاط الدرر – القادري – 17 .

الأسمَى ... إلى تعرف حال هذا الثغر (العرائش)... وقد كيف الله سبحانه وتعالى في غرة رجب (أوائل فبراير 1631) غزوة أسفر فيها وجه الاسلام مشرق الجبين...[98] .

ومن خلال هذا التطابق في التاريخ يظهر أن غزوة عياشة التي ذكر أبو املاق هي نفس غزوة العرائش . ويؤكد هاريسون[99] أن العياشي اصطدم بنصارَى العرائش في تاريخ فبراير 1631 .

وبعد ذلك بقليل غادر جماعة من أهل فاس مدينتهم بقصد الجهاد بتاريخ مارس 1631 وبعد اجتماعهم بجماعة أخرى من المجاهدين ، استقر رأي الجميع على الاستعانة بالعياشي . فكتبوا اليه يستدعونه إلى مكان التقائهم بازغار . والعياشي يومئذ بحوز طنجة لتنظيم عملية ضد المعمورة[100] . غير أن العياشي يماطل في الجواب لأنه كان قد استجمع النية على الاقامة بالفحص الطنجوي . ولم يتوجه إلى لقائهم الا «بعد شقة وناي حي»[101] . ولم يتم الاتصال المنتظر الا بعد حوالي شهر . ويرافق العياشي في انتقاله من الفحص إلى ازغار حناش[102] . ويقرر العياشي استغلال هذا الجاسوس بان أوحَى اليه بحمل معلومات غير صحيحة إلى سكان العرائش من الاسبان . وهذا ما تم بالفعل «فقد ذهب الحناش اليهم ، وكان موثوقا به عندهم .. فقال لهم : ان احياء العرب وحللها قد نزلت بوادي العرائش ، فلو أغرتم عليهم على غفلة لغنمتموهم»[103] وتنجح العملية عندما يخرج اسبان العرائش مبادرين مكثرين . فما شعروا

(98) الخبر — أبو املاق — ص 41 .
(99) دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 132 .
(100) الخبر — 39 .
(101) نفسه .
(102) الحناش حسب الناصري في الاستقصا «الجاسوس الذي يبيع أولاد المسلمين للنصارَى» .
(103) النزهة — الافرني 266 .

إلا وقد أحاط بهم سيدي محمد العياشي ومن معه من المسلمين ، وكان عدد من قتل من الكفار نحو الألف..[104].

وبعد هذه العملية يعود العياشي إلى الشمال حيث يظهر أنه ترك هناك مشاكل معلقة تنتظر حلا. لكن المجاهدين من أهل فاس قرروا استغلال وجودهم لتنظيم غزوة جديدة ، وبعد أن اتجه بعضهم إلى فاس ووصل بذلك خبر الغزوة إلى أسماع كثير من المغاربة ، راسل بعض عظماء الوقت العياشي ، تهنئة له بالانتصار. فقد توصل العياشي برسالة من أعيان فاس وفقهائها والقاضي بالاضافة إلى الشرفاء والعلماء[105].

كما وصلت إلى العياشي في الموضوع قصيدة مدح من نظم محمد بن أحمد المكلاتي منها في المطلع :

ثغر العرائش ضاحك مستبشر جذلان عن هذي الوقائع مخبر
غاب الرماح تشابكت اغصانها روض المنايا بالجماجم مثمر[106]

كما توصل العياشي في نفس الموضوع برسالة من الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي[107]. أما الذين لم يرجعوا إلى فاس ، فقد اصطدموا صدفة ، ببعض اسبان المعمورة الذين خرجوا من حصنهم بحثا عن الحطب ، فكانت معركة قصيرة على بعد ميلين من المعمورة[108]. اذ لم يشعر النصارى : «حتى صاحبتهم الخيل ، وأحاط بهم المسلمون من كل جانب وقتل من النصارى ستمائة وأسر ثلاثمائة[109]. وذلك في شهر مايو 1631 والأرقام دون شك مبالغ فيها.

---

(104) النزهة 266.
(105) وردت الرسالة في الخبر ص 29 موقعة باسم المكلاتي. ووردت في كناشة رقم ك 938 بتوقيع مجموعة من رجالات فاس.
(106) انظرها في الخبر ص 31 وما بعدها.
(107) الخبر - ص 34.
(108) دي كاستري - ابريطانيا 3 : 134.
(109) الخبر - ص 33.

وفي رسالة العياشي إلى الوليد يقول : وكتبنا هذا ومضارب المجاهدين بمشرع الرملة يرقبون انتهاز فرصة في العدو[110] .

ولم يكتف المجاهدون بهذا النصر بل أرادوا استغلاله ، فلاحقوا المنهزمين إلى حصن المعمورة . وينضم اليهم العياشي بعد عودته من الشمال .. ولما رجع وأعلم بضعف من بقي في الحلق «حتّى أنه لم يبت في الحلق تلك الليلة إلا نحو 40 رجلا»[111] وقد وصلت أنباء هذه المعركة أيضا إلى محمد بن أبي بكر الدلائي الذي يكاتب العياشي ، فيجيبه : وقد سمعتم — رضي الله عنكم — خبر هذه الغزوة التي كيفها الله على المعمورة ... وقد قوى الأمل في الله ... ان تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها ، فالمسلمون نازلون الان بعقر دارها ، ومرسلون الصواعق على أسوارها[113] .

ويظهر أن خلافا نشب بين المجاهدين في مسألة الحصار ، خصوصا وان البعض رأى استحالة أخذ الحصن ، وان المغاربة قد تضرروا من طول فترة الحصار ، بالاضافة إلى ما يصيبهم من نار الحامية . فتقرر الاتفاق على الافتراق ، ورجع كل إلى حيث أوطن .

ولهذه المعركة أهمية سياسية كبيرة ، فهي تشكل أوج الحركة الجهادية للعياشي ، فبهذا الحدث همم المغاربة واجتمعوا حول العياشي . غير أن ذلك الاجتماع لم يكن كافيا . وهذا ما يؤكده العياشي عندما يقول في رسالته لمحمد بن أبي بكر «والمسلمون نازلون الان بعقر دارها ... حتّى ياذن الله ... ببوارها ... وعودها إلى ملك الاسلام ، هذا الذي انعقدت عليه

(110) الخبر — ص 40 .
(111) نفسه — ص 34 .
(112) أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي ، فقيه عالم ، درس على عبد الرحمن الفاسي ، وتوفي 1631/1041 . حاول نظم قصيدة تاريخية في الوفيات لكنه لم يتمها كما ألف مقالة في مدح محمد بن أبي بكر الدلائي سماها . المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية .
(113) الخبر — ص 35 .

النية ... لكن يا سيدي .. أين المساعد والأمر لا ينهض به الواحد»[114]
وبنهاية عملية الحلق الكبرى في ماي 1631 ، تنتهي الفترة الثانية من فترات الحركة العياشية . وأهم ما يميز هاته الفترة هو دوران كل الأحداث فيها حول محور واحد هو الجهاد : فالعمليات هي جهاد ، والاتصالات تجري لتسهيل الحصول على السلاح كوسيلة للجهاد ، والمراسلات تدور حول موضوع الجهاد ، والمشاكل التي يصادفها العياشي عند القيام به . والحركة على العموم تلقى الدعم الواضح من القوى المعبرة عن القاعدة الشعبية والمتمثلة في رجال الدين .

ويتركز مفهوم الدعم الذي نقصد في 5 رسائل تبودلت بين بعض شخصيات الوقت ، حول العياشي أو بين تلك الشخصيات وبين العياشي ، وتشكل هاته الرسائل حلقات تطور ، تبدأ بالحديث — مع التعميم — عن حالة البلاد ، لتصل في الأخير إلى التركيز على أهمية العياشي . أول هذه الرسائل رسالة محمد العربي الفاسي إلى محمد بن أبي بكر الدلائي . وتدور الرسالة حول أربعة أفكار : أولاها الحديث عن ضعف المسلمين نتيجة اختلافهم وافتراق كلمتهم في الوقت الذي يظهر فيه النصارى بموقف القوة ، والثانية توقف المغاربة عن أي رد فعل أمام خطر الوجود الأجنبي ، والثالثة سكوت الناس عن الحديث في هذا الموضوع مع ما فيه من خطورة ، والرابعة ان غاية الكتاب هي تنبيه الشيخ إلى خطورة ما يقع[115] .

أما الرسالة الثانية فهي رد فعل الشيخ محمد الدلائي ، وهي رسالة موجهة في الظاهر إلى العياشي ، ولكنها تخاطب القبائل التي تتبع العياشي

---

(114) نفسه .

(115) الرسالة في الخبر — ص 17 . أما باقي الرسائل المشار اليها فهي كلها في الخبر في الصفحات 18 — 21 — 28 — 34 .

فيما سار إليه من جهاد ، حيث يخاطب الدلائي في تلك القبائل شعورها الديني ، مؤكدا على أهمية الجهاد . ثم يتخلص إلى الحديث عن العياشي وعن أهمية الدور الذي يقوم به مستغربا عدم قيام تلك القبائل بحق الطاعة للعياشي رغم أن العادة جرت بتقديم من ظهرت شجاعته ووجاهة رأيه وكثرة جوده وتدينه ، وهي صفات اجتمعت كلها في العياشي .

ويظهر أن هذا الخطاب الغير مباشر للقبائل لم يفد . فيوجه محمد بن أبي بكر الدلائي رسالة ثانية إلى أحد رجال الغرب ممن له على قبائله رئاسة دينية . ويظهر من الرسالة وكان هناك حواراً بين الشيخ وبين القبائل ، ففيما يتعلق بتقديم العياشي ، يركز الشيخ على رتبته في التصوف رابطا بينه — بحبل متصل — وبين محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات . وفيما يتعلق بالفرق بين حالة الطاعة للعياشي ، وحالة رفضها يوضح الدلائي ان ما كانت عليه القبائل هو.. عصيان وتمرد على الله تهد منه الجبال وتتزلزل منه الأرض . وفيما يتعلق بنهي القبائل عن قطع الطرق والظلم ، ففيه صلاح الدنيا والمعاش ، في حين أن دفع الزكاة والاعشار هو من باب أركان الاسلام التي لا يتم الدين الا بها . ويزيد مؤكدا أن العياشي صرفها في مصرفها الشرعي . ويختم الرسالة مؤكدا على أهمية الجهاد مبالغا في وصف خطورة الوجود الأجنبي ، مقارنا بين دخول الاسبان المغرب ، وبداية مهاجمتهم للمسلمين بالأندلس .

أما الرسالة الرابعة فهي من محمد بن أحمد المكلاتي إلى العياشي ، وهي تعبير عام عن شعور الفرح الذي أخذ يعم كثيرا من المغاربة ان لم يكن كلهم بعد الانتصارات التي حققها المجاهدون . وتظهر هاته الرسالة كنتيجة طبيعية للحث على الجهاد الذي اهتمت به الرسالات السابقة . في حين أن الرسالة الخامسة — وهي من العياشي إلى محمد الدلائي — هي تعبير عن النتيجة النهائية للمحاولات السابقة .. فالعمل الجهادي مستمر ،

والدعم موجود ، ولكن ذلك كل لا يكفي . فالمشكلة بالنسبة للعياشي ليست مشكلة تطوع للجهاد . أو حث عليه . بل هي مشكلة وجوب النظر إلى أساس الضعف ، وهو افتراق الكلمة . لذلك تبدأ حلقة جديدة من حلقات الحركة ، يبتعد فيها العياشي عن الجهاد إلى حد ما . محاولا التفرغ لجمع الكلمة .

المرحلة الثالثة 1630 — 1641

تنطلق احداثها من قضيتين : ملاحظة العياشي عدم كفاية امكانياته البشرية التي يقلل منها افتراق كلمة المغاربة وتشتتهم فرقا وشيعا . وثانيا وصول الوليد بن زيدان إلى الحكم بعد مقتل أخيه عبد الملك في سنة 1631 . كشخصية لها اعتبار خاص في باب العلاقة مع العياشي . ذلك أن الوليد بن زيدان كان قد ثار هو وأخوه أحمد ضد أخيهما الثالث عبد الملك عقب وفاة زيدان ، وينهزم الوليد أمام أخيه ، ويلجأ إلى سلا حيث يحسن العياشي استقباله ويقيم عنده مدة سنة 1627 . ويظهر أن الصحبة التي جمعت بين الرجلين ، ومكانة العياشي في منطقة سلا ، جعلت للعياشي بعض الدالة على الوليد أو قل جعلت العياشي ينجح في اقناع الوليد بضرورة الجهاد . وبمجرد استقرار الوليد في عرشه بمراكش يوجه إلى العياشي رسالة في بداية عام 1631 يخبره فيها بوصوله إلى السلطة ، فيستغل العياشي فرصة اجابته على هاته الرسالة ليعظ صاحبه ، ويظهر له المنهاج الذي يجب أن يسير عليه في حياته الخاصة وفي معاملاته مع الناس وفي اختيار بطانته . ويختم رسالته بالتأكيد على ضرورة القيام بالجهاد[117] .

وواضح أن هذه الرسالة معاصرة لموقعة المعمورة التي يؤكد العياشي عقبها ... «اين المساعد والأمر لا ينهض به الواحد ، المسلمون لا يتفق لهم

---

(116) رسالة العياشي الى الدلائي — الخبر 34 .

(117) انظر الرسالة في الخبر — ص 36 .

رأي ، ولا يثبت لهم حفظ لحمَى الاسلام .. حتَّى ان افتراق كلمتهم اضر على الاسلام من اجتماع عدوه[118] . أي أن عرض الوليد بالاهتمام بالجهاد أتَى في الوقت الذي كان العياشي يبحث فيه عن كيفية لاعطاء دفعة جديدة للجهاد . وكان من المنتظر اذن أن يخاطب العياشي السلطان السعدي ليظهر له الكيفية التي يراها هو مثالية للوصول إلى الهدف ؛ وتعتبر هاته الرسالة على جانب كبير من الأهمية : فهي أولا توضح للوليد الكيفية التي يجب أن يسير عليها ليضمن طاعة الرعية ، ويفهم من ذلك أن العياشي يؤهل الوليد لاحتلال منصب سلطان على كل البلاد . وتستمر الرسالة متبعة خيطا واضح المعالم . فهي تبدأ بتوجيه نظر الوليد إلى الاعتناء بتقوَى الله ، واذا كانت التقوَى المطلوب الذي يطلب به — من المكلفين ، على الوجوب — كل انسان ، فمَنْ ولاَّه اللهُ أمرَ بلادِه واسترعاه — سبحانه — على عباده ، يعمه في ذلك في حق نفسه ما عم غيره ، ويزيد بتكليف النظر فيما ولي أمره .

ثم ينتقل من التجريد إلى التذكير بضرورة العدل ... فهناك المسلمون في ظل أمنه يستريحون ، ومن كنف عدله لا يبرحون ... ثم ينتقل إلى وجوب الاهتمام بدين الناس ،... فليبلغ غاية مجهوده في حَمْلِهم على القيام بحقوق الله ، ومنها الجهاد ، وهو ... مما اشتهر وجوبه اشتهار النهار .. وهو فرض كفاية ان لم ينزل الكفرة دار الاسلام اما وقد نزلوا الثغور .. فلا يمتري في تعيين فرضه .. والخطاب بذلك يعم الأمة ويخص بالتعيين الأئمة ..

والظاهر أن الوليد بن زيدان لم يحترم قط توجيهات العياشي ، وبذلك بقيت قضية قلة امكانيات الجهاد موضوعة ، بل تضايق من الوليد ، فكان من الضروري أن تنطلق عمليات جديدة ، اهتمامها موجه إلى الوضع السّياسي قبل الجهاد .

---

(118) الخبر ص 35 .

وأول انطلاقة لهاته العمليات كانت في فاس . ففي بداية 1631 ، قرر أهل فاس خلع بيعة الملوك السعديين وكاتبوا في ذلك العياشي ، لاخباره بما تم ، ولعرض التبعية عليه ، فيقبل العياشي العرض ، ويستشهد على صحة ما قام به أهل فاس بمكانة المدينة في المغرب كمركز للعلماء العارفين بالشريعة . ويظهر ان هذه البيعة كانت على شروط قبلها العياشي ، ورغم اننا لا نتوفر على لائحة تلك الشروط فهي عموما تدور حول القيام بالواجبات الدينية التي يفرضها الوضع .

وتشكل هاته النقطة بالطبع مشكلة يجب أن تعرض على المغاربة لاعطاء رأيهم فيها ، مع ملاحظة أن المنطلق لم يكن ينتظر الا القبول . وفي هذا الصدد يوجه العياشي رسالة إلى مكناس بتاريخ 15 جمادي الأولى 1041 ، يبلغ سكانها فيها قراره بعقد اجتماع عام يتبين فيه من سار سيرة أهل فاس عمن سار عكسها . وكانت طريقة الاستفتاء من البساطة على قدر كبير : فمن حضر الاجتماع كان معنّى حضوره الموافقة ومن امتنع عن الحضور كان كمن لم يعد له في جماعة المسلمين مشاركة . وقد حضر سكان مكناس الاجتماع ، وأثبتوا بذلك انضواءهم في ذلك الائتلاف ، واختاروا منهم شريفين يسيران أمورهم باسم العياشي ، ويحاربون المنحازين عن الائتلاف ليجبروهم بالقوة على الدخول فيه . وفي نفس الوقت يرد على العياشي وفد من قبائل الشاوية تعرض عليه التبعية ، الشيء الذي شغل العياشي عن تلبية استغاثة أهل فاس به للقضاء على بعض من رفض الدخول في الائتلاف من بعض القبائل المجاورة لفاس . وينظم العياشي في نفس الوقت عملية انقلاب ضد عبد الله النقسيس الذي رفض — فيما يظهر التبعية للعياشي . وينجح الانقلاب حيث يستقر في حكم تطوان — باسم العياشي — المقدم أحمد بو علي والمقدم سليمان بن يوسف[119] .

ويصف العياشي العملية بانها تُحكِّم «أيدي أنصار الدين في البغاة

(119) وثائق دي كاسترى — ابريطانيا — 3 : 54 .

المفسدين» غير أن تبعية تطوان للعياشي لم تكن دون مشاكل : اذ أن المدينة كانت تعرف تيارين سياسيين متعارضين احدهما لصالح العياشي ، والاخر ضده . وإذا كانت عملية 1041 قد انتهت بانتصار انصار المجاهد ، فان ذلك الانتصار لم يكن نهائيا ، وظلت بعض الفئات من المعسكر المعادي تنتقم كلما استطاعت من انصار المجاهد مثلما وقع في قضية تمت بين أحد الشرفاء والقاضي[120] وهو محمد بن أحمد طانية[121] . أو مثلما وقع من اهمال أهل تطوان لانصار العياشي المرابطين قرب المدينة[122] .

وبعد الاطمئنان على تبعية المراكز الرئيسية في شمال وغرب البلاد ، يوجه العياشي اهتمامه إلى أقصَى الجنوب ، ربما للبحث عن حليف قوي في شخص أبي حسون السملالي ضد السعديين. وفي هذا الصدد يوجه العياشي رسائل إلى سيدي علي بواسطة الانجليزي هاريسون بتاريخ 1631[123] .

ويظهر من خلال تقرير هاريسون أن المراسلات كانت تدور حول موضوع توحيد البلاد ومحاربة الاسبان . ويظهر كذلك أن هاريسون قد قام بمهمته وأوصل الرسائل إلى أبي حسون رغم الصعوبة التي يمكن أن يكون قد تعرض لها للاتصال به في أغادير ، ذلك أن أغادير لم تكن خاضعة في هذا الابان للسملالي[124] ، اذ نعثر على اشارة من مصدر اخر تثبت وجود تحالف بين العياشي وأبي حسون[125] .

---

(120) الخبر — ص 64 .
(121) تاريخ تطوان — م1/ ق 2/ ص 279 .
(122) الخبر 65 .
(123) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 129 .
(124) الغ — المختار السوسي — ص 150 .
(125) وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة — 4 : 488 أو في اليغ ص 288 .

أما ازاء القوَى السياسية المتمركزة في وسط البلاد ـ أي أهل الدلاء ـ فالظاهر أن رئيس الزاوية في هذه الفترة ـ محمد بن أبي بكر الدلائي ـ لم يتخذ موقفا معينا من التصرفات العياشية الجديدة ، وان كان من الممكن القول بأن محمد بن أبي بكر لم يكن راضيا عن تصرفات المجاهد . وهذا ما يشتم من انقطاع الاتصال بين الرجلين ما بين 1631 و1637 . بل يمكن تأكيد عدم الرضا هذا من خلال قول محمد بن أبي بكر عندما وصلته هدية من العياشي : ما هذه هدية الفقير للفقير. وباستمرار الأوضاع على هاته الصفة ، انقسم المغرب الواقع شمالي الأطلس الكبير إلى ثلاث مناطق نفوذ : الدلائيون في الوسط ، والسعديون بمراكش واسميا إلى جنوب أم الربيع ، والعياشي في الغرب والشمال الغربي وتامسنا. ويظهر ان كل طرف من الأطراف المتقاسمة حكم البلاد ، اهتمَّ بالنظر في مشاكلها الداخلية ، مع رغبة كل طرف من تلك الأطراف في المحافظة على توازن القوَى . فنجد محمد الحاج ـ الذي ترأس الزاوية بعد وفاة والده 1636 ـ يقدم المساعدة للعياشي في عدَّة مناسبات ، بعضها للقضاء على عصيان شراقة والحياينة 1638[126] . وبعضها الاخر لمنع وصول القوات السعدية إلى نواحي أبي رقراق ، حيث وجه محمد الشيخ قواته للقضاء على النزاع القائم بين العياشي وسكان الرباط (يونيه 1637) الا أن تحالف العياشي ومحمد الحاج عاق تقدم القوات السعدية التي لم تتجاوز فضالة بعد أن بدد الحليفان المزروعات وقطعا بذلك المؤن عن الجيش السعدي[127] . وبذلك تفرغ العياشي لتنظيم المنطقة التابعة له ، كمرحلة أولى تمكنه من التوفر على القوة اللازمة للتفكير في توحيد البلاد .

الأنشطة الداخلية : تنمية المداخيل

كانت المشكلة الرئيسية بالنسبة للعياشي ـ كما هو الحال بالنسبة لكل

(126) الخبر ص 70 .
(127) وثائق دي كاستري ـ فرنسا 3 : 541 .

القوَى السياسية التي عاصرته– مشكلة عتاد وأسلحة . وكانت الوضعية الصناعية للبلاد تجعل مورد السلاح الوحيد هو أروبا . وفي هذا الاطار كان على العياشي أن يسهل المعاملات الاروبية في منطقة نفوذه ليستغل تلك المعاملات للحصول على سلاح ، وليجعل منها طريقا لانعاش الاقتصاد المغربي .

وإذا استثنينا اسبانيا التي كانت علاقتها بالمغرب ذات طابع خاص ، فان باقي الدول الاروبية كانت مؤهلة للتعامل مع المجاهد ، وكانت المعاملات المهمة تتعلق بكل من فرنسا وابريطانية وهولندة .

وكان على العياشي لتأمين وجود معاملات ، ثم للاحتفاظ باستمرارها ، ان يعمل قبل كل شيء على تأمين المنافذ بالحصول على الموانئ . وقد رأينا أن عملياته ضد الموانئ المحتلة من طرف الايبيريين لم تأت بأية نتيجة واضحة في هذا الباب . فكان على المجاهد أن يعمل للحصول على تبعية كل من تطوان ومصب أبي رقراق .

وقد رأينا كيفية ضم العياشي لتطوان ، وسنتطرق إلى المصاعب التي صادفت رغبته في الحُصول على الرباط ، ونكتفي هنا بالقول بأن العياشي حصل على حق استعمال الضفة اليمنَى لمصب النهر .

بدأ العياشي اذن سياسته الانفتاحية بتأمين المنافذ على البحر ، وكان عليه بعد ذلك أن ينافس باقي الأقاليم المغربية التي لها علاقة بأروبا ، ومنها منطقة سوس بمينائها الذي كانت له شهرة خاصة : ماسة ، ومنطقة عبدة ومنفذها الرئيسي : أسفي . وكان عليه لدخول ميدان التنافس بحظوظ كبيرة للنجاح أن يمارس دعاية لصالح المنطقة التابعة له وقد بدأ تلك الدعاية بتسهيل تحركات أحد الانجليز : هاريسون[128] .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن الرغبة في التعامل لم تكن تقتصر على

(128) وثائق دي كاستري – ابريطانيا – 3 : 44 و129 .

العياشي وحده ، فأروبا بدورها ترغب في ذلك التعامل . وفي اطار تلك الرغبة توجه دول أروبا الغربية الثلاث ممثلين عنها إلى المغرب . وكانت تلك الرغبة نابعة من أربعة دوافع : تحرير الأسرَى – التضييق على القراصنة ومحاولة القضاء على نشاطهم – ممارسة التجارة العادية – الاستفادة من المغرب في الحروب الواقعة بين بعض الدول الاروبية .

ويظهر ان منطقة نفوذ العياشي كانت مؤهلة أكثر من غيرها لتحقيق ثلاثة من الأهداف التي تسعَى إلى تحقيقها أروبا : تحرير الأسرَى – مضايقة القراصنة – المشاركة في الحروب الأروبية . ذلك أن منطقة نفوذ المجاهد بقربها من مصب أبي رقراق وتطوان . منطقة تغص بالأسرَى من مختلف الجنسيات . ثم ان العلاقات التي تربط بين المجاهد وبين سكان الرباط – وهي علاقات ليست طيبة على الاطلاق – تجعل من تعامل أروبا مع المجاهد وسيلة لحصولها على حليف قوي ضد القراصنة . وهذا ما سنراه يتم فعلا عندما يتحالف العياشي مع أسطول انجليزي لمحاصرة الرباط .

ومن جهة ثالثة كان اعتبار العياشي ممثلا لحركة جهاد موجهة ضد اسبانيا بالأخص ، يجعل منه الحليف المثالي بالنسبة لابريطانيا التي كانت في حرب مع الاسبان في هذه الآونة (1630) .

وقد كانت كل هاته الاعتبارات سببا في وقوع تقارب كبير بين المجاهد والانجليز توجته اتفاقية 1646/1637[129] .

غير أن الاستفادة من هذه الاتصالات كانت تقتضي استمرار توفر استقرار سياسي في كل المنطقة ، وما كان هذا ليتم الا بمحاربة المناوئين للحركة ، فنظم العياشي عمليات ضد الرباط : 1631 – 1632 – 1636 – 1637 . وعمليات ضد الحياينة وشراقة في 1638 .

---

(129) نفسه – ابريطانيا – 3 : 285 .

وفي نفس الوقت كانت السلطة السعدية بمراكش تعمل بدورها على اجتذاب اهتمام أروبا فقد سهل الوليد بن زيدان وبعده محمد الشيخ الأصغر التقارب الانجليزي السعدي بما سهلاه من عمليات تحرير للأسرى[130]. الشيء الذي جعل اهتمامات الانجليز تتجه إلى مراكش (1631 و1637)، وتنهار بذلك أسهم التعامل بين الانجليز والعياشي.

وفي نفس الوقت كانت مراكش تمارس دعاية نشيطة ضد العياشي، تظهره كرجل «.. كانت همته هجرته أولا لردع ملة أهل الشرك، ثم مد الخطا لطلب درجة الملك»[131]. وعملت هذه الدعاية عملها في انفس كثير من اتباع العياشي الذين بدأوا يفكرون في طبيعة هذه الشخصية التي لم يعد اهتمامها موجها بالدرجة الأولى نحو الجهاد.

فكان على العياشي أن يمارس عملا ما يرجع له شعبيته التي بدأ يفقدها، وفي نفس الوقت للرد على التحرشات السعدية بمراكش. فما هي السياسة الجديدة التي اتبعها العياشي؟

الفكرة الرئيسية في هذه السياسة هي الخروج عن الاتفاق الضمني المذكور فيما قبل والذي مؤداه احترام الوضعية كما هي. فقد رأى العياشي أنه لا يمكن لحركته أن تستمر امام عمليات السعديين، فقرر توحيد البلاد مع التخلص من الوجود السعدي الذي لم يعد دوره يزيد على التمسك بعرش متداع للانهيار. وفكر العياشي —لتحقيق هاته السياسة— في الاستعانة بمحمد الحاج.

رأينا قبل التقارب الذي تم بين العياشي ومحمد الحاج، ورأينا أن ذلك التقارب اتخذ إلى حد ما شكل تحالف ضد السعديين. ويذكر الدلائي في رسالته إلى العياشي ان هذا الأخير «قد ندبنا (أهل الدلاء) إلى

(130) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 174.

(131) من رسالة السعدي الى الدلائيين — النزهة — 252.

احراز هذه الفضيلة (؟)... غير أنكم... اعرف بهذا الامر ومسائله ،... واعلم بحقائقه ومخائله ... ونحن ان تقدمه السيد امامنا ... اجبنا دعوته ، وانتهجنا بغيته ... واعملنا في ذلك الركاب ، ونبذنا الشواغل عنه والأسباب ...[132] . فما هي تلك الفضيلة التي يشير إليها محمد الحاج ؟ يظهر من السياق أن الأمر يتعلق بمسألة انجاد أهل فاس المستغيثين بالعياشي . غير أن الأمر أعمق من مسألة انجاد . اذ أن أي عمل من هذا القبيل يعني التدخل في اختصاصات السلطة المركزية المسئولة عن اقرار الأمر والقضاء على اسباب الاضطراب ، وان مسايرة الدلائي للعياشي تعني اتفاق الطرفين على النظر في أمور المغرب الشمالي . وان أسلوب الرسالة المتميز بكثير من الغموض وربما الرمزية يوضح ان الأمر أعمق من انجاد .

فما هو موقف مراكش من هذا التقارب ؟

شعر محمد الشيخ الأصغر بخطورة التقارب بين العياشي وأهل الدلاء ، وقرر وضع حد لتصرفات الطرفين ، أو على الأقل توضيح الغموض الذي يطبع علاقاتهما . وهكذا نرَى محمد الشيخ يراسل «ملوك الجبل» محاولا في المناسبة الأولى التجسس للتعرف على قوة خصمه ، فبعث خديمه مبارك السوسي لتشييد ضريح محمد بن أبي بكر . ولا شك أن العملية كانت أهم من اعتناء السعديين باظهار اعجابهم بمحمد . وهذا ما أظهره محمد الحاج عندما رأى أن الشيخ السعدي اغتر بما وصفه له مبعوثه . فهو يقول «لا شك أن حال مطالعته (مبارك السوسي) هي التي ارخصت لنا في سوق خواطركم الاسعار... وجد قبائلنا متبددة في ضم حبوب الصيف ، واعيانهم مغتدين على الخيول بدون رمح ولا مدفع ولا سيف فخالهم — على غرة — غنيمة باردة» .

ويظهر أن ظن محمد الحاج كان في محله وان محمد الشيخ ظن أن أهل

---

(132) من رسالة محمد الحاج الى العياشي — في الخبر — ص 70 .

الدلاء عاجزون عن الوقوف في وجهه ، فيراسلهم سنة 1638 ليوضح لهم أنه يعتقد أن تحركهم بدفع من العياشي « .. وكنتم لا تدرون لباس القمص ولا الشواشي ، إلى أن جسركم على وطء الغرب المغتر العياشي ..»[133] . وليظهر لهم عدم استعداده لتقبل الاهانات من مختلف الجهات «ولا يسعنا ان ندركم – مع أشراف سجلماسة ، مع بني موسَى – تلعبون بنا كهر الغالية في القفص ..»[134] ثم يوضح في الاخير مشروعه ازاء الدلائيين قائلا : «وحتّى الان دعوناكم لعقد البيعة .. وان امسكتم اقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد .. فاذنوا بحرب من الله ورسوله ..»[135] .

والظاهر أن أهل الدلاء أمسكوا اقدامهم فعلا عن سلوك سبيل السداد . وان محمد الشيخ الأصغر لم يجد بدا – بعد أن بلغ من توتر العلاقة بينه وبين الدلائيين من التوتر ما بلغ – من الدخول في حرب ضدهم في موقعة أبي عقبة سنة 1638 التي انتهت بانهزامه .

وان السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : ما الذي منع محمد الحاج من استغلال هذا الانتصار للقضاء نهائيا على الوجود السعدي ؟

هل كان ذلك لتيقن الدلائي من عدم وجود وجه للاستفادة من ذلك الانتصار النهائي ؟ أم أنه كان يتخوف من الاصطدام بالرأي العام الذي كان يرَى في السعديين – رغم اخطائهم – ممثلين لعنصر الشرف ، ويجب لذلك توقيرهم ؟

قد تكون كل هاته الاجابات صحيحة ، الا أنها لم تكن كافية لاقناع العياشي بوَجَاهَة الموقف الدلائي ، بل ان العياشي رأى في تصرف محمد الحاج وجها اخر للسياسة الدلائية التي تريد أن تتستر دائما وراء السعديين

---

(133) من رسالة الشيخ الى الدلائيين – النزهة – ص 248 .
(134) النزهة – الافرني – ص 248 .
(135) من رسالة السعدي الى الدلائيين – النزهة ص 250 .

لتغطية بعض تصرفاتها ومن تلك التصرفات بداية تفكير الدلائي في التخلص من العياشي.

وهكذا تشهد سنة 1638 تطورات كبيرة في السياسة العامة للقوَى المتنافسة وتتمثل هاته التطورات في التقارب الذي وقع بين محمد الحاج ومحمد الشيخ السعدي. وإذا كان هذا التقارب مستغربا بعد تواجه الطرفين وتحاربهما، فانه شيء وقع وتؤكده المراسلات التي دارت بين العاصمتين: الدلاء ومراكش[136].

أما من جهة العياشي فان التطور يتمثل في التقارب الذي سعَى المجاهد إلى اقامته مع أبي حسون السملالي في اطار عمله على خلق التوازن المفقود مرة أخرى، وفي اطار تسهيل حصوله على السلاح، بل ربما للبحث عن حليف يمكنه موقع ممتلكاته من التضييق على اعداء المجاهد من الخلف.

وكان على العياشي –من جهة أخرى– ان يمارس عملا عسكريا ما يعيد له بعض الشعبية، وان يكون ذلك العمل جهادا. ولذلك نراه ينظم عملية جديدة ضد البريجة فقد توجه العياشي إلى ناحية أزمور لقطع الطريق على مبعوث اسباني إلى السلطان السعدي، في اطار اتصالات الملك السعدي مع الدول الاروبية لتقوية موقفه العسكري والسياسي. واستغل العياشي تلك الاتصالات لنشر دعاية مفادها ان أم الشيخ الأصغر –وهي مسيحية الأصل– تدفعه إلى اعتناق المسيحية، وربما ترغبه في ارغام المغاربة على دخول المسيحية (؟)[137]. لكن العياشي لا ينجح في التعرض للمبعوث، فيقرر استغلال وجوده في المنطقة لتنظيم عملية ضد البريجة.

ترَى النزهة ان العياشي «.. قضَى وطره في العرائش، ثم تحرك للبريجة، وكان ذلك في رابع صفر 1049..»[138]. ويوافق التاريخ

(136) الخبر عن ظهور العياشي – ص 77 و81.
(137) وثائق دي كاستري – 3: 197 و198.
(138) النزهة – الافرني – 270.

المذكور 6 يونيه 1639 في حين أن المتداول ان غزوة البريجة كانت بتاريخ 11 أبريل 1640 ، ويوافق 19 ذي الحجة 1049 [139] . وعلى ذلك يمكن تتبع مراحل العملية كما يلي .

يطول مقام المجاهد في ناحية أزمور ليتعدّى 11 شهرا فيقرر مهاجمة البريجة ويستعمل الطريقة التي أتت اكْلها في العرائش فيبعث جواسيسه إلى البريجة . ويغتر قائد البريجة البرتغالي ، فيخرج في قواته التي أبت في البداية الخروج من الحصن محتجة بان في الأمر مكيدة . وبعد خروج القائد ، يظهر العياشي وكأنه يتراجع بشكل يغتر به البرتغالي القليل التجربة ليلاحق القوات المغربية . فيكر العياشي بكل قواته على البرتغال .. ومن أفلت من القتل بالسيف مات غرقا ، ولم يسلم من الموت إلا 27 فردا .. [140] وكان من بين القتلى قائد البريجة

Fransisco Mascarenhas — Conte de Castillo Novo

وتعتبر غزوة البريجة اخر اشهر عمليات المجاهد ضد الأجانب ، اذ تخلو المراجع من أية اشارة إلى حركة من هذا القبيل قام بها العياشي .

وانطلاقا من تاريخ غزوة البريجة تدخل الحركة العياشية في مرحلة جديدة كانت نهايتها نهاية العياشي .

نهايـة العياشـي :

ابتداء من 1638 بدأت الحركة العياشية تعرف بعض الضعف ، وتعرض المجاهد لعدة هزائم على يد أحمد بن زيدان [141] . ولم تعد الحركة تعرف النشاط السياسي والعسكري الكثيف الذي عرفته طيلة الربع قرن السابق .

---

(139) Un document portugais... R. Ricard — P II

(140) النزهة ص 271 .

(141) وثائق دي كاستري — فرنسا 3 : 585 .

وأغلب الظن أن تقدم عمر العياشي ـ الذي بلغ في هذا الابان ستا وستين سنة ـ ليس له كبير أثر في تفسير بداية ضعف الحركة ، مع اعتبار ما لهذا العامل من أهمية في تفسير تباطؤ الحركة العملية للعياشي ، مع ما لسرعة الحركة من أهمية في الوقت الذي أصبح فيه العياشي يصطدم بالمعارضة ثم المضايقة وأخيرا المحاربة من طرف قوَى سياسية متعددة . على أن عامل تقدّم سن العياشي يبقَى مع ذلك عاملا ثانويا ، ويجب البحث عن عوامل تسرب الضعف إلى الحركة في جوانب أخرَى سياسية واقتصادية .

قد تطرقنا في باب سابق إلى القول بوجود ثلاث قوَى سياسية : السعديون وأهل الدلاء والعياشي ، وذكرنا أن نوعا من التعايش كان قائما بين القوَى الثلاث ، كما ذكرنا ان العلاقة بين مختلف تلك القوَى ، كانت مبنية على كثير من الغموض بحيث لا يمكن التعرف على علاقة كل قوة منها بالباقي . ويظهر أن محمد الشيخ الأصغر حاول التخلص من هذا الغموض ، وعمل على توضيح نوعية العلاقة المذكورة . وفي اطار هذا التفكير لاحظنا توجيه السعدي لبعض خدامه إلى الدلاء ، كما تطرقنا إلى كيفية توتر العلاقة بين الطرفين توترا أدَّى إلى قيام الحرب بينهما ، ولا ندري السبب الذي جعل العلاقة بين الدلائي والسعدي تتخذ الصفة الحسنة ، فيظهر أن الطرفين اتفقا على أن يلتزم الدلائيون باحترام الوضعية كما هي والاعتراف بالسلطة الاسمية لسلطان مراكش . فلم اتخذ الدلائيون هذا الموقف ، وامتنعوا من الاستفادة من انتصارهم .؟

لقد مكنهم انتصارهم من الفرصة التي تشكل ـ نظريا ـ بداية القضاء على السعديين واقامة دولة جديدة على رأسها أهل الدلاء . لكنهم تورعوا عن كل عمل من هذا القبيل . ولا نتوفر على ما يمكننا من اصدار جواب شاف ازاء هذه التساؤلات . وكل ما يمكن تقديمه لا يزيد على افتراضات

لا يمكن تحديد نصيبها من الصحة أو مطابقتها للواقع . فالظاهر أن موقف الدلاء من محاولات التهديد التي مارسها ازاءهم محمد الشيخ في البداية كانت محط الاستهزاء والاستصغار ، حتّى أن الدلائيين رأوا انه بمجرد وصول «.. المسطور الأحرش (رسالة محمد الشيخ) كادت الحبالى تسقط المشائم فضلا عن الجنين.. اسمعتنا غرائب.. لو صدح بها على جبانة لنهض أهل المقابر»[142] . ولم يتغير موقف الدلائيين من تهديدات مراكش . واستطاعوا بسهولة الانتصار على الجيش السعدي سنة 1638 .

وبذلك «انقطع نظر السعديين عما شمله نفوذ الدلائيين من البلاد»[143] . واكتفَى كل من الطرفين بما تحصل له من أقاليم : فاقتصر نفوذ الدلائيين في غرب المغرب على ما يقع شمال أم الربيع — مع اعتبار تبعية الجهات الغربية للمنطقة للعياشي— في حين ظل حكم السعديين لا يزيد في الواقع على احواز مراكش وان كان يشمل اسميا قبائل عبدة والشياظمة وقسما من دكالة إلى أم الربيع . وظل محمد الشيخ السعدي محل بعض التوقير من طرف الدلائيين . فهل عمل محمد الشيخ على التقرب من الدلائيين الشيء الذي مكنه من اتخاذهم ورقة مهمة في لعبة السياسة آنئذ ؟ أم ان أهل الدلاء هم الذين اتخذوا من ادعائهم التبعية الاسمية للسعديين وسيلة لتحقيق هدف بعيد هو تحقيق وحدة المغرب تحت السلطة الاسمية للسعديين ، والسلطة الفعلية لهم ؟

هذا أيضا ممكن ، خصوصا اذا تذكرنا أن محمد الحاج يعيب على العياشي تصرفاته ويخبره بانه قرر الدفاع عن مصالح السعديين ، وفي نفس الوقت يعلمه بان «.. ابن عم سيدنا أبي القاسم ابن ابراهيم قد توجه إلى الصحراء يلتمس الصلح مع حفيد الشيخ سيدي أحمد بن موسَى .. عسَى

---

(142) من رسالة الدلائيين الى السعدي — في النزهة — ص 251 .
(143) الزاوية الدلائية — محمد حجي ص 154 .

أن يلم بذلك شعث الأمة»[144] .

ان الفكرة في صيغتها المجردة فكرة على جانب كبير من الأهمية . على أن الأحداث التي تلت هاته الاتصالات توضح أن الفكرة لم يكتب لها الاستمرار .

ويظهر ان الفكرة كانت أساسا من العياشي . لكن الاختلاف سرعان ما نشأ بين الدلائيين والمجاهد بسبب اختلاف نظرتهما للأحداث . فمحمد الحاج له نفس الرغبة في توحيد البلاد ، لكنه لا يرَى لزوم القضاء على السعديين ، بل يرغب في استبقاء هذه السلطة ، لتشكل مركز استقطاب تلتف حوله جميع القوَى الجهوية اما العياشي فكان يرَى هو الاخر توحيد البلاد ، لكنه كان يرَى من الضروري البداية بالسعديين الذين يشكلون ـ في نظره ـ أهم عائق لتحقيق التوحيد ، خصوصا وقد ثبت لديه ما يتم بين أحد ملوك السعديين وبين اسبانيا من مراسلات زادت الاسطورة فيها كما أشرنا إلى ذلك . ومن هنا نشأ الخلاف بين العياشي وبين محمد الحاج الدلائي ، وكان الخلاف في الأصل اختلافا في وجهات النظر ، لذلك لم يأبه به العياشي وسارع إلى تنفيذ برنامجه . وقد وافته الفرصة عندما نظم حملة البريجة ، التي انتهت كما رأينا بانتصار رد له بعض الشعبية ، وقرر الاستفادة من هذه الظروف لمهاجمة القبائل الواقعة جنوب الجديدة والتي هي تابعة اسميا لمراكش ، وذلك أواسط 1640 . ويظهر أن العملية أقلقت محمد الشيخ الأصغر ، خصوصا وانه كان متيقنا من عجزه عن الوقوف في وجه العمليات العياشية . فلم يبق له إلا الاستعانة بمحمد الحاج الدلائي «.. فجعل السيد محمد الحاج يصانعه (محمد الشيخ) ويدافع عنه بلسانه ، ويأمر القبائل بطاعته وهو يؤنسه ولا ينفره ولا يوئسه من مطلوب . ويكاتب العياشي يأمره بالكف عنه ، ولا يعينه على حربه . وبقيا

(144) الخبر ـ أبو املاق ـ ص ص 78 .

على المصانعة والمراسلات واظهار أثر الطاعة بقدر الامكان مدة ..»[145] .

وبعد عودة العياشي من نواحي الجديدة اتجه نحو الجهاد مرة أخرى في المدن المستعمرة[146] بل لم يخف رغبته في ممارسة الجهاد في اقطار سوس[147] وإذا علمنا ان اقطار سوس لا توفر امكانات الجهاد بمعناه الأصلي لخلوها من مراكز أجنبية ، لتيقنا من أن تفكير العياشي كان متجها الى ربط الاتصال مع أبي حسون السملالي ، ما دامت الأحداث الأخيرة قد أظهرت موقف محمد الحاج . ولم يفكر العياشي مثل هذا التفكير الا بعد أن ثبت قدمه في الشمال الغربي في البلاد حيث «.. الملك قد شاع له من المشرب الزلالي ، وطاوعته الأيام والليالي ، وظفر من ضالته المنشودة وبغيته المقصودة بما ابتغى ونوَى ، وقنص من المشارب ما صعب والتوَى ..»[148] .

وما كان محمد الشيخ أو محمد الحاج الدلائي ليسكتا عن هذه التصرفات فقد أوضح محمد الحاج للعياشي استعداده للدخول في حرب ضده وان كان قد أوضح –كعادته– ان ذلك التصرف منه ليس الا للدفاع عن الاشراف . فهو يذكر للعياشي «..وكتبنا اليكم هذا الكتاب . وهو يحتوي على فصلين .. أولها نشر ما نحن عليه من انتظام العقد .. ليعلم بذلك الحاضر والبادئ .. والاخر خطابكم بالاستشفاع للرؤساء والاتباع ، يرتفع بذلك عنا حمل القاطنين ، ونكفي أمر الواردين من السادات الأشراف السعديين ابناء الاجلة الأسلاف ، الذين هم ملوك المغرب وخلفاؤه ، فانهم أرسلوا الينا كتابا أفصحوا فيه بانك ضيقت عليهم وعلى من هو تحت طاعتهم ، وغلبت على القبائل المجاورة وعزمت على استيصال

---

(145) الخبر – أبو املاق – ص 75 .
(146) نفسه ص 81 .
(147) نفسه – نفس الصفحة .
(148) الخبر – ص 82 .

شافتهم ، وانك تريد الجهاد ، وليس قصدك الا جمع الأموال ، وتملك البلاد .... وطلبوا منا اعانتهم على قتالك .. فقدمنا اليك التشفع بك قبل أن ترَى منا من يقوم حزبك .. ونصبحك بجنود لا قبل بها لك ولا لغيرك ...»[149] .

ولم يضطر محمد الحاج إلى تنفيذ وعيده ، ذلك أن محمد الشيخ الاصغر استنتج من موقف الدلائيين انهم غير عازمين على مساندته فعلا والدخول في حرب ضدّ العياشي . فمحمد الشيخ لا يريد أن يكون اتصال الدلائي بالعياشي «على هذا الوجه من التلطف .. بل على وجه ينثر ما بيننا من المودات والمصافاة .. لينفزع منه لبه وينصدع (أي العياشي) ويوبخه على فعلته وعظيم فريته ، ويفصح له عن جريرته وسوء فضيحته ، ويسل عليه لسانا صارما ومقوالا قاصما ، كما تلقينا ذلك منه (من محمد الشيخ) وأخذناه عنه ، وكما هو دأبه مع اخوانه وقرابته واخدانه ..»[150] .

وظن محمد الشيخ الأصغر أن ما يقوم به محمد الحاج من اتصالات ، لا تزيد عن أن تمثل وجها من وجوه اتفاقية بين الدلائي والعياشي : يقوم الأول بمقتضاها بشغل محمد الشيخ بينما يقوم الثاني بتنفيذ عمليات التوسع . وعند تيقن محمد الشيخ من ذلك رجع عن الدلاء وهو يائس من مساندتهم[151] . وانعزل السلطان الأحداث السياسية التي لم يعد يمثل ابطالها إلا أهل الدلاء والعياشي ؟

وقد ظهر في البداية ان العلاقة بين الرجلين (محمد الحاج والعياشي) عادت إلى ما كانت عليه من الصفاء ، خصوصا وان محمد الحاج يؤكد ان ما كان من تهديد ووعيد «انما هو شيء قد جال في الصدور»[152] .

---

(149) الخبر — ص 76 .
(150) نفسه — 77 .
(151) نفسه — ص 76 .
(152) الخبر — ص 77 .

على أن الصفاء كان ظاهريا : فالاختلاف لا زال قائما ، ومحمد الحاج لا زال يرَى- أن «الخير كله في خدمتهم ، والدخول في زمرتهم وتحت طاعتهم»(153) . في حين أن العياشي يريد «منعهم من مورثهم من جدهم مولانا رسول الله ﷺ ، فانه نهانا عن طلب ما ليس لنا : فقال : الخلافة في قريش ، والغير متغلب ، وهم أحق بذلك من قريش بالمغرب ..»(154) .

ان الأمر أعمق من اصرار الدلائي على الدفاع عن محمد الشيخ السعدي . فمحمد الحاج — الذي أظهر في عدة مناسبات نزوعه للحكم — كان دون شك يرَى في العياشي أحد منافسيه الخطيرين وتتحتم عليه محاربته . الا أن محمد الحاج كان من دون شك يتلافي الاصطدام المباشر بالعياشي وهو على ما هو عليه من الشعبية . فالعياشي — على أية حال — لا زال يمثل بالنسبة لكثير من المغاربة : العالم العامل ، المجاهد في سبيل الله ، ولا زالت ذاكرة المغاربة غاصة باعماله وتضييقه على الكفار . فكان على محمد الحاج لكي لا يصطدم بأولئك المعجبين أن يبحث عن مبرر للدخول في حرب «معقولة» ضد المجاهد وقد تمثلت الفرصة المواتية في النزاع الذي جد بين العياشي والمورسكيين .

سنرَى كيفية تطور العلاقة بين العياشي وأهل الرباط ، وسنرَى أن النزاع قد جد بين الطرفين ثم احتد ، ونتعرف على هذا من طريقين : أولا : ورد في رسالة من محمد الحاج إلى محمد الشيخ الأصغر ما يلي «ثم طرق السمع — من غير تيقن لما هنالك — ان بعض الأندلسيين ، ممن الزمه العياشي غرم ما مضَى ، لاذ ببعض الرعية في نقض ما انبرم وانقضَى . فوقع بينه وبين الجماعة الأندلسية مخالفة ، وظهرت باثر ذلك عندهم عليه

(153) نفسه ص 78 .
(154) نفسه ص 78 .

مخالفة»[155] . ويمكن تاريخ هذه الحوادث بحوالي 1639 .

وثانيا : اشارة واضحة تؤكد أن العياشي كان في حرب مع أهل الرباط 1049/1639[156] .

وعلى ذلك يمكن تأكيد أن العلاقة احتدت بين العياشي وأهل الرباط ، وتطورت بالشكل الذي تعطيه المؤلفات المغربية . فقد شدد العياشي على المورسكيين وأهدر دم معظمهم[157] . ووجد محمد الحاج الفرصة الملائمة ، فتدخل لدَى العياشي ، وهو شبه متأكد من الموقف الذي ينتظر أن يتخذه المجاهد ، ذلك أن تضرر العياشي من تصرفات بعض المورسكيين كان يرغمه على التخلص منهم . ولم يكن له أي مخرج غير ذلك . وهذا ما كان محمد الحاج على علم به . ثم ان القضية —كيفما كانت جوانبها— قضية داخلية بالنسبة للمجاهد الذي لم تكن تربطه بالدلائي أية علاقة تلزمه باحترام وجهة نظره ، ورغم كل ذلك ، يتقدم محمد الحاج وأهل الدلاء «يستشفعون عنده في أهل الأندلس .. فأبَى أن يقبل فيهم شفاعتهم ، وقال لهم : الرأي السديد في استيصال شافتهم»[158] .

وكان معنَى رفض العياشي شفاعة الدلائيين سوء العلاقة بينه وبينهم ، لكن ذلك الرفض لم يكن بالضرورة يعني قيام الحرب بين الطرفين . فاذن كان قيام الحرب بين العياشي والدلائي عن رغبة الثاني في التخلص من الأول . وكانت هذه الرغبة متوفرة عند فئات أخرى غير الدلاء .

وتتابع الاطوار الأخيرة من حياة العياشي على الشكل التالي :

1 — بدأ الهجوم من محمد الحاج . فقد اتجه هذا الأخير بقواته من

---

(155) الخبر ص 82 .
(156) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 287 .
(157) نفسه — فرنسا — 3 : 587 . والاستقصا— 6 : 76 .
(158) الخبر — ص 83 .

الأطلس المتوسط نحو الغرب . وكان أول ما سقط في يده مدينة مكناس في أوائل عام 1640[159] ومن هناك اتجه نحو فاس . لكن العياشي تصدّى له بقواته ، وكانت بين القوتين معركة انتهت بانهزام محمد الحاج الذي يظهر أنه استهان بقوة العياشي.. وقد جاء في الزاوية الدلائية ، ان المعركة انتهت بانهزام العياشي[160] لكن بعض التقاييد تفيد عكس ذلك[161] . ومهما يكن فان العملية لم تكن في الواقع الا مناوشة تعرف خلالها كل من الرجلين على قوة غريمه . فقرر كل منهما استعادة قواته ، وفي اطار هذا التفكير اتجه العياشي نحو الشمال محاولا استجماع قواته والاستعانة بقواده امثال الخضر غيلان في أصيلا . وفي طريق عودته صادف جموع البربر من قوات الدلاء في انتظاره باطراف الغرب . ويظهر أن العياشي —وقد لاحظ أهمية قوات محمد الحاج— قرر الامتناع عن الدخول في حرب هو أعلم بنتيجتها . لكن اتباعه رفضوا الاذعان لرغبته وقرروا دخول المعركة التي انتهت بانهزام العياشي في أوائل مارس 1641 . ومن هناك اتجه العياشي في محاولة جديدة لاستجماع الاتباع من سلا هاته المرة ، وتمكن من ذلك فعلا واتجه نحو الشمال الشرقي حيث التقَى للمرة الثالثة —في غضون سنة واحدة— بمحمد الحاج ، وكانت المعركة الفاصلة ، حيث انهزم أتباع العياشي «وركبت الخيل اكتافهم إلى سور سلا ، لا يلوى من تقدم منهم على من تأخر وتلا .. ورجع طاردوهم بغنائم»[162] . وكانت المعركة أواسط مارس 1641 .

وبعد هذه الهزيمة يئس العياشي من الوقوف في وجه العمليات الدلائية فانعزل بعد أن لاذ بقبيلة الخلط بالغرب[163] .

---

(159) الزاوية الدلائية محمد حجي : ص 155 .
(160) نفس المصدر — نفس الصفحة .
(161) الخبر — 84 .
(162) من رسالة من محمد الحاج الى عيسَى بن عبد الرحمن — الخبر — 85 .
(163) الخبر — نفسه .

ولم يكن انهزام العياشي ليضع حدا لوجوده السياسي. وهذا ما كان محمد الحاج على علم تام به. وكان الحل الوحيد للقضاء على الخطر الذي يمثله المجاهد بالنسبة للدلائي هو التخلص منه بالقتل. والجدير بالذكر أن الرغبة في التخلص من العياشي لم تكن تقتصر على محمد الحاج وحده. فكثير من المورسكيين يرغب في نفس الحل. وما قيل عنهم يقال عن بعض القبائل التي لم تعترف قط بالعياشي، وما كان خضوعها له الا اضطرارا. والشائع أن العياشي قتل على يد بعض أشرار الخلط، ويظهر أن اتصالات جرت بين العناصر الراغبة في التخلص من المجاهد، انتهت بالاتفاق على طريقة ذلك التخلص. كما يظهر أن محمد الحاج لم يكن غريبا عن العملية.

وهذا ما يؤخذ من وثيقة برتغالية معاصرة تورد الرواية بالشكل التالي:

.. بن بوبكر... يبدأ في الأخير يغار من نجاح غريمه ومنافسه سيدي علي (العياشي) ووجد الوسيلة (للتخلص من العياشي) في شخص علي بن أحمد، وهو رئيس صغير لم يخضعه العياشي تماما، حيث استشاره بن بوبكر في الطريقة الصالحة للتخلص من العدو المشترك. وكان سيدي علي مقيما قرب أزونت (؟) — عين ماء كان يفضلها، وهي على بعد حوالي 6 أميال من القصر (القصر الكبير؟) — فقدم علي بن أحمد ومعه فرقة من 70 فارسا على العياشي، ليقدم له الطاعة. ودخل عليه خيمته — وهي دون حراسة — وطعن مضيفه، وتمكن من الفرار — هو وأعوانه — دون ضرر... [164].

والظاهر أن الرواية تتوفر على حظوظ كبيرة من الصحة. اذ لم يكن ينقص المنطقة التي قتل فيها العياشي صغار الرؤساء، ولم تكن الرغبة عند كثير من هؤلاء في التخلص من المجاهد قليلة. كما أن تطابق موضع القتل

---

(164) وثائق مغربية — مجلد 18 ص 120.

مع ما تقول به الرواية المغربية الشائعة من أن العياشي قتل عند عين القصب «التي تبعد عن مركز سوق أربعاء الغرب بنحو 20 كلمترا»[165] يوحي بالتصديق. غير أن الذي نقص الرواية هو التذكير بان من غير المستبعد أن تكون المؤامرة قد دبرت بوجود عنصر اخر يمثل بعض غلاة المورسكيين بالرباط. وتوحي هذه الرواية أن العملية مدبرة في الأساس من طرف سكان المنطقة الذين لا يستبعد أن يكونوا قد وضعوا لرأس العياشي ثمنا وأن قتلته حملوا الرأس كدليل مادي على قيامهم بالعملية ليتمكنوا من نيل المقابل المتفق عليه. ولا نذهب إلى القول بأن رأس العياشي حمل ودار به حملته على شوارع الرباط، كما أكد دي كاستري[166]. وقد دفن الرأس قرب مولاي بوسلهام وباقي الجثة عند ضريح مولاي بوشتا الخمار.

ويتفق كل من تحدث عن العياشي ان مقتله كان يوم الخميس 9 محرم 1051/ 21 أبريل 1641.

(165) الزاوية الدلائية – محمد حجي ص 157.
(166) وثائق دي كاستري – فرنسا – 1 : 197.

ثالثا : مراكز الحركة وتنظيماتها

امتد نفوذ العياشي ليشمل كل المناطق الغربية للبلاد ، من مصب أم الربيع جنوبا إلى جبالة شمالا ، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى منطقة نفوذ الدلائيين شرقا . وقد كان لهذه المنطقة الشاسعة مراكز منها تنطلق الأحداث الرئيسية للحركة فتلعب بذلك دور المنظم الذي يعطي هذه الحركة تنظيمات خاصة .

أولا : مدينة سلا

لمدينة سلا وضعية امتياز بالنسبة لباقي مراكز الحركة ، حتّى ان هذه الأخيرة ، أو زعيمها ، ينسبان إلى سلا ، فيقال الجهاد السلاوي أو المجاهد السلاوي . وهذه الوضعية الخاصة ترتبط بعاملين : أولها أن الحركة في أصلها انطلقت من المدينة المذكورة التي شكل بعض ابنائها النواة الأولى للحركة ، وثانيهما ان العياشي اتخذ منها في كثير من الأوقات مركز استقرار ، بعد أن بنَى بها داره[167] .

وعلى ذلك فقد كانت لمدينة سلا أهمية خاصة تستلزم البحث عن تنظيماتها المختلفة .

تظهر مدينة سلا — في فترة حكم العياشي — مدينة متوسطة ... محاطة بسور معظمه مخرب ، يمكن أن يكون بها حوالي 400 رجل[168] وانطلاقا من هذا الرقم يمكن أن نحدد بالتقريب عدد سكان المدينة اعتمادا على كون الرقم المذكور هو في نفس الوقت عدد العائلات القاطنة بالمدينة ، واعتمادا على كون متوسط أفراد العائلة المغربية هو 5 أفراد .

تعيش هذه المجموعة البشرية في نسق اقتصادي اجتماعي يستفيد من موقع المدينة على المحيط ، ومما توفره لها ثرواتها المحلية أو الشبه محلية . وأول ما يلاحظ في هذا الباب — وهو نفس ما لاحظ ابن الخطيب[169] ان مدينة سلا مدينة تجمع بين البداوة والحضارة جمعا يخلق نشاطا اقتصاديا ذا عناصر متكاملة :

---

(167) الاستقصا — الناصري — 6 : 75 .
(168) وثائق دي كاستري — فرنسا 3 : 360 .
(169) الاستقصا — 4 : 30 .

أولا : الغراسة القائمة بالأخص على غراسة القطن والكتان ، تزرع هاته المنتجات خارج المدينة (في نواحي اسمير والولجة) أو داخلها على ساحل المحيط[170] . وقد اكتسب المتعاطون لهذه الحرفة من أهل سلا مهارة كبيرة في السقي بالدواليب والسواقي[171] . ويهتم قسم آخر من السكان بالغراسات الغذائية المزودة للمدينة بحاجاتها في هذا الباب. ويدمج في هذا النشاط أيضا استغلال بعض الثروات الطبيعية مثل الديس أو السمار المنتشر حول مجرى واد أبو رقراق ، أو الطين.

ثانيا : كما تستفيد المدينة من موقعها على المحيط لتمارس مجموعة من النشاطات البحرية ، أولها استغلال ذلك المحيط بالصيد ، وثانيها تسهيل استغلال المحيط عن طريق توفير المراكب. وقد كانت لسلا منذ القديم — على الأقل منذ عهد الموحدين — شهرة في هذه الصناعة أدت إلى تخصص بعض الصناع فيها وتنظيم أنفسهم في اطار حرفي يتكون من المعلمين والصناع والمتعلمين تحت اشراف أمين. يمارس العمل في مكان خاص هو المنجرة ، التي كانت تقع عند قدم صومعة حسان[172] . ويحصل على المواد الأولية من موارد مختلفة ، فالمنجرة تعتمد على ما يستورد من صنوبر من الخارج ، وعلى ما يستورد من بلوط من المعمورة ، حيث ارتبطت بالمنجرة حرفة قاطعي الأشجار (المزابرية) التي كانت تنتشر في أوساط عامر وبني حسن ، كما ترتبط بالمنجرة مجموعة من الحرف ، مثل الحدادة لتوفير المسامير ، وجمع القطران من عرعار المعمورة ثم تقطيره. وكانت هذه المجموعة من الأنشطة توفر مراكب من أحجام مختلفة يستعمل بعضها كقنطرة متحركة للربط بين الضفتين. ويظهر ان كمية ما كان ينتج كثيرة تسمح بالربط بين الضفتين كما وقع على الأقل عندما عبرت قوات

(170) الاتحاف الوجيز — ابن علي الدكالي — ص 26.
(171) نفسه — ص 25.
(172) La mer dans les traditions indigènes à Rabat et Salé — Brunot. 298

رباطية على جسر متحرك النهر لمهاجمة سلا سنة 1637 [173] .

وعلى أساس هذه المعطيات تقوم صناعة نشيطة عرفت الكثير من الاستقرار والاستمرار إلى حدود القرن التاسع عشر ، حيث تضررت بفعل منافسة المنتجات الاروبية [174] . الشيء الذي يمكن من القول بأن ما ذكره الحسن الوزان من وصف للمدينة وأحوالها الاقتصادية صحيح — في خطوطه العريضة— بالنسبة للقرن السابع عشر.

وقد كانت الصناعة في سلا قائمة على خمسة أمور : النسيج (الكتان والصوف)، الجلد الفخار ، الصامت ، الحصر [175] . وكانت شهرتها الصناعية بالأخص متأصلة من صناعة النسيج [176] . حتّى أصبح أهل سلا «في صناعة الحياكة في الدرجة العليا» [177] .

ثالثا : وعلى أساس كل ما سبق قامت مبادلات مع المناطق المجاورة . فوضعية سلا كمدينة وسط مجموعة قروية تمتد في شمالها دون وجود مراكز حضرية أخرى منافسة قريبا منها ، ربطت بين المدينة والغرب بعلاقات تبادل مهمة تحصل سلا بمقتضاها على بعض حاجياتها من الكتان من نواحي مكناس [178] ، والديس [179] ، بالاضافة إلى الجلود [180] ، والشمع [181] .

---

(173) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 196 .

(174) مظاهر يقظة المغرب الحديث — المنوني — ص 11 .

(175) الاتحاف الوجيز — الدكالي — ص 26 .

(176) Léon L'Africain — 164.

(177) الاتحاف الوجيز — الدكالي — ص 26 .

(178) Description de l'Afrique, p. 176

(179) Les Merjas — Célérier — p. 214

(180) الحوالة الحبسية لسلا — ص 25 ، 36 ، 114 .

(181) نفسه ص 21 .

في حين تصدر المدينة مصنوعاتها من حصر وفخار إلى الغرب[182] وقد ترتب عن هذه الأنشطة الاقتصادية وضعية اجتماعية قوامها في قمة الهرم مجموعة من التجار الأغنياء[184] . يقاربهم في الأهمية مجموعة ملاكي الأراضي الزراعية . ثم تتدرج الأهمية دون تمييز ، فالحرف متداخلة في بعضها ، وقد يكون التاجر صانعا ، والصانع فلاحا في نفس الوقت . على أن هذا التمايز كان واضحا على مستوى اخر يوضع على اعتبارات مثل الأصل والنسب أو العلم والصلاح .

أما من الناحية الادارية ، فسلا كانت ضمن ولاية مراكش ، حسب التقسيم الاداري الذي أقره أحمد المنصور الذهبي[185] . وقد أشرنا قبل إلى التطورات السياسية التي عرفتها المنطقة والذي ترتب عنها انفصال سلا عن الرباط وعن سلطة مراكش . كما يظهر أن سلا اتخذت نظاما اداريا خاصا يعتمد على اعطاء بعض السلطة لمجلس من الأعيان يتكون من أهل الأندلس[186] . الا أننا لا نعلم شيئا عن المهام التي أسندت إلى هذا المجلس ، ولا عن كيفية أو مدة عمله ووجوده . كل ما نعلم أن سلا وجدت نفسها بعد مدة دون وال ، فانعدم بها الأمن ، وانضاف إلى هذا الوضع السياسي الغير واضح المعالم عنصر جديد بتوافد عدد من السكان الجدد

وتعتبر فترة بداية القرن السابع عشر فترة مهمة في تاريخ الحركة التعميرية في المغرب ، إذ شهدت هذه الفترة توافد عدد مهم من المهاجرين الأندلسيين على البلاد ، واستقرارهم في كثير من مدنه بكيفية خلقت مجموعة من المشاكل . وقد اهتمت بعض الدراسات بالمهاجرين

---

(182) الاتحاف الوجيز -- ص 28 .
(184) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 360 .
(185) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 356 .
(186) الخبر عن ظهور العياشي — أبو املاق — ص 9 .

الأندلسيين قبل مغادرتهم اسبانيا ، الا أن هذا الموضوع لم يحض بعد بما يستحق من دراسة جامعة تتناول جوانبه ككل ، وتعمل على استخلاص نتائجه بالنسبة للمغرب .

وسنهتم في هذا الفصل بتحليل المعطيات المحلية الخاصة بمنطقة سلا في اطار مجموعة الأحداث التي عاشتها المنطقة في النصف الأول من القرن السابع عشر .

والواقع أن وصول الأندلسيين إلى المغرب لم يكن قط أول اتصال بينه وبينهم ، فقد كانت بين العدوتين اتصالات متنوعة منها ما وصل إلى حد الاعداد للقيام بانقلاب ضد الحكم المسيحي المتجبر لكن الاتصال افتضح ، فكان ذلك سببا مباشرا في بداية عمليات الطرد التي تعرض لها المسلمون في اسبانيا . ذلك أن هؤلاء لم ييأسوا من استرداد منطقة يمارسون فيها العيش بحرية ، ووقعت لتحقيق هذه الغاية اتصالات بين بعض الموريسكيين وبين السلطان زيدان[187] . وفي نفس الوقت كان الموريسكيون ينضمون محاولة انقلاب في جبال البشارة Alvujarres وتنتهي محاولتهم بالفشل[188] . وبذلك يقتنع فيليب الثاني بفشل محاولة ادماج المسلمين بالقوة ومحاكم التفتيش[189] في المجتمع الاسباني المسيحي ، وتبدأ بذلك دفعة جديدة من قرارات الطرد الجماعي في غشت 1609 ، ضد سكان مقاطعة بلنسية ، ثم في دجنبر من نفس السنة في حق سكان مقاطعات غرناطة ومرسية والأندلس وهورناشو[190] .

وبذلك خرجت من اسبانيا اعداد من المهاجرين في اتجاهات متعددة ، منها المغرب الذي يعتقد أن عدد من حل به وصل إلى حوالي

---

(187) وثائق دي كاستري – الأراضي المنخفضة – 1 : 369 وكذا في ابرطانيا 2 : 428 .

(188) Histoire de l'Espagne – J. Descola p. 301

(189) Ibid – 302

(190) La ville de Rabat – J. Gaillé – 213

الأربعين ألفا من الأندلسيين[191] ؛ استقروا في مدن الشمال المغربي بالأخص ، ومنها مصب أبو رقراق .

ويظهر ان هؤلاء المتوافدين فشلوا في الاندماج بالسرعة اللازمة في المجتمع الذي استقروا به ، وذلك بسبب الاختلاف الكبير في كثير من مظاهر الحياة والمعيشة ، ولاختلاف المصالح نتيجة المعطيات التي خلقها الاستقرار الجديد .

وهكذا يستقر عند مصب أبو رقراق عدد مهم من السكان . ويطرح استقرارهم هذا عدة مشاكل أولها متعلق بتحديد مكان الاستقرار . هل في سلا أم في الرباط ؟. يظهر أن بعض الموريسكيين قد استقر — باعداد بسيطة — في سلا ، بينما فضل البعض الاخر — والأكثر عددا — الاستقرار بالرباط ، وهذا ما تفسره ملاحظة بسيطة ولكنها مهمة : فسلا بعكس الرباط كانت منطقة مأهولة إذا ما قورنت بالرباط التي تظهر كمدينة شبه خربة اللهم إلا ما كان من القصبة التي حافظت على بعض الازدهار الذي لم تتمكن الرباط من المحافظة عليه بعد الحروب التي خربتها أواخر بني مرين[192] .وتستمر هذه الصفة صحيحة بالنسبة للرباط إلى القرن 16 حيث تعيش بالرباط حوالي 600 أسرة في ثلاثة أحياء مجاورة للقصبة ، بينما يبقَى الباقي عبارة عن حدائق وحقول[193] . وكان هذا الفراغ يشكل عامل جذب للمتوافدين على المنطقة دون شك . ولهذا كان من المنتظر أن يستقر بالرباط عدد أكبر بكثير من الذي يستقر بسلا من الأندلسيين .

وقد كان لتوافد هذا العدد من السكان — الأجانب على كل حال — أثر على الوضعيات المختلفة في المنطقة . وقد ظهر في البداية وكان عملية زرع عضو جديد في المجتمع قد نجحت . وتمت اتصالات وعلاقات بين

---

(191) Lapeyre — Géographie de l'Espagne Morisque, p. 207
(192) Léon L'Africain — 176.
(193) Marmol — 142

السكان الجدد والمغرب ، منها الاتصال بالسلطان السعدي بمرا
والاعتراف الضمني بالتبعية له ببعث فرق محاربة تساعده فيما ينشب
النزاع بينه وبين باقي رعيته[194] ، ومنها الاتصال بجيرانهم وربط علاق
تجارية معهم أدت إلى اغتناء عدد من سكان سلا[195] ، وبمشاركة أوا
الجيران فيما يمارسون من الجهاد اما برا[196] أو بحرا بتقديم سفنهم
للمشاركة في حصار المعمورة[197] . غير أن هذا الاتصال والتوادد
يستمر حيث نجد بعد مدة «أن الأندلسيين اللاتذين بالرباط يشكلون ج
متكتلة تعيش بمعزل عن السكان المحليين» ويشكل هذا التطور نتيجة حت
للتغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة اثر استقرار الأندلسيين بها. وبد
هذه السلسلة من التغيرات سنة 1614 التي تشهد من جهة بداية تو
اندلسيين جدد على الرباط ، بعد أن استدعاهم المستقرون الأوائل الذ
سهلوا هذا القدوم ، وتحملوا نفقاته أحيانا[198] ، وبذلك ازدادت الأه
العددية للمهاجرين وشهدت السنة المذكورة من جهة ثانية سقوط المعمو
في يد الاسبان ، فتشتت الجماعات القرصنية التي كانت مستقرة به
ووصل البعض منها إلى الرباط[199] . واستغل بعض الأندلسيين ه
الوضع الجديد لمضايقة الاسبان ، فشغلوا أموالهم — التي كانت مهمة —
القرصنة التي شهدت انطلاقا من هذه السنة نشاطا كبيرا[200] .

وعلى ذلك لم يكن من الغريب ان تشهد منطقة الرباط بداية تبا
بين الأندلسيين والسلطان من جهة ، وبينهم وبين أهل سلا من جهة ثانيا

---

(194) الخبر عن ظهور العياشي — ص 9 .
(195) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 360 وكذا سوق المهر الى قافية ابن عمرو - كع
(196) رسالة أهل فاس الى العياشي — في الخبر.
(197) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 28 .
(198) Villes et tribus — Rabat et sa région — I : 65
(199) وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة — 3 : 618 .
(200) وثائق دي كاستري — الأراضي المنخفضة — 3 بتاريخ 1617/8/8 .

وقد بدأ هذا التباعد بشكل بسيط ، حينما أظهر الأندلسيون امتعاضهم من تعسف السلطان زيدان بهم وتجمير جيوشهم المحاربة في صفه . ثم تطور عصيان الأوامر إلى تمرد عندما طرد الأندلسيون قائد السلطان عندهم[201] . وبذلك تم الانفصال نهائيا بين الرباط ومراكش . مع ملاحظة أن أهل الرباط سيستعملون العلاقة بينهم وبين مراكش في كثير من المناسبات كوسيلة ضغط على أعدائهم يستترون ـ في اطارها ـ وراء التبعية الشكلية لمراكش لاخفاء استقلالهم الواقعي . وفي نفس الوقت كانت النفرة تتضح بين سلا والرباط . والواقع أن سبب هذه النفرة لم يكن بالبساطة التي نتصورها عندما نوقف هذا السبب عند رغبة انفصالية ، بل هو مرتبط بعوامل متداخلة قوامها ما أدخله دخول المهاجرين الجدد من اثار اقتصادية واجتماعية .

أول تلك الآثار يتمثل في نوع من الاختلاف بين السكان الأصليين والسكان الجدد الذين ظهروا للأولين بمظهر لم يألفوه في حياتهم اليومية ، ذلك أن الأندلسيين الحديثي عهد بالاستقرار في المغرب ، عاشوا ظروفا خاصة كانت تدعوهم إلى الأخذ بعمق الدين الاسلامي ، وعدم الاهتمام ببعض ما يستحب ان يتبعه المسلم من تصرفات في حياته العادية ، وذلك بسبب الضغط الذي كان يتعرض له المسلمون من طرف المسيحية الاسبانية . وبذلك ظهر عندهم نوع ما من الاسلام ، هو اسلام صحيح في أساسه ، غير أنه على كل حال اسلام من نوع ما بالنسبة لسكان سلا الذين اشتهروا «بأنهم على غاية المحافظة على مكارم الأخلاق .. واتباع السنة .. وحب الاشراف .. وحب العلماء .. والاقتداء بهم والاستماع اليهم»[202] ، وهذا ما يفسر وقوف كثير من الناس في الرباط وغيرها يتفرجون على الأندلسيين في الأسواق ، ويلتفون حولهم ، طالبين منهم ذكر

---

(201) الخبر عن ظهور العياشي ـ ص 9 .
(202) الاتحاف الوجيز ـ ابن علي الدكالي ـ 32 .

الشهادتين[203] .

على أن هذا الاختلاف في النظرة الدينية – لبساطته – لم يكن كافيا لخلق ذلك النزاع المستمر بين سلا والرباط مما ستتطرق اليه بعد ، حتَّى اذا سلمنا باهميته في تفسير ذلك النزاع بين الرباطيين والسلاويين ، فانه لا يكفي مطلقا لتفسير النزاع الحاصل بين مجموعتين من الأندلسيين الحديثي عهدبالاستقرار – الهورناشيون – وباقي الأندلسيين الذين اصطلح على تسميتهم بالمورسكيين ، اذ لا اختلاف في الأصل ونوع العيش بين الهورناشي والمورسكي . لكن الخلاف آت من الاضطراب الاقتصادي الذي صاحب دخول الأندلسيين عامة إلى مصب أبي رقراق .

ويمكن تحليل جوانب ذلك الاضطراب من عدة زوايا :

أولا : يتفق كل من تحدث عن الأندلسيين على أنهم ذووا مهارة كبيرة في الصناعة وأنهم حذقوا في بلادهم أشياء كثيرة ونقلوا حذقهم ذاك إلى البلاد التي هاجروا اليها . وأنهم اشتهروا بالأخص بصناعة الحدادة والنجارة والخرازة والحياكة وتربية دودة القز ، كما اشتهروا بمهارتهم في البيع والشراء[204] . وكان معنَى استقرارهم في الرباط استقرار هاته الحرف معهم بشكل يخلق ظرفا جديدا قوامه خلق مركز جاذبية للزبناء الذين تعودوا التعامل مع سلا . وبالتالي خلق ظرف منافسة لنشاطات هذه المدينة . ويتم هذا الاستقرار وتلك المنافسة في وقت قلت فيه القدرة الشرائية لزبناء سلا التقليديين نتيجة الحروب من جهة ، ونتيجة النزيف المالي من جهة أخرى : ذلك النزيف الذي ينقل باستمرار الأموال والثروات من البوادي المغربية – على شكل ضرائب وتحملات – نحو العواصم ، في اطار رغبة السلاطين السعديين المتنافسين على السلطة في تأمين

---

(203) في سوق المهر الى قافية ابن عمرو .

(204) Lapeyre – opcit – p. 208

استمرارهم وكان من نتيجة هذه الملاحظة الأخيرة عجز ورفض العرب في الغرب اداء الضريبة لعجزهم عن استغلال أراضيهم[205] .

ثانيا : تلا استقرار الأندلسيين ازدهار كبير في حركة القرصنة ، ومرد هذا الازدهار أولا إلى رغبة الأندلسيين في مضايقة الاسبان ، وعلى ذلك فالقرصنة نوع من الجهاد ، وثانيا : وهذا هو العنصر المهم — انتقال كثير من القراصنة المحترفين إلى الرباط بعد سُقوط المعمورة ، ونتج عن ذلك تركز كبير للقراصنة في الرباط[206] ، تلاه تركز كبير لكثير من الذين يستفيدون عادة من هذا النشاط من تجار عاديين وتجار مهربين وبعثات تحرير الأسرَى .

فانطلقت بذلك حركة ترتب عنها شيئان : أولا اغتناء المتعاطين للقرصنة وهم سكان الضفة الجنوبية ، ويكفي أن نتذكر في هذا الباب الغنائم التي يحصل عليها القراصنة لنتصور مقدار الأموال والأمتعة والرقيق الذين ترسبهم كل عملية قرصنية عند اقدام الرباط . مع التركيز على أن هذا الاغتناء كان قصرا على الضفة الجنوبية محتكرا من طرف أهلها ، لما يتوفرون عليه من الانفاض والأموال[207] ، ولما يتوفرون عليه من مرسَى آمن[208] .

وثانيا : افتقار أهل سلا نتيجة لذلك النشاط لاستحالة أو صعوبة ممارسة نشاطهم التجاري العادي باتجاه البحر : فمرسَى التجارة — بعكس مرسَى القرصنة — كان بسلا[209] والتضييق الذي تمارسه البحريات الأروبية ازاء القراصنة يكون أيضا ضد السفن السلاوية المسالمة . ثم ان

(205) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 2 : 333 .
(206) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 115 .
(207) أجوبة السكتاني — 14 .
(208) وثائق دي كاستري — منظر مصب أبو رقراق — 3 : 181 .
(209) نفسه .

وجود مركز للقرصنة عند مصب أبو رقراق يشكل في حد ذاته عامل ط
لكل السفن التجارية القادمة على سلا أو التي تعودت القدوم عليها . وه
التضييق يشكل اخر مرحلة من مراحل الخنق البحري المضروب على سلا
وكان الحل يقتضي اشتراك كل العناصر القاطنة عند مصب أبو رقراق ف
الاستفادة من القرصنة ، وهذا ما لم يوافق عليه أهل الرباط ، ومن هنا
كانت العداوة .

ثالثا : عاصر دخول الأندلسيين إلى المغرب تعرض هذا الأخير لازم
سياسية ترتب عنها افتقار المخزن . والواقع ان ذلك الافتقار كان على
حساب الأفراد العاديين ولصالح فئات معينة . وكان ذلك الافتقار يتم على
مرحلتين : أولا جمع السلطة المتمثلة في السلطان أموال الناس بطريقة
قانونية في البداية على شكل ضرائب ، ثم بطريقة غير قانونية تعسفية تطرق
إلى كثير من وجوهها فيما قبل . غير أن هذه الأموال التي تتركز متجمعة في
يد السلطان لا تلبث أن تغادرها إلى اتجاهات معروفة : إما إلى خارج
البلاد قصد الحصول على السلاح أو الدعم (ويكفي أن نتذكر هنا هدية
زيدان إلى السلطان العثماني) أو إلى القوات المحاربة في صف السلطان ، إم
في شكل ارزاق واعطيات ، أو على شكل سرقات يستفيد منها هذا القائد
أو ذاك . أو إلى قوات محاربة في صف الغريم بشكل غنيمة بعد الهزيمة .
ومن هنا نلاحظ أن هذا المستوَى الثاني لا يعيد الأموال مطلقا إلى
القاعدة ، اذ بعد تسرب قسط من الأموال إلى الخارج ، تبقَى هذه
الأخيرة دائرة في اطار ضيق محدود هو إطار الهيئة الحاكمة أو المقربين
منها . ثم ان ظروف الحرب نفسها تلزم بالمحافظة على الأموال وترغب في
تجميدها انتظارا لانتصار فاستقرار فاستعمال لتلك الأموال في ترميم ما
خرب ، أو لانهزام فاستعمال لتلك الأموال للحصول على مزيد من وسائل
القوة ، ولكن الأموال لا ترجع إلى القاعدة في كل الأحوال .

وفي هذا الوقت تدخل البلاد أموال جديدة ، تشغّل في القرصنة فتنمو وتزدهر ، وتزدهر بازدهارها مدينة الرباط التي تظهر كمدينة جميلة بها الحدائق والدور الأنيقة[210] . غير أن هذه الدعة وهذا الاستقرار محتكرة من طرف فئة معينة من الناس ، فكان من المنتظر الطبيعي أن يتجه جزء من القاعدة المتصلة من نقطة الازدهار هاته ، لتتعامل معها أولا . ثم لتسخط عليها ثانيا بعد اكتشافها لصعوبة التعامل .

واعتبارا لكل العناصر السابقة كان من المنتظر ان يحصل نزاع في مصب أبي رقراق هذه تفاصيله ومراحله :

النزاع المسلح بين الرباط وسلا

يشكل السبب المباشر في انطلاق النزاع المسلح بين سكان ضفتي أبو رقراق ، تأكد العياشي من وجود اتصال ما بين الموريسكيين واسبانيا .

من المفيد هنا أن نتساءل عن السبب الذي دعا إلى وجود نوع من التقارب في وجهات النظر بين اسبانيا وأفراد طردتهم هاته الدولة من مدنهم وخلفوا هناك كثيرا من الأملاك والثروات والذكريات ، في الوقت الذي كان من المنتظر فيه أن يحصل عكس ذلك . وأول ما يجب الانتباه اليه في هذا المجال هو تجنب التعميم ، فليس كل المورسكيين أعداء لاسبانيا ، وليس كل المورسكيين متعاملين معها . فالاتجاهات وسط المورسكيين كثيرة : فكثير منهم شارك في الجهاد البري ، وكثير منهم مارس القرصنة كنوع من الجهاد ، وكثير أيضا منهم احتفظ بنوع من العلاقة مع الاسبان «وكانت تلك الرابطة بين أهل الأندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بأرضهم ، فكانوا آنس بهم من أهل المغرب»[211] . وكان هذا التقارب ضروريا في وقت ساءت فيه وضعية بعض المورسكيين سوءا نتصور

(210) Villes et tribus du Maroc – Rabat et sa région – p. I : 62

(211) الاستقصا – الناصري – 6 : 75 .

بعضه من خلال النص التالي «المورسكيين يعيشون في حالة فوضى وعدم استقرار، ويشعرون بعدم الثقة والخوف، سواء من المرابط (العياشي) أو مولاي الوليد، الذين يطاردانهم أو لما بينهم من نزاع وحروب. كما يخشون من جهة أخرى حقد السلطان المراكشي ... كل هذا بالاضافة إلى النبذ العميق الذي يكنه لهم العرب البدو الذين يسمونهم مسيحيين والذين ـ إذا صادفوهم خارج الحصن ـ يأخذونهم وكأنهم أعداء أو نصارى ..»[212] .

ورغم ما قد تكون عليه هذه الرواية من المبالغة فانها على أية حال انعكاس لبعض الواقع. ودون مزيد من البحث في هذا الباب يكفي أن نتذكر أن العياشي كان على بينة من خطورة ما يقع من اتصالات.

أما بالنسبة للعياشي، فهو يرغب في الانتفاع من امكانيات المنطقة، سواء منها البشرية المتمثلة في وجود عدد مهم من القادرين على الجهاد، أو المادية المتمثلة في مداخيل المنطقة وما تتوفر عليه من سلاح. كما كان للعياشي وجه استفادة اخر من وضع اليد على كل مصب أبو رقراق يتمثل في القضاء على أحد عوامل فشل تحركاته ضد الاسبان، بالقضاء على حلفاء لهم في الرباط، خصوصا وقد تأكد لديه «أنهم يحملون الطعام للكفار، ويطلعونهم على غرة المسلمين»[213] كما أن المورسكيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تصرفات العياشي ومن معه من أهل سلا، فهم يحاولون استغلال كل فرصة لاحتلال مدينة الضفة اليمنى: فمرة يقيمون جسرا متحركا ينقلون عليه مدفعيتهم وجنودهم لمهاجمة سلا[214]، ومرة يستغلون خلو المدينة من رجالها المجتمعين لصلاة الجمعة ليهاجموا الدور والنساء[215] .

(212) Traité entre les morisques et le roi d'Espagne. traduction de G. Colin — in : Hesp. Tom 23 — 1955 p. 17.

(213) نزهة الحادي — الافرني — ص 110 .

(214) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 539 .

(215) Une république de pirates — Dr. Moran — 42

أما على مستوَى الأحداث، فان سنة 1631 تشكل نقطة تحول في علاقات العياشي بالرباط ، فبعد أن كانت محاولاته ازاءها تكتسي طابع البساطة ، وبعد أن قرر الابتعاد عن مصب أبو رقرار والالتحاق بالفحص الطنجي ، نجده يوجه كل اهتماماته نحو الرباط ، ليمارس في المنطقة مجموعة من العمليات العسكرية . وهذا التحول مرتبط بالأحداث التالية :

1 — فشل العياشي في الاستيلاء على المعمورة بعد أن كاد يتم له ذلك . وكان سبب هذا الفشل تخاذل المورسكيين المحاربين في صفه ، وامتناع سكان الرباط عن امداده بالات الحصار ، بالاضافة إلى ما قدموه لسكان المعمورة الاسبان من المساعدة(216) . وقد تمت العملية وما تبعها من تعقيدات في أبريل 1631 .

2 — في نفس الفترة تقريبا (فبراير ، مارس 1631) وقعت اتصالات بين بعض المورسكيين واسبانيا عرض خلالها المورسكيون على ملك الدولة المذكورة (فيليب الرابع 1621 — 1565) مشروع اتفاقية ، نشره وعلق عليه جورج كولان في مجلة هسبيريس/ 23 سنة 1955 .

ومن بين بنود تلك الاتفاقية :

1 — تسلم جلالتكم لهم (للمورسكيين) مدينة هورناشو ، بعد اجلاء سكانها الحاليين عنها ، ويقوم المورسكيون بشراء الدور والممتلكات بالثمن المناسب .

7 — وليظهر المورسكيون أنهم مسيحيون ، سيقدمون معلومات تؤيدها شهادات شهود عديدين — هم أسرَى مسيحيون — في شان العديد من المورسكيين الذين عذبهم المسلمون ، وماتوا من أجل دين المسيح .

13 — اذا كان هذا يرضي جلالتكم ، فانهم مستعدون — قبل مغادرة القصبة — لتأسيس قصبة في فضالة ... حتَّى لا تلجأ إليها السفن

---

(216) النزهة — 110 .

القرصنية .. وباستيلاء جلالتكم على القصبة تتمكن جلالتكم من الحفاظ عليها والدفاع عنها بعدد قليل من الجنود والمدافع .

16 — يسلم الموركسيون لجلالتكم جميع الوثائق والمراسلات التي كانت لهم أو لهم الان مع ملك انجلترا ... والمتعلقة بامسترداد .. وقبل مغادرتهم القصبة ، سيقومون باغتيال المرابط .. وبذلك ينقطع الحصار والمضايقات التي تعاني منها المراكز الحدودية التي لجلالتكم في افريقيا .

وواضح أن هذا المشروع لا يخلو من مبالغات ، ولكنه على كل حال يوضح أن اتصالات ما كانت جارية بين بعض الموركسيين واسبانيا . وقد بلغت أنباء هذه الاتصالات إلى فرنسا[217] كما وصلت إلى ابريطانيا[218] ، وليس من المستبعد أن يكون بعض ما وصل إلى ابريطانيا من أنباء قد انتقل إلى أسماع العياشي اعتبارا لما بين الطرفين من وثيق الصلة في هذا الابان ، واعتبارا لما سبق ، هاجم العياشي الضفة الجنوبية لبو رقراق ، وبدأ تحركه بان ضرب على المدينة حصارا بواسطة أربعة مدافع مقامة جنوب سلا تقنبل أسوار القصبة ، وخامس أقيم عند مدخل النهر يمنع وصول المدد بحرا اليها ، وفي نفس الوقت ينظم عبد الله ابن العياشي عمليات هجومية على رأس فرقة مكونة من خمسة الاف جندي تهاجم الرباط من الشرق[219] .

ولا ندري كيف انتهى هذا الصراع ، إذ أن انعدام الوثائق لا يسمح بتتبع المراحل الأخيرة منه والذي يظهر أن الحصار لم يأت بأية نتيجة ، فتحول العياشي إلى طريقة ثانية تعتمد على خلق النزاع في صف الموركسيين ، واستغلال ما بينهم وبين الهورناشيين من اختلاف في الرأي والمصلحة .

---

(217) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 370 .
(218) نفسه ابريطانيا 3 : 189 .
(219) نفسه ، فرنسا — 3 : 197 .

والواقع أن السلاويين «كانوا يميلون لأهل القصبة (الهورناشيون) ويستميلونهم لمعاملتهم بالاتجار وغيره ، وربما أعانوهم على الرباطيين بادعاء أن أهل القصبة الذين هم من الأندلسيين كانوا أمتن ديانة وأشد غيرة على الدين من أندلسيي الرباط المتأخرين»[220] .

وفي سنة 1636 استولى المورسكيين بالدسائس على القصبة التي هي أصلا مقر الهورناشيين ، وطردوهم منها ، فالتجأ كثير منهم إلى سلا طالبا المساعدة . وتأكدت ضرورة مشاركة العياشي في الأحداث عندما هاجم المورسكيون سلا نفسها[221] . وهكذا يتدخل العياشي في السنة الموالية ليضرب على القصبة حصارا ، واضعا لرفعه عدة شروط : التنازل عن نصف مداخيل القصبة للعياشي ، والسماح بعودة الهورناشيين إلى القصبة ، واصلاح ما لحق بسلا من الخراب[222] . لكن المورسكيين رفضوا تلك الشروط فاستمر الحصار وتأكدت فعاليته عندما شاركت فيه قطع بحرية انجليزية كانت في مأمورية تحرير الاسرى الانجليز.

لكن انسحاب القطع الانجليزية ، وتدخل السلطان الوليد في القضية ، ارغما العياشي على رفع الحصار ، فاستمرت الأمور على ما كانت عليه .

ومرة ثالثة تحتد العلاقة بين العياشي والمورسكيين ، فيبدأ المجاهد هذه المرة بالاطمئنان على شرعية ما ينوي القيام به . فيستفتي العلماء في شأن المورسكيين ، ويفتيه بعضهم (محمد العربي الفاسي وعبد الواحد بن عاشر) بجواز مقاتلة من صادق النصارى وأمدهم بالطعام والشراب ، وتصرف في بيت مال المسلمين ومنعهم من الراتب منه ، وقطع البيع والشراء عن الناس وخص به نفسه[223] .

(220) سوق المهر – السائح – المقدمة – كج .
(221) وثائق دي كاستري – فرنسا – 3 : 198 .
(222) نفسه
(223) النزهة 267 – وكذا في الناصري – الاستقصا – 6 : 94 .

فما كان من العياشي عندئذ الا أن «اطلق فيهم السبيل ، وحكم في رقابهم السيف أياما فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم وافترق جمعهم» . ويطابق ذلك الرواية القائلة بأن «العياشي أهدر دم من بقي من المورسكيين بهذه المدينة (الرباط) وحتّى الذين بسلا القديمة ، باستثناء بعض الحرفيين الذين لا يمكن أن تستغني عنهم المدينتان..[224] وهذا في أواخر سنة 1049/1639 .

ثانيــا : فـــاس :

تبدأ العلاقة بين فاس والعياشي عندما تعرض المدينة على المجاهد القيام بوظيفة التسيير العام . فإذا كان أهل سلا قد عرضوا على العياشي ... القيام جهده بأمور الجهاد والسعي في مصالح العباد..[225] فان أهل فاس عرضوا عليه بالاضافة إلى ذلك توسيع دائرة اهتمامه لتشمل كل البلاد كما سبقت إلى ذلك الاشارة وكان لأهل فاس على ذلك مرتبة خاصة في اهتمامات العياشي ، زادت منها مشاركة الفاسيين بشكل فعال في عمليات الجهاد.

وقد اتخذت العلاقة بين العياشي وأهل فاس شكلين :

أولا : شكلا سياسيا يمكن أن نسميه تبعية سياسية تظهر من خلال اتّصالات مباشرة بين المدينة والمجاهد تظهر مثلا في الرسالة التي وجهها العياشي إلى فاس بتاريخ فاتح محرم 1041/ يوليوز 1631[226] ، أو في الوفد الذي قدم على العياشي مستغيثا به[227] أو الوفد الثاني الذي وفد على المجاهد في ذي الحجة 1047/ أبريل 1638[228] . على أن هذا

(224) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 587 .
(225) الخبر عن ظهور العياشي ص 10 .
(226) الخبر 52 .
(227) نفسه ص 66 .
(228) الاستقصا — 6 : 84 .

الاتصال لم يكن دائما كما ان التبعية لم تكن مسترسلة . ذلك أن جو النزاعات والاضطراب الذي عاشته فاس في هذه الاونة ما كان يسمح بخضوع أهل فاس مجتمعين للعياشي أو لغير العياشي . اذ أن النزاع الذي فتح بابه خلو منصب الرئاسة من السلطة المسيرة لم يلبث أن احتد عندما تبلور فيه التنافس التقليدي بين الفئات الاجتماعية الفاسية متخذا شكل صراعات داخلية أدت إلى تعدد كبير في الزعامات والقيادات . فخلال الستة عشر عاما التي قضاها عبد الله بن المامون حاكما في فاس ثار عليه أو زاحمه على السلطة 12 رئيسا سياسيا دون اعتبار منافسة عميه أبي فارس وزيدان . وعلى ذلك يجب التحفظ في الأخذ بقول الناصري من أن جماعة من أهل فاس قدمت على العياشي باسم سكان المدينة . ذلك أنه من غير المنتظر حصول اجماع يمكن القول معه باتفاق الناس على تقديم من يتكلم باسمهم جميعا . كل ما في الأمر ان الفئة المتدينة في فاس ، سئمت جو النزاع الذي كان يمنع الناس أحيانا حتّى من مزاولة شعائرهم الدينية وأداء الفرائض ، ارتأت حسما للنزاع ، استدعاء العياشي للنظر في شئون البلاد ، ففعل ، ونجح في اصلاح ذات البين بين الفاسيين[229] ، لكن تبعية فاس مع ذلك تبقَى نسبية لم تمنع من وجود منافس واحد للمجاهد على الأقل هو أحمد بن زيدان الذي لم يتمكن العياشي من التخلص منه إلا في سنة 1639 ، بعد صراع دام أكثر من ثلاث سنوات (1636 ـ 1639) .

ثانيا : كما اتخذت العلاقة بين فاس والمجاهد شكل دعم دائم للعياشي أساسه مسايرة تصرفات الرجل لاتجاهات بعض الفاسيين ، وخدمة تصرفاته لمصالحهم . ذلك أن المقارنة بين الرئاسات المتتالية التي تتحكم في مدينة فاس ، وبين العياشي ، كانت تظهر هذا الأخير في مظهر الرئيس المثالي الذي ينظر إلى الرئاسة نظرة مثالية هي تكليف لابد من تطبيق بنوده قبل كل شيء ، ثم تطبيقها في اطار أخلاقي منزه أو يظهر التنزه والعفة عن

(229) الخبر عن ظهور العياشي ــ ص 83 .

شئون الدنيا . ثم ان المقارنة تظهر العياشي كشخصية ضرورية الوجود لتغيير جو عام لم يكن في صالح أحد . وما قلناه آنفا من تضرر المغاربة عموما من الوجود الأجنبي ، ينطبق أيضا على أهل فاس ، التي تضررت من اثار الوجود الأجنبي ، فرغبت في الجهاد ومارسته ، وساندت العياشي كمنظم للجهاد . وتضررت أيضا بشيء اخر لا علاقة له بالجهاد هو ضعف السلطة المركزية وخلو العرش ممن يقيم الشريعة ويحفظ الأمن ويعيد للحياة نسقها الطبيعي . لهذا لم يكن غريبا مساندة أهل فاس للعياشي أولا ، ولم يكن غريبا اقتراحها عليه النظر في شئون البلاد على وجه العموم ثانيا .

ثم ان هذا الدعم كان منتظرا من فاس بالضبط باعتبار أن المؤهل أكثر لممارسة هذا الدعم هم رجال الدين والصلاح –كما سبقت إلى ذلك الاشارة ، وباعتبار فاس مركزا علميا كانت كذلك مركزا لرجال الصلاح والعلم ، الذين يعبرون عن موقف المغاربة ويمثلون لسانهم الناطق باسمهم ، وهم بذلك الاعتبار مؤهلون لدعم الحركة ولهم حظوظ أكثر مما لغيرهم في القيام بذلك الدور بأحسن كيفية . ويكفي أن نستعرض بعض الأسماء لنتعرف على ما يمكن أن يكون لذلك الدور من الأهمية . ونذكر هنا أن أبو املاق خصص فصلا من كتابه – نقلا عن النزهة – في ذكر ثناء الناس على المجاهد . وأول هؤلاء : أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي ، الذي يقترن اسمه دائما بذكر شرحه على المرشد المعين على الضروري من علوم الدين ، وهو واحد من أكثر الكتب انتشارا في المغرب ، ويكفي أن نفتح أول صفحة من الكتاب المذكور لنجد ذكر العياشي وثناء ميارة عليه بأوصاف الصلاح والعلم والجهاد . وهذه دعاية كبيرة رائجة دائمة التداول .

أما الثاني ، وهو محمد بن يوسف الفاسي ، فهو أيضا من مشاهير العلماء ، وهو فوق ذلك صاحب زاوية له ولها مراكز في كثير من مدن البلاد ، بل ان الفاسي قضى شطرا من حياته في التجوال عبر مدن المغرب ، فكان بذلك داعية متنقلا للعياشي .

وقس على هؤلاء مجموعة أخرى من علماء فاس مثل عبد الواحد بن عاشر ومحمد بن أحمد المكلاتي ومحمد بن أحمد الشريف البوعناني . ومحمد بن محمد بن سودة ، وأحمد بن محمد الزموري ، وعلي بن محمد الشريف المريني .. وغيرهم .

ومعلوم أن هذا الدعم لم يكن قصرا على علماء فاس ، بل ظهر علماء أخرون من مختلف جهات المغرب أثنوا على العياشي ودعوا الناس لمساندته . غير أن علماء فاس سيشكلون الأغلبية ، وكانوا فوق ذلك أهم من غيرهم لما لهم من صلات مع كبار رجال التصوف .

ومن العبث محاولة البحث عن رابطة طبقية تجمع بين هؤلاء الذين ساندوا العياشي ، وتمكن بالتالي من القول بان دعم هؤلاء كان دعم طبقة اجتماعية ما للمجاهد . فهم كما ذكرنا يعبرون عن مجموعة غير متجانسة طبقيا ، فيها الفلاح والصانع والفقيه والتاجر ، وهم يتكلمون باسم الشرفاء والفقهاء والأعيان والخاصة والعامة ، ولا شيء أكثر من ذلك .

وكان هذا الدعم يتجه اتجاهين : احدهما نحو القاعدة باقناع الناس بضرورة المشاركة ، وثانيهما باتجاه باقي مشاهير الوقت الذين يشكلون بدورهم منطلق الرسالة نحو القاعدة التي لهم بها صلة . وكانت العمليتان اذن تتحدان في مقصدهما ، وهذا ما يعطي لموقف علماء فاس من الحركة العياشية أهمية خاصة .

ثالثا : مكنـــــاس

أول اتصال بين العياشي ومكناس تم بتاريخ 9 دجنبر 1631 حينما وجه المجاهد رسالة إلى أهل مكناس[230] يعرض عليهم فيها التبعية له أو توضيح موقفهم مما يدعوهم اليه . فانقسم أهل مكناس إلى حزبين ، واحد مع المجاهد والاخر ضده ، وتنازع الحزبان لتكون النتيجة لصالح

(230) الخبر عن ظهور العياشي ص 54 .

العياشي[231] .

وبذلك استقرت قدم العياشي في مكناس ، ولو لمدة قصيرة ، تتمكن بعدها الفئات المعارضة من استرجاع السلطة في مكناس . ولا نعرف ماذا تم بعد ذلك : كل ما نعلم أن العياشي بعث رسالة أخرى[232] إلى أهل مكناس يستفهم فيها عن سبب ارتدادهم قائلا «وقد عاهدتم الله عهودا ، وعقدتم مع اخوانكم المسلمين عقودا ، فانعقدت الصفقة .. فما الذي حدث ؟»

ولمكناس أهمية خاصة ، فهي تعيش في شبه عزلة سياسية ، بحيث لا نعثر على ذكر لاسمها فيما ألف المغاربة أو غيرهم . ولعل ذلك السكوت راجع إلى استقرار الأحوال بالمدينة . فإذا سلمنا بصحة ذلك الافتراض ، وتذكرنا أن موقع مكناس قريب من قدم الجبال . وان من بين المشاركين في كثير من العمليات الجهادية بربر من الجبال ، لتصورنا أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه المدينة كنقطة استراحة وتزويد للمجاهدين المارين بها . ومن هنا يتبين سبب تركيز العياشي في مكاتباته للمدينة على جمع الأعشار والزكاة . يقول العياشي «كما حمدنا الله لكم على ما اعتنيتم به من أمور الأعشار والمسارعة إلى جمعها والبدار .. ولكم من ذلك مزيد مصلحة في جمع الأعشار ، أعشار الزرع والزيتون ، وحياطتها في المكان المأمون ، انكم متى توجهت عزائمكم للجهاد .. وجدتم في ذلك عونا حاضرا .. ومتى اجتاز بكم جيوش المجاهدين .. فحلوا بناديكم ، تلقيتموهم باموال الله في أيديكم ، فلم يرزونكم في شيء»[233] .

رابعا : تطـــوان

لتطوان كمركز من مراكز الحركة العياشية تشابه كبير مع سلا . وأساس

(231) نفسه ص 54 .
(232) في الخبر ص 62
(233) نفسـه .

هذا التشابه أن كلا من المدينتين يطل على البحر ، وفي كل منهما سكان أصليون وفد عليهم سكان جدد الشيء الذي خلق بعض الاضطراب .

غير أن تطوان تخالف مصب أبو رقراق من حيث أن سكانها لم يكونوا محطا لبعض الكراهية من طرف السكان المجاورين ، ذلك أن تطوان لم تظهر كمدينة لها بعض الأهمية الا بجهود اللاجئين الأندلسيين الذين بنوا بها الدور وسوروها واتخذوا بها الأبراج . ثم استمرت تشكل نقطة جاذبية بالنسبة للأندلسيين الفارين بدينهم من اسبانيا ، وكانت الاضافات السكانية بسيطة العدد سرعان ما تذوب في وسط المهاجرين الأول . وعلى ذلك لم يوجد ذلك التمييز بين السكان الذي لاحظناه في الرباط وسلا ، وكلما ذكرت تطوان وسكانها كان الحديث فقط عن أهل الأندلس . أما سكان المناطق المجاورة — الذين أظهروا في البداية بعض التذمر .. لما يسببه لهم ذلك (بناء المدينة) من المضايقة في مسارحهم ومراعيهم ..[234] — فانهم تعودوا على وجود المدينة واستفادوا دون شك من التعامل معها .

وقد تطرقنا في فصل سابق إلى الحديث عن تطور تطوان السياسي واستيلاء أبناء النقسيس على السلطة بها . ويظهر أن الظروف الجديدة التي أصبحت تعيش عليها المدينة خلال الربع الأول من القرن السابع عشر ، لم تعد تمكن من استمرار سير الأمور سيرها العادي : ذلك أن صعوبة الاتصال مع باقي الموانئ ، جعل انظار ابريطانيا بالأخص تتجه نحو تطوان ، التي عرفت اتصالات كثيرة مع الانجليز[235] كان من نتيجتها عودة الحيوية إلى التبادل الذي اغتنت بفعله جماعة من أهل تطوان . وكان من اللازم أن تتغير بذلك قيادة المدينة : فإذا كان أبناء النقسيس مؤهلين لتسيير المدينة عندما كانت وظيفتها الغالبة هي الجهاد ، لما لهم من التجربة

---

(234) تاريخ تطوان — الشيخ داود — م 1 — ق 1 — ص 93 .
(235) تاريخ تطوان — م1 — ق 2 — ص 190 .

والمهارة العسكرية ، فان تلك الأهلية سقطت عندما أصبحت المدينة مركزا تجاريا مهما ، ووجب أن يصل إلى القيادة ممثلون للفئة المتعاطية للتجارة. وهكذا نظم الأندلسيون انقلابا ضد أبناء النقسيس ، انتهى بطردهم ، ثم قدموا عليهم المقدم أحمد بوعلي سنة 1627 [236] .

غير أن عبد الله النقسيس ينجح في استرداد سلطته بعد سنتين ، وهذا ما يشكل انتصارا للحزب العسكري الذي كان يتوفر على بعض الشعبية بالخصوص عند سكان المناطق المجاورة. وسترتبط علاقات طيبة بين العياشي وعبد الله النقسيس ، وسيقدم هذا الأخير للعياشي مساعدة مهمة أثناء حصاره للرباط سنة 1630 [237] . على أن حسن العلاقة لم يستمر ، فبعد التمييز الذي قام به العياشي في بداية 1631 ، يظهر أن النقسيس رفض التبعية للمجاهد. وعوض الدخول في حرب ضد تطوان ، بعث العياشي أحد أتباعه ، سليمان بن يوسف إلى تطوان ، ونجح هذا الأخير في استغلال الانقسام المحلي ، وساعد أحمد بو علي في تنظيم انقلاب ضد النقسيس نجح في التخلص منه. وحل محله أحمد بو علي وسليمان بن يوسف في حكم تطوان باسم العياشي سنة 1631 [238] .

وظلت تطوان في تبعيتها للمجاهد إلى أن دخل في نزاعه مع الدلائيين. فاستغلت المدينة ضعفه لتستقل بحكم نفسها[239] . وقد شكلت تطوان منفذا رئيسيا لمغرب العياشي في وقت لم يكن فيه استعمال مرسَى سلا دائما. وبذلك شكلت أحد أهم المراكز التجارية في هذه الفترة ، يزيد من تلك الأهمية التسهيلات التي تمكن منها البعثات التجارية. فنائب العياشي على تطوان يوجه «..ورقتي جواز أحداهما لتجار لندن والأخرى

---

(236) تاريخ تطوان — م 1— ق 2— ص 221 .
(237) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3ز 267 .
(238) نفسه — بريطانيا — 3 : 54 .
(239) تاريخ تطوان — م1— ق 2— ص 231 .

لتجار بريسطول .. وانه.. ذكر له أن التجار المذكورين يمكنهم أن يصلوا بمراكبهم إلى ميناء تطوان آمنين»[240]. وهذا ما مهد لدراسة مشروع انشاء دار تجارية انجليزية بتطوان[241].

* * * * *

شكلت المدن المذكورة مراكز كانت تنطلق منها عمليات دعم الحركة ، وكانت هذه المدن بذلك تشع على كل المغرب باعتبار أن الدعوة للدعم كانت تتجه نحو كل المغاربة . غير أن هذا الاشعاع كان يسقط بكيفية مباشرة على منطقة تشكل مسرح الحركة العياشية . وتمتد تلك المنطقة من تامسنا إلى تازة . وقبل مناقشة نوع العلاقة التي ربطت بين هذه المنطقة والمجاهد ، لابد أولا من الخروج من التعميم التي توقعنا فيه جملة من تامسنا إلى تازة : وذلك برسم حدود أقرب ما تكون إلى الواقع لما كان يخضع للعياشي من أقاليم :

1 ـ فمن ناحية الجنوب يظهر أن واد أم الربيع كان يشكل الحد الجنوبي لمنطقة تحرك العياشي ، غير أن هذا ليس بصحيح بالنسبة للمجرَى الأدنَى للنهر ، إذ تقطن جنوبه مجموعة أولاد ذويب التي لعبت دورا مهما في الحركة ، التي كانت تشكل في منطقة استقرارها فحصا ملامسا للجديدة هو فحص أولاد ذويب .

2 ـ من ناحية الشرق تعتبر مدينة مكناس اخر نقطة جنوبية شرقية لامتداد الحركة ، اما من ناحية الشرق الشرقي ، فقد تخطت الحركة فاس وامتدت إلى مشارف تازة حيث يذكر صاحب الخبر عن ظهور العياشي ان هذا الأخير حارب الحياينة «... فهزم الله الحياينة ومن معهم ، وتبع

---

(240) تاريخ تطوان ـ 231 .

(241) نفسه ـ ص 247 .

العياشي المنهزمين الذين صعدوا جبل مجاصة من قبيلة غياثة»[242] وقبيلة غياثة المذكورة تستقر في شمال الأطلس المتوسط مشرفة على باب تازة .

3 — اما من ناحية الشمال فتشكل المنطقة المحصورة بين سبتة وطنجة الحد الشمالي للحركة . وفي وسط هذا الاطار كانت تتحرك مجموعات بشرية يمكن استخلاص أسماء التابع منها للحركة من خلال مراسلات العياشي أو بعض ما تبودل في شأنه من مراسلات : تشكل النواة الأولى للحركة العياشية مجموعة القبائل التي عرضت على المجاهد تقديمه ، حيث أن الذين تقدموا إلى العياشي كانوا من أشياخ القبائل وأعيانها . فما هي هاته القبائل ؟

يذكر العياشي في رسالته إلى أهل فاس بتاريخ 17 جمادي الثانية 1041 أنه كتب عن «.. إذن اخوانكم قبائل الغرب من بني مالك وسفيان والخلط وحصين وأولاد سجير ومختار والصباح .. وغيرهم»[243] . ويلاحظ أن العياشي لم يذكر في هذه القائمة :

1 — قبائل الحياينة وشراقة : مع أنها كانت من بين القبائل التي التزمت بالتبعية للمجاهد قبل 1623 . وقبائل شراقة مجموعة قبائل عربية من نواحي تلمسان ، شكلت في وقت ما جيش السلاطين المرينيين ، وهذا ما اكسبها بعض الامتياز ، فالفت الفوضى والنهب بعد ضعف بني مرين . وبعد ضعف السلطة المركزية عقب وفاة المنصور السعدي التفت شراقة حول عبد الله بن الشيخ المامون وشكلت «غالب جند عبد الله ، واتخذ ممن انضم اليه منهم حماته وأنصاره ، وبهم كان يعتصم»[244] . ويفهم من قول الناصري أن انضمام هاته القبائل لم يكن جماعيا ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن قسما من شراقة انضم إلى العياشي ، لتصورنا اذن استعمال الأمير السعدي

(242) الخبر — ص 71 .
(243) نفسه — ص 60 .
(244) الاستقصا — 6 : 52 .

من معه من شراقة للتضييق على أهل فاس الذين يستنجدون بالعياشي ، فيحاربهم بمساعدة الدلائيين[245] وذلك سنة 1623 . لكن انهزام شراقة لم يكن نهائيا ، واستمرت في تضييقها على أهل فاس . وقد حاول العياشي وضع حد لهذه الوضعية فنظم حملة جديدة ضد القبائل المذكورة في يونيه 1632 ، لكن الحملة عادت دون حرب عندما بلغها نبأ رجوع شراقة عن فاس ، ولم يكن هذا الرجوع عن فاس يعني انقطاع الأذَى عنها ، فقد تقوت شراقة بما انضم اليها من الحياينة ووجدت المجموعتان في شخص أحمد بن زيدان القيادة : فاشتد تضرر أهل فاس عندما حاصروهم وأفسدوا لهم الزرع وغيره[246] ، فوجّه أهل فاس إلى العياشي وفداً للاستغاثة ، لكن العياشي — وقد شعر بقوة أعدائه — التجأ إلى الدلائيين ووجه إلى محمد الحاج رسالة قال فيها «انهم قد قدموا علي ، وشكوا الي ، وانا قد شكوت اليك وبكيت عليك مستنصرا لهم ومستصرخا لأجلهم بك ، وها أنذا قد بعثتهم اليك ، فالله الله في اغاثتهم»[247] . ويبعث محمد الحاج المدد المطلوب ، فينظم العياشي حملة تنجح في الحاق هزيمة بالحياينة وشراقة سنة 1637[248] .

غير أن انهزام القبيلتين لم يضع حدا لتحركاتهما ، واتخذت حركاتهما شكلا سياسيا واضحا بعد أن أصبح قائدهما — أحمد بن زيدان — يساير بعض توجيهات مراكش ، واستعمله محمد الشيخ الأصغر — بعد عجزه هو — لانجاد الرباط المحاصرة من قبل العياشي . فيضطر العياشي إلى تنظيم حملة جديدة انتهت بانهزام العياشي ومن معه[249] ، لكنه يعاود الهجوم

(245) الخبر عن ظهور العياشي — ص 67 .
(246) نفسه — ص 66 .
(247) نفسه 67 .
(248) نفسـه .
(249) وثائق دي كاستري — فرنسا — 3 : 586 .

وينجح في الحاق الهزيمة باعدائه ، وياسر أحمد بن زيدان الذي بقي في قبضته كوسيلة للضغط على مراكش[250] ، وذلك في نونبر 1639 .

كانت هذه صورة عن نوعية العلاقة التي ربطت بين العياشي وبين مجموعة قبلية كانت تحركاتها تتم في اطار المنطقة التي يسلم بتبعيتها للمجاهد ، وتوضح تلك الصورة ما أكدناه من أن تلك التبعية لم تكن تامة .

2 — تضاف إلى المجموعات التي يجمعها سهل الغرب والمناطق المجاورة له ، مجموعة قبائل الشاوية التي لا نعرف لها أي دور في الحركة اللهم إلا ما كان من اشارة العياشي في رسالته إلى أهل فاس ، حيث قال : «إلى ما اتفق من ورود كتب الشاوية —كما تطالعون بعضها— يطلبون الملقي ، ويعتمدون جمع الكلمة على ما يسعد صاحبه من العمل بطاعة الله تعالى ..»[251] .

وكل ما يمكن استخلاصه من هاته الفقرة من الرسالة أن الشاوية كانت من القبائل التي التفت حول العياشي ، وان علاقات ومراسلات كانت تربط بينها وبين المجاهد .

* * * * *

علاقة العياشي بهذه المدن والقبائل

بقي بعد التعرف على مناطق نفوذ الحركة ، التعرف على نوع العلاقة التي ربطت بين العياشي وسكان هاته المناطق . وأول ما يجب الانتباه إليه ان هذه العلاقة —وان ظلت في شكلها الخارجي واحدة— قد مرت بعدة مراحل تبعا لتطور نظرة العياشي إلى حركته وأهدافها واعتبارا للمراحل التي

---

(250) نفسه .

(251) الخبر — ص 59 .

قسمنا اليها حياة المجاهد السياسية ، يمكن أن نقول إن العلاقة بين العياشي ومناطق نفوذه مرت بثلاثة مراحل :

1 — بعد اشتهار أمر العياشي كمجاهد في دكالة ، وبعد أن تعرف الناس على شجاعته ومعرفته بشئون الحرب ، واطلاعهم على حسن سيرته وعلاقته بسيدي عبد الله بن حسون ، أنزل المجاهد منزلة خاصة قوامها التقدير لما يقوم به من عمل ، والاحترام لشخصه والاعجاب باخلاقه . ونستقرئ طبيعة هاته العلاقة من الاشارات الواردة في هذا الباب في المراسلات المدرجة في كتاب الخبر. حيث يظهر في البداية فرح كل من سمع بخبره من طوائف المسلمين ، بعد أن شاع ما هو عليه من التضييق على العدو ، وذلك لأنه «ناب عن الأمة المحمدية في اداء هذا الفرض (الجهاد) ..»[252] وكذلك لأنه «حامل لواء الاسلام ، ومحيي منهاج النبي عليه السلام»[253] .

ثم يأخذ ذلك الفرح شكلا أكثر وضوحا وتظهر أسبابه . فالعياشي هو :

لله سيف قاصم وصارم وقاطع
ظهر العدا كبيرهم والناشي[254]

ثم يزداد ذلك الوضوح في الفرح إلى اعجاب عندما «يبعث بما يفتح الله به عليه من خمس الغنيمة والاسارى إلى السلطان زيدان بمراكش ، ويتناقل الناس حديثه وتزداد شهرته»[255] .

وإلى هذا الحد نلاحظ أن العياشي فرد عادي من رعية السلطان ؛

---

(252) من رسالة محمد بن أبي بكر الدلائي الى العياشي — في الخبر ص 18 .
(253) قول الغنامي الشاوي — في الخبر ص 4 .
(254) من شعر عبد الواحد بن عاشر في الخبر — ص 5 .
(255) الخبر — ص 6 .

يعترف هو ـ ضمنيا ـ بالتبعية له غير أنه فرد مشهور تتناقل الألسن أخباره فتحصل له شهرة كبيرة .

2 ـ يحدث في نفس هذا الوقت أن ينتشر احساس عام بضرورة وجود شخص في منطقة سلا للقيام بشئون المدينة ، فيكون العياشي ذلك الشخص لما له من مؤهلات . وبذلك تتحول طبيعة العلاقة بين العياشي والمغاربة :

ينطلق هذا التغير من اجتماع مجموعة من الناس ، والتزامهم كتابة بتقديم العياشي للقيام بأمور الجهاد ، والسعي في مصالح العباد . وهذا الازدواج في المهمة التي كلف بها العياشي هو أساس تعقد وغموض علاقته بالمغاربة في هذه الفترة . ذلك أن تكليف العياشي بالقيام بامور الجهاد شيء مقبول ولا يخرج عن الشرع في شيء ، اما مسألة السعي في مصالح العباد ، وهي مسألة جد تعميمية ، فشيء اخر . ذلك أن عبارة السعي في مصالح العباد عبارة تحمل مجموعة من التآويل ، فالفصل في الخصومات التي قد تقوم بين الناس ، وتنظيم جهاز للمحافظة على الأمن ، مع ما يستوجب هذا الجهاز من مصاريف ، ثم القيام بجمع الأموال لتشكيل بيت المال اللازم لتسهيل السعي في مصالح العباد ، هذه كلها تأويلات صحيحة لهذه العبارة . وهي ـ بكل وضوح ـ اختصاصات السلطان أو من يقوم مقامه ـ باذنه ـ حسب تنوع الأنظمة . غير أن العياشي لم يكن قط خلال هذه الفترة سلطانا أو شيئا شبيها بالسلطان ، ذلك أن مسألة «السلطان» أعمق من تقديم الناس لأحدهم ، في مسألة تقتضي خلع البيعة المعقودة لسلطان سابق هو في هذا المجال زيدان ، ويستوجب خلع بيعة وعقد أخرى ووقوع القتال بين السلطان المخلوع والسلطان الحديث عهد بالبيعة ، وما إلى ذلك من المعطيات العادية لانتقال السلطة من شخص إلى اخر . غير أن هذا لم يقع بل ان العياشي كان يعترف دائما بسلطة زيدان في شكل توجيه قسم من الغنيمة لزيدان «وفي عام 1036 (1626)

كانت غزوة الغربية .. فبعث سيدي محمد العياشي بالخمس من الغنيمة لزيدان»[256] .

ومعنَى كل هذا بوضوح أن العياشي لم يكن يعتبر نفسه مزاحما للسلطان ، ويظهر أنه فرد من الرعية عندما يكلم الوليد بن زيدان قائلا : «وصل الينا كتابكم الأسمَى ، المبشر بهذه النعمة العظمَى .. انقياد الخلافة إلى أيديكم واجتماع الكلمة عليكم»[257] .

ومن جهة ثانية يظهر تصرف العياشي ازاء القبائل تصرف السلطان فهو يقوم بنهي القبائل عن الظلم وقطع الطريق ، ويحارب في ذلك من لم يطع أمره ، وهو يجمع الزكاة والأعشار ويتكلف بصرفها في وجوهها ، وهو يقود عمليات الجهاد ..[258] وهذه كلها – كما هو واضح – بعض المهام التي يقوم بها السلطان عادة .

ويظهر أن سلاطين مراكش – زيدان ومن بعده ابنه عبد الملك ثم الوليد إلى سنة 1631 – سكتوا عن تصرفات العياشي سكوتا يفهم منه أنه يمثلهم في المناطق التي يمارس فيها سلطته . غير أن هذا لم يكن واضحا تمام الوضوح : وكان التابعون للعياشي يرون فيه السلطة العليا في المنطقة ، كما أن بعض كبار الوقت – ممن لهم حق التكلم باسم الناس – مثل محمد بن أبي بكر الدلائي كان يرَى ضرورة «اتباعك (العياشي) والائتمار بأمرك والتعلق بأذيالك والانقياد لكلمتك والاذعان لحجتك واجابة دعوتك»[259] . ومهما يكن للعياشي من سلطة غير محددة في جزئياتها ، فان سلطته محددة في أهدافها ، فالعياشي يقوم بما يقوم به من أجل ايجاد أحسن الظروف لممارسة الجهاد ، ويكفي القاء نظرة على تحركات العياشي في

(256) الخبر – ص 25 .
(257) من رسالة العياشي الى الوليد – الخبر – ص 37 .
(258) من رسالة من محمد بن أبي بكر الدلائي الى عبد الرحمن العايدي – الخبر – 21 .
(259) من رسالة محمد بن أبي بكر الدلائي الى العياشي – الخبر – ص 18 .

هاته الفترة لنلاحظ أن معظم وقته كان مصروفا لتنظيم عمليات الجهاد والقيام بها ، بل نجده في فترة ما ينعزل الأحداث ملتجئا إلى المناطق الشمالية متفرغا للجهاد حيث يقول : كما سلفت لنا الاقامة هنالك ما شاء الله من الأيام والشهور ، ما بين العرائش وطنجة وسبتة .. فاتخذت من فحصها وطنا .. لننظر ما ينظره كل مخلوق حي .. فلما خطبونا (أهل فاس) بلقائهم على المعمورة .. لم نجد من استعافهم بدا .. على ما كنا فيه من استجماع النية على الاقامة في تلك البلاد[260] .

ومن ذلك يظهر أن العياشي كان قد قرر التخلي عن قيادته للمسلمين ، وان العلاقة التي كانت تربطه باتباعه انفصمت بارادة منه هو . غير أن هاته الحالة لم تستمر ، وتبدأ بذلك المرحلة الثالثة من مراحل حياة المجاهد السياسية ، وببدايتها تأخذ العلاقة بينه وبين أتباعه وجها آخر .

3 — يظهر هذا التجديد على عدة مستويات :

أولا : الصيغة الشكلية لمراسلات العياشي أصبحت تنتهي دائما بهذا التعبير : «كتب عن اخوانكم أعيان قبائل الغرب»[261] .

ثانيا : ظهور استعمال كلمات تدور حول معاني محددة ، مثل : الالتزام — الصفقة — الأمر الذي انبرم — المعاهدة على شروط — الدخول في الائتلاف — جماعة المسلمين ...[262] .

ثالثا : تغير لهجة المراسلات التي أصبحت تأخذ شكل أوامر توجه إلى مجموعة ما[263] ، أو استغراب من عدم تطبيق تلك الأوامر ...[264] .

(260) من رسالة العياشي الى الوليد — في الخبر — ص 40 .
(261) انظر رسائل العياشي الى فاس (الخبر — ص 51 ، 58) ومكناس (الخبر — ص 54 ، 55 ، 60) وتطوان (الخبر ص 63)
(262) رسالة محمد الحاج الى محمد الشيخ الأصغر — الخبر/92 ورسالة العياشي الى أهل مكناس — الخبر/54 .
(263) رسالة العياشي الى مكناس (الخبر — 55)
(264) رسالته الى مكناس (الخبر — 60)

رابعا : استعمال أوصاف جديدة في حق العياشي مثل : اظهار الرغبة في الجهاد ، واخفاء قصد جمع الأموال وتملك البلاد واستعباد العباد»[265] . أو «الملك قد شاع له من المشرب الزلالي وطاوعته الأيام والليالي»[266] ثم «المغتر[267] أو السفيه»[268] .

وواضح أن هذه التغيرات تعبر عن تغير في نوعية العلاقة الرابطة بين العياشي واتباعه حيث أصبح قوام هاته العلاقة تبعية مبنية على وجوب الطاعة ، مستدعية قتال من خرج عن تلك الطاعة . وسيؤدي تطور هاته العلاقة إلى نهاية العياشي كما سنرَى في باب مقبل .

التنظيم المالــي

لم تتخذ الحركة العياشية في وقت من الأوقات شكل دولة ذات تنظيمات وأجهزة تفرض المصاريف وتتطلب العناية ، بل هي في عمومها حركة تطوعية من الرئاسة إلى القاعدة . غير أن طغيان النشاط العسكري فيها على غيره ، واقتران ذلك النشاط بالحرب مع ما تستلزم من سلاح وذخيرة ، كان يفرض أن تتوفر الحركة على بعض المداخيل . ومن ذلك :

1 — الضرائب الشرعية :

شكلت قضية الضرائب واحدة من أهم المشاكل التي واجهها العياشي . ذلك أن الوقت الذي احتاج فيه العياشي إلى النظر في قضية الضرائب كان وقتا يتميز بطابع خاص هو في عمومه طابع اضطراب وانعدام للأمن . لذلك كان على العياشي أن يضمن الحصول على الضرائب لمواجهة ذلك الجو ، وفي نفس الوقت لم يكن ذلك الجو ليسمح له بضمان

(265) رسالة محمد الحاج الى العياشي (الخبر— 76)
(266) رسالة محمد الحاج الى محمد الشيخ الأصغر (الخبر— 81 ، 82)
(267) من رسالة محمد الشيخ الأصغر الى محمد الحاج— النزهة— 248 .
(268) الخبر — ص 84 .

ما يرغب في ضمانه . بالاضافة إلى هذا العارض المتمثل في الاضطراب تطرح مشكلة الضرائب الشرعية مشكلة معقدة طرحها بوضوح زيدان في رسالته إلى الحاحي[269] حيث يظهر أن أساس تعقد المشكل نابع من صعوبتين : صعوبة تحديد المناطق الواجب فرض الخراج عليها ، وصعوبة تحديد قدر الخراج اعتبارا لتغير سعر الوقت . لذلك نرَى أن العياشي امتنع عن طرح هاته المشكلة مقتصرا على الحرص على جمع ضريبتي الزكاة والاعشار . مع ملاحظة ان حصوله على تلك الضرائب لم يكن يتم دائما بسهولة .

2 – افتكاك الأسرَى :

كان من نتائج تعدد المعارك بين العياشي والايبيريين توفر عدد من الأسرَى في كل من المعسكرين . الشيء الذي جر كلا منهما إلى محاولة افتكاك اسراه ، وقد كانت العادة جارية بأن يتم افتداء الأسرَى بالتبادل ثم يتم افتداء ما تبقَى بفدية . وكان ثمن الأسير غير محدد ، يختلف حسب الأوقات . ويرَى دي-كاستري أن ثمن الأسير في المتوسط ما بين 250 و300 لبرة خلال القرن 17[270] ، ثم يذكر ان ذالك الثمن وصل إلى 550 لبرة[271] ، ويعود فيؤكد أنه غير محدد[272] ، في حين يقدم مصدر اخر قيمة 17 ثورا في حالة جيدة ودون عيب[273] ، وواضح أن هذه الاختلافات معقولة اعتبارا لاختلاف أهمية الأسير حسب مستواه . وهذا الاختلاف لا يمكن من اعطاء صورة – ولو تقريبية – عن المداخيل التي توفر عليها العياشي من بيع الأسرَى ، خصوصا اذا تذكرنا أن بيع الأسير في السوق الحرة كان يتوقف على مؤهلات الأسير ، ولم تكن عملية البيع

(269) نزهة الحادي – ص 45 .

(270) وثائق دي كاستري – فرنسا – 3 : 562 .

(271) نفسه فرنسا – 3 : 558 .

(272) نفسه – فرنسا – 3 : 491 وكذا ابريطانيا – 3 : 16 ، 37 ، 38 .

(273) البريجة والمغرب في عهد مولاي زيدان (بالفرنسية) – روبير ريكار – 127 .

بالشيء الهين في وقت كان فيه القراصنة يغيرون «على النصارَى في كل زمان ، ويسبون دراريهم ويأسرونهم ، حتّى كانت النصارَى — بسبب ذلك تباع بالبخس»[274] .

على أن استفادة العياشي من الأسرَى كانت تأخذ شكلا اخر . فقد اشارت اتفاقية العياشي وابريطانيا[275] إلى أن «ما بأيدي كل امام من الأسرى يسرح مجانا من غير فداء .. وإذا يسر الله في الاستيلاء على الشرذمة المارقة من الدين (الأندلسيون)، من علينا سيدنا بما في أيديهم مجانا .. وان جميع ما احتاج اليه سيدنا الامام من الة الحرب مدافع وغيرها وبارود ورصاص وغير ذلك .. ناتوا به بحيث لا يلحقنا ضرر في ذلك» .

فيظهر اذن أن الأسرَى كانوا يستعملون — بالاضافة إلى اعتبارهم سلعة في التبادل— وسيلة من وسائل الاطمئنان على امكانية الحصول على السلاح .

3 – الغنائـــم :

إذا كانت الغنائم غير ذات بال من الناحية المالية المحضة ، فانها كانت تشكل موردا مباشرا للسلاح . ففي معركة الحلق الكبرَى مثلا حصل العياشي على 1200 من العدة[276] . ولعل المقصود بالعدة البنادق ، كما سبق أن رأينا أن أساس مدفعية المجاهد تكون مما غنمه من احدَى المعارك .

الجهاز العسكري

لا يمكن الحديث عن جيش نظامي بالنسبة لقوات الجهاد ، إلا أن

---

(274) نوازل الزياتي— ص 241 .
(275) وثائق دي كاستري— ابريطانيا— 3 : 286 .
(276) الخبر— ص 34 .

اشارة بسيطة توحي بوجود ما يمكن أن نسميه نواة لجيش نظامي . فقد ... خرج سيدي محمد العياشي في أربعين رجلا فرسانا ورجالة قاصدين مدينة سلا ..[277] ثم ان بعض المغاربة كان قد اتخذ من الجهاد المشغلة الوحيدة ، وعليه يمكن أن تكون الفرقة المرافقة للمجاهد مع من سبق وصفه من المغاربة ، أساسا لمنظمة عسكرية مهمتها الاعداد للجهاد والاشراف عليه .

على أن هذه الفرق مهما كانت أهميتها العسكرية فهي لا تشكل إلا النسبة البسيطة من جيش الجهاد . ذلك أن القسم المهم منه يتكون من المتطوعة الذين يتوافدون في مواسم معينة على مناطق الجهاد ، حيث كنا نجد مجاهدين من فاس ومن الشاوية يشاركون في عمليات في الغرب . والغالب أن القسم المهم من المتطوعة كان من القبائل الغربية التي يذكر اسمها غب المعارك ، مثل الخلط وبني مالك وسفيان وحصين وأولاد سجير بالاضافة إلى أولاد ذويب والشاوية .

أما عن عدد هذه القوات فلا يمكن اعطاء صورة عنه ، ذلك أن عدد المحاربين — اعتبارا لتطوعهم — مستمر التغير ، إلا أن بعض المصادر الأروبية تقدم رقم 40 ألفا[278] ، وواضح أن هذا الرقم مجرد افتراض قد يكون بعيدا عن الواقع وقد يقاربه . مع ملاحظة أن طبيعة الجهاد كمناوشات وحصار وحرب عصابات ما كان ليتطلب هذا العدد الكبير ، زد على ذلك أن صعوبات التموين وخصوصا بالغاء لا تسمح باجتماع هذا العدد في وقت واحد الا بكثير من الصعوبة .

أما عن أطر هذا الجيش ، فان جيش الجهاد كاي جيش متطوع كان

---

(277) الخبر — ص 6 .

(278) وثائق دي كاستري — ابريطانيا — 3 : 28 .

قليل التنظيم والتأطير ، ولا يستبعد أن يكون هذا الجيش قد تعود الهجوم مع المحافظة على ترتيبه القبلي أو الحضري .

وإذا كانت قوات العياشي قليلة التنظيم فهي مع ذلك ذات قيمة عسكرية كبيرة «فهم رجال شجعان ، ماهرون في المسائل الحربية مثل نصب الكمائن والتعرف على الميدان لاختيار المواقع الملائمة .. ويتوفرون في الغالب على فكر خصب في اختراع الحيل»[279] . يتجمع المجاهدون بعد الاتفاق على نقطة اللقاء ، ويختار المكان في الغالب قرب عين.تعد الكمائن خلال بضعة أيام ، يقضيها المجاهدون في انتظار فرصة ملائمة للهجوم ، فإذا لم تأت الفرصة ، تفرق الحشد . ذلك أن مدة الانتظار تتوقف على مقدار ما حمله كل مجاهد من مؤن ، زد على ذلك أن طبيعة الحرب كانت تقتضي «الا تبقَى الجيوش عادة في مكانها مدة مديدة يقع الشعور بها للعدو معها لأن ذلك بغير ما جرت به عادة أهل الحروب في حروبها ، ومخالفة لما تقصده في خدعها ومكايدها»[280] .

وقد اتخذ المجاهدون أوقاتا معينة للجهاد ، إذ تتركز العمليات في شهر رمضان أو في أوقات الفراغ التي يفرضها نسق المناخ ونوعية النشاط الاقتصادي . فتكون العمليات في فترة ما قبل عملية الحرث ، وفي فترة انتظار الأمطار الأولى بين أكتوبر ونونبر ، وفي فترة ما بعد جمع المحاصيل . فمن بين غزوات العياشي التسع ، نجد ان 2 كانتا في شهر رمضان ، و2 في يبراير ، وواحدة في يوليوز .

أما عن السلاح فهو متنوع ، نجد فيه القوس الحديدي Arbalette وعصا تصلب بالنار بالاضافة إلى البنادق والمدافع والمهاريس . وقد فرضت حصانة المدن المستعمرة على المجاهدين

(279) La place de Mazagan au debut du 17° siècle 6 — p. 30

(280) الخبر — ص 41 .

الاعتناء بنوع معين من الأسلحة المعتمدة على المتفجرات ، واختص بها جند معينون «.. يثقبون تحت الأرض نفقا ، ويمهدون ـ للخسف بما فوقها ـ طرقا»[281] .

ورغم بساطة السلاح فان عمليات الجهاد كانت تضايق سكان المدن المستعمرة أشد المضايقة ، وتسبب لهم كثيرا من الخسائر : ذكر الافرني «وجد (عبد الله بن العياشي) مقيدا بخط والده رحمه الله أن ما قتل في جملة غزواته سبعة الاف وستمائة وسبعون ونيفا»[282] .

وهذه لائحة بالغزوات التي نظم العياشي :

العملية	تاريخها	عدد الأسرى	عدد القتلى
الحلق 1	1621/1030	0	400
الحلق 2	1627/1036	100	100
الغربية (؟)	1627/1036	0	(؟)3000
عياشة 1	رمضان 1038/أبريل 1629	0	588
العرائش 1	رجب 1040/فبراير 1631	0	500
عياشة 2	5 رجب 7/1040 فبراير 1631	900	900
العرائش 2	شعبان 1040/مارس 1631	0	حوالي 1200
الحلق 3	رمضان 1040/أبريل 1631	300	600
العرائش 3	19 ذو الحجة 1639/1040	؟	؟
يوم المسامير	1631/1040 (؟)	هزائــــم	
فحص طنجة	1630/1039		

(281) نفسه ـ ص 49 .

(282) النزهة ـ ص 269 .

خلاصة

كانت هذه اذن بعض وجوه النشاط الذي عرفه قسم مهم من المغرب خلال النصف الأول من القرن 17 م بزعامة محمد العياشي ، ونحن نحس أن الموضوع لم يثر كما كان يجب أن يثار ، وكان ذلك لا عن تقصير ولا عن اقتصاد في استقراء الروايات والأحداث ، بل كان نتيجة فقر ما توفرنا عليه من معلومات ، ومع ذلك نظن أن بالامكان استخلاص بعض النتائج التي نعتقدها نهائية في هذا الباب ، متوسلين في ذلك بالقاء بعض التساؤلات .

أولا : إلى أي حد حققت الحركة أهدافها ؟

رأينا خلال الفصول السابقة الأطوار التي مرت منها الحركة ، كما رأينا أن هذه الحركة لم تكن في شيء حركة فردية قامت بقيام زعيم وانتهت بنهاية ، وانما كانت تعبيرا عن رد فعل وطني ازاء وضعية احتلال أجنبي .

وإذا تمعنا في العمليات العسكرية التي نظمها العياشي ، لوجدنا انها بدأت بسيطة ، ثم ما فتئت تتزايد إلى أن بلغ عددها أوجه سنة 1631 حينما قاد العياشي 4 عمليات ضد المعمورة والعرائش .

نحن لا نستطيع الجزم بأن الحركة قد حققت هدفها المحدد بتحرير الثغور المحتلة ، فذلك لم يتم وظلت المراكز الاسبانية والبرتغالية موجودة تمارس من المساس بالسيادة ما تمارس ، ولكن المقارنة البسيطة بين تصرفات البرتغاليين في بداية القرن 16 مثلا أو حتى بعيد استقرارهم في العرائش والمعمورة ، وبين وضعيتهم حوالي 1630 لكافية لتوضيح جدوى الحركة العياشية وما شابهها من الحركات الجهادية التحريرية .

تشهد روايات برتغالية كثيرة بمدَى غطرسة المستعمر ومدَى تضييقه على الناس في حياتهم اليومية ، غطرسة وتضييقا وصلا إلى حدّ أن حرموا على المغاربة النظر اليهم وهم يتجولون بين دواويرهم وتشهد روايات مغربية مدَى استطالة المستعمر وتضييقه على الناس فقد «تكاثرت النصارَى في الحلق حتَّى أنهم ملكوا الغابة وامتنع العرب من نزولها ، وجعل النصارَى يأخذون ما يجدونه من قوافل المسلمين وجميع المارة ، واشتد الخوف وكثر الهرج بسبب ذلك ..»

وكان ذلك التضييق وتلك المزاحمة قد تسببت في تخريب جزء مهم من المغرب قرنا قبل ذلك ولم يقف الأمر عند حد التضييق في منطقة محدودة أو الاكتفاء بما سمي ، جهلا أو تسترا أو تغييرا للحقيقة التاريخية ، بالاستعمار المحدود ، فنية البرتغال لم تكن هي الاحتفاظ بنقط على السواحل ، بل كانت اتخاذ تلك النقط منطلقا لتوسيع النفوذ والاحتلال وما كان ذلك سرا ولا مشروعا خاصا ، بل كان حديث كثير من ساسة البرتغال وقوادهم .

ومن هنا تتجلَّى أهمية الحركات الشعبية المقاومة ومن بينها الحركة العياشية . إنها حركات نجحت في مرحلة أولى في التضييق على المستعمر واجبرته على التقوقع في داخل حصونه حتَّى كان يضطر إلى استجلاب الميرة من بعد كبير من وطنه أو من غيره . وهذا فضل كبير جنته الحركة التحررية ، وفوق ذلك ، وفي مرحلة ثانية ارغمت المستعمر على اعادة النظر في وجوده نفسه بما تسببت له فيه من الخسارة المباشرة بالقتل والأسر ومن الخسارة غير المباشرة بالصرف المهم على المستعمرة سلاحا وقوتا وتحصينا .

ان جلاء البرتغال عن آسفي وأزمور وأصيلا في القرن 16 ، وارتدادهم عن المعمورة والعرائش في آخر القرن السابع عشر هو الدليل الواضح على نجاح الحركة العياشية في تحقيق هدفها .

يجب على المؤرخ أن يكون مُلما بالوقائع متوفرا على بعد النظر. ودراسة حركة جهادية مثل الحركة العياشية لا يمكن أن توضع في اطار محدود بحدود المنطقة الغربية من البلاد وبحدود النصف الأول من القرن 17 ، بل محلّها الصحيح واطارها المناسب هو أن توضع كحركة تواجه المستعمر الايبيري. وتوضع اعتبارا لذلك بجانب اخواتها التي سبقتها أو التي أتت بعدها حتّى نتعرف على المجهود المستمر والدائب على مدَى قرون يفشل حينا وينجح أحيانا ، ولكنه على كل حال يكتسب في تطوره الوضوح ويحرز في آخره الانتصار ، بالتخلص من الأجانب تخلصا يكاد يكون تاما في نهاية القرن 18 .

والحركة العياشية اذن قامت ، في وقتها وبامكانياتها وفي اطارها الجغرافي بالحصة المنوطة بها من واجب الدفاع والتحرير.

ليست الحركة العياشية واحدة من تلك الحركات التي تؤدي — بما يترتب عنها من اثار إلى تغيير خط سير التاريخ وخلق وضعيات جديدة. والمقارنة بين مغرب ما قبل الحركة ومغرب ما بعدها تظهر أن هذا البلد لم يشهد أي تغيير في هياكله الاجتماعية أو بنيته الاقتصادية. ولكن الحركة مع ذلك حركة عميقة.

فإذا كانت الحركة لم تمس التكوين الطبقي المغربي في عمقه ، ولم تكن تعبيرا عن صراع طبقي ، فانها كانت مواجهة بين كل طبقات المجتمع من جهة ، ضد خطر خارجي من جهة أخرى ، بشكل يقتضي التكتل بين مختلف العناصر وحصول الانسجام في تفكيرها وظهور التشابه في مقاصدها. وينعكس هذا تاريخيا في الملاحظات التالية :

— الاحساس بالخطر.
— مواجهتــه.
— البحث عن أحسن الوسائل لتلك المواجهة.

فقد كانت الحركة العياشية في حد ذاتها تعبيرا عن احساس بالخطر كما نصادف في مراسلات الوقت تعبيرا واضحا عن ذلك الاحساس : فالعدو قد قطع البحر ، والعدو دهم المسلمين في بلادهم ، والعدو متربص بالمسلمين الدوائر... الشيء الذي يدل بوضوح على أن هناك احساسا واضحا بالخطر الذي يتهدد البلاد .

ولم يكن ذلك الاحساس يقف عند حد التعرف على الخطر ، بل يتعداه إلى حد الوعي بمقاصده . فالوجود الاسباني في المغرب —في نظر مغاربة العصر— وجود يشكل بداية لسلسلة عمليات ستنتهي بادماج كل المغرب في ايبيريا .. فمن طال عمره يرَى كيف تؤدَّى له الجزية ... ولم يكن هذا التنبؤ سطحيا أو من باب القذف بالغيب بل هو مبني على اطلاع ووعي تاريخي ناتج عن ذلك الاطلاع . فالمسألة بالنسبة للمغاربة هي أن ايبيريا المسيحية تسعَى لنقل عمليات التوسع المسيحي إلى المغرب كحلقة مما يدعى : ريكونكيشتا ، ويبنون هذا الحكم على أساس أن .. جزيرة الأندلس كان ابتداء قتاله اياها ومشاغبته أهلها من المائة الرابعة ، وكانت عليه فيها هزائم مشهورة .. حتَّى ابتداها بوقعة إلعقاب التي كانت على المسلمين وتم لهم الأمر في المائة التاسعة فلكوها كلها .. وها هو الان يطمع في هذه ... —كما ورد في رسالة محمد بن أبي بكر الدلائي إلى عبد الرحمن العايدي— ولم يكن هذا الوعي وقفا على مجموعة معينة ، بل كانت تلك المجموعة تنشره وتوصي بأن ... اذكروا وذكّروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على جزيرة الأندلس .. لهذا العهد .. فلم يزل ينازلها من أطرافها حتَّى انتظمت كلها في سلكهم ..

فالمسألة اذن على هذا الأساس تفوق حد وجود مراكز محتلة من طرف الأجانب لتصل إلى حد خطر يتهدد البلاد كوحدة موجودة الكيان .

وكان الاحساس بالخطر يدعو إلى البحث عن وسيلة لصده والتخلص

، وكانت أولى مراحل هذا البحث ، التفكير في أسباب ضعف البلاد
الحد الذي جرأ الأجانب معه على الطمع فيها . فوصل المغاربة إلى أن
ب ذلك الضعف هو افتراق الكلمة عند المغاربة وتفرقهم شيعا . فكان
تجاه الذي سار فيه العمل على التخلص من الأجنبي هو العمل على
حيد البلاد . وكان من الطبيعي أن تنطلق الفكرة من منطقة العياشي
ث يحتك المغاربة بالأجانب . وانطلاقا من المنطقة المذكورة بدأت
ركة تضم المناطق المجاورة في تطوان ومكناس ، وبدأت تناوش الدلائيين
ممتلكاتهم ، وبدأت تراسل في الموضوع أقاصي البلاد في اليغ ، بينما تبدأ
ولات أخرى من نفس النوع في وسط البلاد على يد الدلائيين . وبذلك
شر الفكرة لتعم كل البلاد معبرة عن رغبة عامة في الالتفاف حول زعيم
حد . حقا كان هناك اختلاف في نظرة المغاربة إلى هذا الزعيم والمؤهلات
تي يجب أن يتوفر عليها ، ولكن كان هناك اتفاق عام على وجوب وجود
خص تتركز السلطة في يده لتحقيق الهدف .

من هنا اذن تظهر أهمية الحركة العياشية التي شكلت الانطلاقة لمجموعة
حمليات أبرزت في الأخير شعورا وطنيا بلورته في فكرة واضحة وملموسة
ي فكرة البحث عن مسير واحد . لكن الحركة شكلت — في هذا
باب — قاعدة انطلقت منها فكرة على جانب كبير من الأهمية . فهي دون
لك مهدت — بذلك الجو النفسي الذي خلقته — لتقبّل الناس ، بل
ستقبالهم ظهور العلويين ثم وصولهم إلى الحكم . ولكن لماذا فشل العياشي
ي الاستفادة من هذا الجو؟ .

ان المقارنة بين العياشي وبين مولاي رشيد تظهر تفوق الأول على الثاني
ن حيث الشهرة الشعبية ، لكن ينقصه عنصر مهم يتوفر عليه الثاني هو
عنصر الشرف . وهذا العنصر هو الذي جعل أولئك الذين رفضوا سلطة
لعياشي وحاربوه يقبلون سلطة مولاي رشيد .

لقد كان محمد الحاج يعيب على العياشي محاولته القضاء على السعديين قائلا : انكم اردتم منعهم من مورثهم من جدهم مولانا رسول الله ﷺ ، قرة عيننا وعينهم فانه نهانا عن طلب ما ليس لنا فقال : الخلافة في قريش والغير متغلب ، وهم أحق بذلك من قريش بالمغرب ..

كانت بفشلها ذلك دليلا على أهمية عنصر الشرف في التكوين السياسي للدول . وهذه الوضعية عادية جدا في مجتمع ما قبل رأسمالي ، يجب لتغييرها انتظار حدوث تغيير جذري في طبيعة النشاط الاقتصادي ثم بالتالي في البنية الاجتماعية ليأخذ مفهوم السلطة معناه الحقيقي كضرورة اجتماعية وليس كقوة فوقية تُقَرُّ حَسَبَ نظرة مسبقة .

«ملحـــق»

كتاب «الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد»

تردد كثيرا أثناء البحث ، ذكر كتاب الخبر عن ظهور العياشي ، وتسهيلا للاطلاع عليه نورد فيما يلي نص الكتاب المذكور بعد التعريف به والتقديم له .

عنوان الكتاب : «الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد» .

مؤلفه : عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو املاق . عاش بعد منتصف القرن الماضي ، وكان في خدمة قائد قبيلة متيوة بالريف ، وهو القائد الداودي . ورغم اتصالات كثيرة أوصلتني إلى أحفاد القائد المذكور في القنيطرة وفاس ، فإنني لم أتمكن من الحصول على أي جديد بالنسبة لكتاب الخبر أو مؤلفه .

وقد اعتمدت على النسخة الوحيدة المتوفرة منه ، وهي الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم د 91 .

والنسخة كتاب متوسط الحجم عدد صفحاته 100 ، مسطرته 22 . يرَى ليفي بروفنصال ، أن هذه النسخة أخذت عن نسخة ثانوية من الأصل ، في فاس بتاريخ 1333 / 1915 ، ويذكر أن الأصل كان في ملك القائد الداودي المذكور انفا .

ويظهر من أسلوب الكتابة أن الناسخ قليل المعرفة بالعربية ، حاول جهد الامكان اخراج النسخة في شكل قابل للقراءة ، مع الابتعاد عن التزويق أو التزيين ، اللهم الا ما كان من محاولة بسيطة تعتمد على تلوين النقط والفواصل بلون مخالف أحمر مع ملاحظة أنه يضع تلك النقط والفواصل أحيانا على هواه ، الشيء الذي يبعد أحيانا المعنَى عن متناول القارئ كما يتمثل ذلك الاعتناء بالشكل ، في كتابة العناوين أو بداية النقول باللون الأحمر ، الشيء الذي يعطي المؤلف نوعا من التنظيم والتبويب .

والظاهر أن الناسخ كان مسرعا في عمله ، بحيث يلجأ أحيانا كثيرة إلى مجرد تصوير الكلمات دون محاولة البحث عن معناها . كما يظهر هذا الاسراع أيضا فيما يقع فيه من التكرار أو اهمال كتابة بعض الكلمات .

أما من حيث مضمون الكتاب ، فيمكن مناقشته والتعرف عليه من خلال مناقشة الأصول التي اعتمد عليها المؤلف في وضعه . وهي :

1 - نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي لليفرني

تشكل نزهة الحادي الشبكة التي نسج عليها أبو املاق كتابه . وتمثل جزءا مهما من مادة الكتاب . فمن بين 100 صفحة التي تمثل الحجم الكلي ، يمثل ما أخذ من النزهة حوالي 22 صفحة .

يذكر أبو املاق اسم صاحب النزهة عند كل بداية حديث منقول منها . ويشير إلى نهاية الحديث عند انتهائه . وأثناء هذا النقل المباشر لا يحترم أبو املاق نفس التسلسل الذي أقره الافرني ، بل يخضع ما ينقله لتصميم خاص به . فهو يدخل بين الحين والاخر نقولا من غير النزهة لتتميم الفائدة ، كما يكثر من الاستشهاد بالشعر والنثر. الشيء الذي يمكن من القول بأن أبو املاق حاول بقدر المادة التاريخية المتوفرة بين يديه ، أن يقارن بين ما يقدم من معلومات . إلا أن مقارنته تقف عند حد المقابلة

دون اتخاذ موقف معين عند اختلاف الروايات (انظر ص رقم 6). ويكون الموقف المتخذ غير واضح في حالة وجوده (ص 86) . ويلاحظ من جهة أخرى أن هناك بعض الاختلاف بين نص أبو املاق ونص الافرني ، وهذا الاختلاف بسيط يقتصر في الكثير من الحالات على اسماء الأعلام حيث يتفنن صاحب الخبر في اضافة التحليات والألقاب والكنَى .

وقد اعتمدت في المقابلة بين الخبر والنزهة على ثلاث نسخ خطية منها ، توجد بالخزانة العامة ، تحت أرقام د 117 ود 70 ود 4 . بالاضافة إلى النسخة المطبوعة .

2 - البدور الضاوية لسليمان الحوات :

ذكر ليفي بروفنصال أن كتاب أبو املاق جمع لمعلومات من نزهة الحادي والبدور الضاوية ...

الا أن الجزم بأخذ أبو املاق من البدور فيه بعض التسرع ، اذ يجب اعتبار الملاحظات التالية :

1 ــ ان أبو املاق الذي يحرص كل الحرص على تبيان ما ليس من عنده ، باسناده إلى صاحبه ، إذا توفر لديه اسم الكاتب ، ويستعمل تعبير : «ذكر من قيد في الحوادث والوقائع» في الحالات التي لا يتوفر فيها ذلك الاسم ، لم يشر ادنَى إشارة لا إلى سليمان الحوات ، ولا إلى كتاب يحمل اسم البدور الضاوية . والتفسير القريب لهذه الملاحظة ان أبو املاق لم يستعمل ولم يعرف الكتاب المعروف باسم البدور الضاوية .

2 ــ ان استعمال أبو املاق للبدور الضاوية ــ ان كان هناك استعمال ــ لا يزيد على نقل بعض الرسائل التي تبودلت بين محمد بن أبي بكر الدلائي أو ابنه، وبين احدى الشخصيات المعاصرة في شأن العياشي. هذا مع العلم بأن البدور الضاوية تحتوي بالاضافة إلى تلك المراسلات على

معلومات أخرى تتعلق بعلاقة العياشي بالدلائيين وأن أبو املاق لم يستعمل تلك المعلومات .

فإذا ما اعتبرنا حرص أبو املاق على الاستفادة من كل ما يقع بين يديه من أخبار العياشي ، اما لتوضيح أو مناقشة ما نقله عن النزهة ، أو للزيادة في حجم كتابه ، أو لاظهار سعة اطلاعه . نستنتج انه لم يتوفر على الكتاب المذكور ، وانه بالتالي لم يستعمله .

3 — أورد أبو املاق رسائل كان من المنتظر أن توجد في البدور ، ولكنها ليست فيها فهناك ثلاث رسائل : من محمد الحاج إلى العياشي ، ومنه إلى محمد الشيخ الأصغر ، ومنه إلى عيسَى بن عبد الرحمن السكتاني . لكن سليمان الحوات لم يورد هاته المراسلات في كتابه .

من كل ما سبق يمكن أن نشك في أن أبو املاق اعتمد على البدور .

أما من حيث استفادة أبو املاق من تلك المراسلات :

فعدد الرسائل التي أوردها أبو املاق ، والتي توجد أيضا في البدور ، خمس رسائل في صفحات لا يزيد عددها عن 12 صفحة من أصل الكتاب .

لكن أبو املاق لا يوردها — كما يفعل الحوات — كنماذج من أسلوب الكتابة النثرية عند الدلائيين ، وبالتالي يسطرها متتابعة . بل يستعملها للاستشهاد ، ويورد الرسالة كلما اقتضَى المقام ايرادها . وغالبا ما يعطي مقدمة تلخيصية لها ، ويأخذ بعض مقاطعها ليظهر منها تاريخا أو اسما ، أو لمناقشة بعض ما يورده من معلومات يشك في صحتها أو يراها غير تامة [1] .

لكنه — وتتميا للفائدة — يعود فيورد الرسالة بنصها الكامل .

(1) لاحظ التلخيص في آخر ص 16 ، والاستنتاج في ص 36 .

وقد استعملنا للمقارنة والمقابلة نسختين خطيتين من البدور توجدان بالخزانة العامة تحت رقم د 1454 ود 261 .

ويلاحظ من خلال هاته المقابلة شبه تطابق النصوص بين ما أورده أبو املاق وما أورده سليمان الحوات اللهم إلا ما كان من اختلافات راجعة إلى عمل الناسخ أو اضافات إلى أسماء الأعلام كنية أو تحلية .

بالاضافة إلى النزهة والبدور تردد في كتاب أبو املاق ذكر عدة مصادر ، مع ملاحظة أن أخذ أبو املاق منها ليس أخذا مباشرا . بل ربما لم يرها قط ، ولكنه ذكرها نقلا عن الأفراني . وهذه المؤلفات هي :

زهرة الشماريخ في علم التاريخ :

أرجوزة في التاريخ ، وهي جزء من أرجوزة تسمَّى الأقنوم في مبادئ العلوم — موجودة بالخزانة العامة (ضمن مجموع يحمل رقم د 2436). تبدأ الزهرة فيه من صفحة 73 . وهي من نظم عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي .

يقول الفاسي في مطلع أرجوزته :

يـقول فاسي اللقب الكناني　　الأصـل وهـو عبد الرحمن

وبعد أبيات يقول :

سميتـه زهـر الشماريـخ وقد　　حوَى من التاريخ أصناف المنن

أورد السيد عبد السلام بن سودة في دليل مؤرخ المغرب بنفس العنوان الأرجوزة المذكورة ، ونسبها أيضا لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري .

على أن الاستفادة من هذه الأرجوزة محدودة جدا ، وخصوصا بالنسبة لموضوع العياشي اذ يشير الفاسي اشارة بسيطة للعياشي في بيت واحد هو :

وبـعـد (لام) ظـهـر العياشي　　شيئا فشيئا ثم .مات ناش

– يؤرخ لظهور ووفاة العياشي بحساب الجمل.

وعلى أية حال فان استعمال أبو املاق للزهرة يطرح المشكلة التالية :

– أبو املاق يورد ما يلي: «واما ابتداء أمره (ويقصد العياشي) فيقول الشيخ الحافظ أبو زيد عبد الرحمن بن الامام البركة أبي محمد سيدي عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي في شرح منظومته المسماة بزهر الشماريخ في علم التاريخ ما معناه» ويفهم من كلام أبو املاق أن صاحب الزهرة هو أيضا شارحها. كما يظهر من السياق (ص 1) ان ذلك الشرح كان مطولا. اذ يزيد ما أورد منه أبو املاق عن 16 سطرا في ذكر ابتداء أمر العياشي.

أما الافرني فيعطي في النزهة النص التالي : «واما ابتداء أمره رضي الله عنه فقال الشيخ الحافظ أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي في منظومته المسماة بزهرة الشماريخ :

وبعد لام ظهر العياشي شيئا فشيئا ثم مات ناش

قال شارحها ما معناه....» انتهى كلام الافرني.

ويظهر من هذا أن مؤلف الزهرة وشارحها شخصان لا شخص واحد.

وقد ورد في دليل مؤرخ المغرب «... شرحها بعض الأقدمين في مجلد ينقل عنه الافرني في النزهة والصفوة. ووقفت (صاحب دليل المؤرخ) على طرة في بعض نسخها الخطية (الزهرة) ان الشرح المذكور هو لأحد حفدة المؤلف...» فزهرة الشماريخ اذن أرجوزة في التاريخ نظمها عبد الرحمن الفاسي وشرحها شخص غيره.

رحلة القاصدين ورغبة الزائرين

أورد أبو املاق اسم هذا المؤلف نقلا عن النزهة في ص 71.

مجموعة من التقاييد

استعمل أبو املاق –كمادة لكتابه– أيضا ، مجموعة من التقاييد ، ويستعملها دوما بعد تقديم تعبير : ذكر بعض من قيد في الحوادث والوقائع . وهذه المقيدات مأخوذة في معظمها من نسخة ما من نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للقادري . وقد أشرنا خلال عرض نص الكتاب إلى أماكن مقابلتها في المؤلف المذكور .

اما من حيث مادة هذه التقاييد : فعددها أحد عشر تقييدا . تشغل حجما حوالي 10 صفحات من صفحات الأصل . تنقسم إلى ثلاث مجموعات :

– تتكون المجموعة الأولى من ثلاثة أخبار تدور كلها حول غزوات العياشي ، غزوة الغربية ، غزوة عياشة الأولى ، غزوة عياشة الثانية .

– المجموعة الثانية ، وتتعلق بعلاقة العياشي بأهل فاس وبالدلائيين والحياينة .

– المجموعة الثالثة : وتتكون من أربعة أخبار تدور حول نهاية العياشي .

ويمكن أن ندرج ضمن هذه التقاييد أيضا ، خبرا واحدا أخذه أبو املاق فيما يظهر من كتاب : تاريخ الدولة السعدية لمؤرخ مجهول ، يروي كيفية مغادرة العياشي لأزمور ، وهو مثبت في الصفحة 7 .

وتعتبر هاته التقاييد اخبارا جديدة بالنسبة لكتاب النزهة في وقت يقل فيه تداول نشر المثاني اذا ما قورن بالنزهة . وبواسطتها استطاع أبو املاق أن يخلق نوعا من الاستمرار في الموضوع الذي يتحدث عنه . عن طريق سد الثغرات التي اشتمل عليها كتاب الافرني . كما تجدر الاشارة إلى أن أبو املاق تحرّى –أحيانا– التأكد من صحة ما يورد عن طريق المقارنة . وهذا ما يمكن ملاحظته مثلا في صفحة 27 .

المراســلات

بالاضافة إلى ما يوجد بكتاب الخبر عن ظهور العياشي من مراسلات سبقت الاشارة إليها ضمن الحديث عن البدور الضاوية ، يوجد بالكتاب المذكور رسائل أخرى عددها 13 تشكل من حيث حجمها حوالي نصف حجم الكتاب .

ويلاحظ في هذه المراسلات ما يلي :

ــ معظمها ــ ثمانية منها ــ كتب في أقل من سنة واحدة (ما بين رمضان 1040 ورجب 1041) وهي كلها موجهة إلى بعض المدن مثل فاس (اثنتان) ومكناس (ثلاثة) وتطوان (واحدة). أو إلى الوليد بن زيدان .

ومواضيع هذه المراسلات على جانب كبير من الأهمية وقد أشرنا إلى ذلك غير ما مرة .

واسلوب هذه الرسائل متشابه ، مما يوحي بأن كاتبها واحد .

ــ واحدة منها من محمد بن أحمد المكلاتي إلى العياشي ، وتطرح هاته الرسالة مشكلة : فأبو املاق يوردها على أساس أنها من المكلاتي لتهنئة العياشي بمناسبة انتصار من انتصاراته . ويتبعها بقصيدتين لنفس الشخص . في حين توجد نفس الرسالة في كناشة خطية (الخزانة العامة ــ ك 938) على أساس أنها بيعة من أهل فاس للعياشي . وترد الرسالة في الكناشة المذكورة بتوقيع جماعة من أهل فاس منهم القاضي باسم سكان المدينة .

ــ رسالة من محمد الحاج الدلائي إلى العياشي بمناسبة استغاثته به .

ــ ثلاث رسائل من محمد الحاج الدلائي إلى مراكش : إلى محمد الشيخ الأصغر ، أو إلى قاضيه عيسَى بن عبد الرحمن السكتاني .

ويورد أبو املاق كل هذه المراسلات تحت عنوان : ذكر بعض ما له من المراسلات إلى المدن والقبائل .

وأهمية كتاب أبو املاق في هذا الباب لا تأتي من كونه استغل هاته المراسلات أو استفاد منها ، ذلك أن استفادته منها كانت محدودة . حيث استنتج من رسالة العياشي الى الوليد بن زيدان تاريخ غزوة الحلق الكبرى (صفحة 36). بل تتمثل الأهمية بالأخص في كونه أورد هذه المراسلات . ورغم تنقيب طويل لم نتمكن من التعرف على كيفية حصوله عليها ولا على مصدر اخر لها ، الشيء الذي يجعل من كتاب أبو املاق المصدر الوحيد لهذه الاتصالات .

الأشعـــار :

أورد أبو املاق مجموعة من القصائد والمقطعات الشعرية ، تشغل 15 صفحة من الكتاب . وأهمية هذه الأشعار من الوجهة التاريخية المحضة بسيطة جدا ، اللهم الا ما كان من تأكيدها لما وقع من احداث أو تأريخ تلك الأحداث ، كما هو الحال بالنسبة لقصيدة عبد الهادي الشاوي التي تؤرخ لوفاة العياشي (ص 88) .

والقصائد الواردة هي :

قصيدة من 7 أبيات من نظم محمد بن العباس المكلاتي في مدح العياشي .

قصيدة من 10 أبيات ، من نظم عبد الواحد بن عاشر الانصاري وهي أيضا في مدح المجاهد.

ثالثة من 30 بيتا قالها في مدح العياشي والمجاهدين والجهاد أحمد الدغوغي .

رابعة لمحمد بن أحمد المكلاتي في 20 بيتا في وصف معركة العرائش ومدح العياشي .

خامسة لنفس الشاعر في نفس الغرض من 19 بيتا .

سادسة من نظم عبد الهادي بن عبد الكريم الشاوي من 10 أبيات في رثاء المجاهد .

ثامنة من نظم أحمد الدغوغي في نفس الموضوع وهي من 50 بيتا .

مجموعة أبيات لعبد الله بن محمد العياشي في تصبير نفسه ثلاثة أبيات ثم اثنان .

قصيدة من 139 بيتا لعبد الله بن العياشي في أهل بدر ، يستشفع بهم للانتقام من قتلة والده .

هذا بالاضافة الى مجموعة من الأبيات المنفردة في الصفحات 3— 21— 31 .

* * *

ولقد حرصنا على تقديم نص واضح مقروء ، دون الاشارة إلى الكلمة الأصلية التي تكون غير ذات معني على الاطلاق ، ولم نهتم كثيرا بتوضيح المعاني اللغوية للكلمات الغريبة ، إذ القصد هو تسهيل الاطلاع على النص .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد واله وصحبه .
يقول العبد الفقير لرحمة مولاه عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو املاق ، كان الله له أمين ، وغفر له ولوالديه بمنه وفضله .

الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد

قال صاحب نزهة الحادي — رحمه الله — فيها ما نصه : ذكر التعريف بسيدي محمد العياشي وذكر ابتداء أمره وثناء الناس الأكابر عليه ومغازيه رضي الله عنه وارضاه وجعل الجنة نزوله (كذا) ومأواه .

أما التعريف به :

فهو الفقيه العالم المتفنن أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي العباس سيدي أحمد المالكي الزياني . اشتهر لقبا بالعياشي ، وليس هو من القبيلة البربرية التي يقال لها ايت عياش . كان رحمه الله اماما عالما فقيها مشاركا في فنون من العلوم . وكان — رحمه الله — مجاب الدعوة ، ما دعا الله في شيء الا أستجيب له[3] ، شوهد ذلك منه مرارا . وله اتباع ظهرت عليهم بركاته ، ولاحت عليهم اسراره ونفحاته ، وله كرامات كثيرة ، تقف على بعضها ان شاء الله . ومن كرامته (كذا) تلك أنه كان يعلم الناس بالغنيمة قبل وجودها[4] .

وأهله بنو مالك العرب الهلاليين ، يقال فيهم بنو مالك بن عزبة (كذا) بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . وهم اليوم من عرب الغرب ، وبيته فيهم بيت خير وصلاح من قديم .

واما ابتداء أمره :

---

(3) خرق في الأصل

(4) رغم أن أبو املاق يؤكد في بداية هذا الباب انه يأخذ من النزهة ، فانه لا يحترم السياق الأصلي لها ، ويأتي بكلام النزهة بكثير من التقديم والتأخير مع احترام الفكرة والكلمة .

/2/فقال الشيخ الحافظ أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن الامام البركة أبي محمد سيدي عبد القادر بن يوسف الفاسي في شرح منظومته المسماة بزهر الشماريخ في علم التاريخ ما معناه : كان ابتداء أمر سيدي محمد العياشي رضي الله عنه أنه كان من تلامذة الولي الصالح العارف بالله تعالى ، أبي محمد سيدي عبد الله بن حسون السلاسي الخالدي دفين سلا ، وكان أقرب التلامذة اليه وأسرعهم الى خدمته اجابة وطوعا بخدمته (كذا)، وكان مع ذلك قليل الكلام كثير الصيام ، مداوما على تلاوة القرآن . فكان الشيخ — رضي الله عنه — متلفتا اليه ولم يزل أمره معه كذلك الى أن شاعت مناقب الشيخ رضي الله عنه ، وكثرت أتباعه وغاشيته (كذا)، واهدَى اليه بعض أشياخ القبائل فرسا ، فأمر باسراجه فأسرج ، وقال : أين محمد العياشي؟ فقال له : هانذا يا سيدي . فقال له متأدبا معه : اركب (فرسك ودنياك واخرتك ، فتقهقر متأدبا). وحلف له وحبس له الركاب بيده ، وقال له : ارتحل عني الى أزمور ، وانزل على أولاد أبي عزيز ، وجاهد في سبيل الله ، ولابد لك من الرجوع الى هذه البلاد ، وسيكون لك شأن عظيم .

فودعه ، ووضع الشيخ يده على رأسه وبكَى ودعَى (كذا) له بخير ، وانصرف . فقصد أزمور ، ونزل حيث عين له الشيخ رضي الله عنه . وشرع فيما أمره الشيخ (به) من حراسة الثغور من العدو الكافر بتلك النواحي .

ولم يزل ، من يومئذ ، مثابرا على الجهاد ، وشديد الشكيمة على العدو ، حتَّى صار عارفا بوجوه المكائد الحربية ، مقداما في مواطن الاحجام ، صموتا وقورا مهابا . ذا بأس شديد وباع مديد ، فطار بذلك في البلاد صيته وخبره ، وشاع بين الناس ما هو عليه من التضييق على العدو /3/ والكافر . وفرح بذلك قائد أزمور وجميع من سمع بخبره من طوائف المسلمين .

واما الثناء عليه :

رضي الله عنه ، فقد أثنَى عليه ومدحه لذلك غير واحد من أكابر العلماء والصالحين وعامة المؤمنين المفلحين . قال في نزهة الحادي : كان الفقيه العالم الكبير العارف بالله الولي الشهير أبو عبد الله سيدي محمد بن الشيخ العارف أبي بكر الدلائي رحمهما الله ورضي عنهما ـ يذيع في المجالس محاسنه ويطيل في الثناء عليه ويدعو له . وكان يقول في دعائه : اللهم جاز (عنا) سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة ، وكافيه (كذا) عنا أحسن المكافاة ، واجعل مكافاتك له انكشاف الحجب عن قلبه ، حتَّى تكون أقرب اليه منه ، اللهم لا تحرمنا توجهه اليك وانقطاعه لخدمتك ، اللهم نفس كربته ، وكمل رغبته ، واجب دعوته ، وسدد رميته ، واردد له الكرة على من عاداه في الحق ، انك على كل شيء قدير . وقد وصفه الشيخ الامام أبو عبد الله محمد سيدي محمد بن أحمد ميارة الفاسي في شرحه الصغير لمرشده المعين بالولي الصالح العالم العامل السائح ، قطب الزمان وكهف الأمان ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، المرابط في الثغور ـ مدة عمره لحياطة المسلمين ، ذو (كذا) الكرامات الشهيرة العديدة ، والفتوحات العظيمة الحميدة ، من لا شبيه له في عصره ولا فيما قرب منه ولا نظير ، ولا معين له على نصرة الاسلام ولا نصير ، الا الذي تفضل به علينا (وأقره) بمنه وجوده بين أظهرنا ، فهو كما قيل :

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

البركة القدوة ، المجاب الدعوة ، أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي /4/ انتهَى .

وبمثل هذا الوصف وصفه العالم العلامة الحجة البركة أبو عبد الله سيدي محمد العربي الفاسي أيضا . ووصفه أيضا الفقيه العالم العلامة قاضي تامسنا في حينه ، أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن أبي العباس أحمد

الشاوي الغنامي ــ رحمه الله ــ بالولي الصالح ، الزاهد المجاهد في سبيل الله ، حامل لواء الاصلاح ، ومحيي منهاج النبي عليه السلام ، أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي ، رحمه الله .

ووصفه أيضا الشيخ الامام العالم الحجة الولي الصالح محيي سنة النبي ــ ﷺ ــ أبو عبد الله سيدي محمد بن ناصر الدرعي[5] في رسالة وقفت عليها بخط يده : بأمير المومنين ، وسيد المسلمين . وناهيك بها شهادة على علو منصب الرجل .

وقال الأديب الكاتب أبو عبد الله سيدي محمد بن العباس المكلاتي ــ رحمه الله ــ في مدحه بهذه الأبيات :

حديث العلا عنكم يسير به الركب
وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كل مسلم
تنال به الزلفَى من الله والقرب
فأنت رفيع من أصول رفيعة
نجوم الدياجي في الأنام لها سرب
سمي رسول الله ناصر دينه
تجلَّى بكم عن أفقه الشك والريب
ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم
يجود لمستجد أنامله السحب
وما يستوي البحران عندي فان ذا
أجاج ــ لعمري ــ في المذاق وذا عذب
فلا زلت في ذا الدهر محفوظ رتبة
يسر بك الاقوام والال والصحب

---

(5) محمد بن ناصر الدرعي ، اشتهر بابن ناصر نسبة الى جده ، ولد باغلان من درعة 980 ، وتوفي سنة 1052 . اشتهر هو وأبوه بتنظيمها للزاوية الناصرية .

وقال أيضا الامام الشهير أبو محمد سيدي عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأندلسي الأنصاري ، رحمه الله تعالى ونفع به في مدحه :

يا حادي الاظعان في الرياشي
أبلغ سلامي فخرنا العياشي
/59/ من فضله بدا ونوره غدا
تغدو به الركبان والمواشي
طود الهدا، عين الندا فرد الردا
فريد وقته الامام الخاشي
لله سيف قاصم وصارم وقاطع
ظهر العدا كبيرهم والناشي
كم غصة جرعتها صدورهم
حق بها واقفهم والماشي
يتركهم عند اللقا رهن الشقا
صرعَى على الأرض كما المواشي
تهنيكم حياتكم يا مسلمين
ما دام فيكم سيدي العياشي
يا عاذلي في حبه عذلك دع
ولا تحدثنيَ حديث الواشي
اني امرؤ بالحسن مفتون وعن
جميع لوم لائمي عاشي
هدية الى الكرام أبرزت
سلامها للسامعين الخير فيهم فاش

انتهى

وثناء الناس عليه نظما ونثرا كثير جدا يطول بنا تتبعه وجلبه . وفي هذا القدر هنا كفاية ، ياتي بعضه نثرا ونظما أيضا في فصول من بعض

الرسائل ، ونصوص من الوقائع والمسائل حسبما تقف على ذلك ان شاء الله تعالى .

قال في نزهة الحادي : ولم يزل سيدي محمد العياشي على حاله ذلك من الجهاد والحراسة مدة ، الى أن توفي قائد الفحص والبلاد ، في حدود العشرين والف ، أو بعدها ، فسأل السلطان زيدان بن أحمد الذهبي عمن يليق بتولية ذلك الثغر والقيام بوظيفته وبنواحيه ، فقيل له : سيدي محمد العياشي . فكتب له بالتولية لذلك . فنهض باعباء ما حمل من ذلك وبتولية الفحص والقيام به ، ونال مجهوده فيه . وكانت له مع النصارَى أهل البريجة وقائع عظام ومشاهد جسام، ضيق عليهم فيها، أشد التضييق ، حتَّى منعهم من الحرث والرعاية والسعاية في مرافقهم في كل سبيل وطريق . وكان رحمه /6/ الله كلما بعث بما يفتح الله به عليه من خمس الغنائم والاساري الى السلطان زيدان بمراكش ، ازدادت شهرته ، وتناقل الناس حديثه . فبعث نصارَى البريجة حينئذ لحاشية زيدان بأنواع التحف ونفيس الهدايا والطرف ليزيلوا عنهم سيدي محمد العياشي ، لمضايقته لهم . فخوفوا زيدان منه وحرضوه على عزله . وأظهروا انه مسموع الكلمة في تلك النواحي ، وأنه ممن لا تؤمن غائلته وربما يخشَى منه على الملك ، كامحمد بن عبد الله بو محلي . فوغروا بذلك قلب السلطان زيدان وحنق عليه ، وخاف أن يكون منه ما كان من غيره قبله فبعث اليه قائده محمد السنوسي في اربعمائة فارس ، للقبض عليه وقتله . فالقي الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه ، لما يعلم من براءته مما قذف به . فبعث اليه خفية ان انج بنفسك فانك مغدور ، فخرج سيدي محمد العياشي في أربعين رجلا ، فرسا ورجالة ، قاصدين مدينة سلا . فلما بلغ القائد السنوسي المذكور مدينة أزمور ، لم يجد له خبرا . فأظهر العناية بالبحث عنه والتفتيش عليه ، وعاقب على افلاته شرذمة من أهل الفحص لذلك ، على أعين الناس زعما منه أن ذلك مما يجب عليه من المحافظة على أوامر

السلطان ، والمبالغة في طاعته . انتهَى ما ذكر صاحب النزهة .

وذكر بعض من قيد في الوقائع ما يخالف هذا حسبما يذكر في الترجمة بعده يليه ، من أنه خرج الى سلا عن اذنه وبامره . والله تعالى أعلم .

ذكره الغزوة الأولى من غزوات حلق وادي سبو ، وهو المعروف بمرسَى المعمورة

/7/ قال في نزهة الحادي : واما مغازيه رحمه الله تعالى ورضي عنه ، فقال شارح الزهرة[6] : كان نزول النصارَى بمرسَى الحلق في سنة اثنين وعشرين وألف ، وكان هذا الحلق من المعمورة مضرا بالمسلمين . وقد لقوا منه شدة وبلاء . انتهَى[7] . وذكر بعض من قيد في الوقائع فقال : وفي أواخر جمادي الأخيرة من سنة ثلاث وعشرين وألف ، أخذ النصارَى — دمرهم الله — حلق سبو ، فبعث أهل سلا جماعة منهم لمراكش الى السلطان زيدان بن أحمد المنصور مستغيثين به على النصارَى الذين أخذوا حلق وادي سبو . فوجدوه (غائبا) عن مراكش لأمر اقتضَى غيبته عنها[8] . فلما رجع وجد أهل سلا كيف وفدوا عليه يطلبون الاغاثة على العدو الكافر ، وأخبروه بأنه يبني[9] ويضرب نواقسه (كذا) .

وكان أهل سلا تحت طاعته ، وهم يخطبون به (زيدان) فصار يعدهم بالنصرة ، ويؤملهم بها ، الى أن خرجت هدية عظيمة من عند نصارَى البريجة . ففهم أهل سلا حينئذ بأنه قد قبض حق البلاد ، كما فعل أخوه

---

(6) المقصود شارح زهرة الشماريخ في علم التاريخ من تأليف عبد الرحمن الفاسي .

(7) اختلاف في تاريخ سقوط المعمورة في يد الاسبان بين شارح الزهرة وصاحب التقييد المؤكد ان نزول الاسبان بالمعمورة كان بتاريخ 3 غشت 1614 . ويوافق 16 جمادي الثانية 1023 .

(8) كان بأسفي . انظر دي كاستري فرنسا 3 : 20 .

(9) بمجرد الاحتلال بدأ الاسبان في بناء الحصن على المرتفع المشرف على المصب ، انظر دي كاستري الأراضي المنخفضة — 3 : 334 وكذا — فرنسا — 2 : 566 .

محمد الشيخ المامون بالعرائش ، فانصرفوا راجعين الى بلادهم من غير اذن منه ولا مشورة له . وتكاثرت النصارَى في الحلق ، حتَّى أنهم ملكوا الغابة وامتنع العرب من نزولها . وجعل النصارَى يأخذون ما يجدونه من قوافل المسلمين وجميع المارة ، واشتد الخوف وكثر الهرج بسبب ذلك ، الى أن سكن البلاد الفقيه السيد محمد العياشي رحمه الله ، وذلك (أنه) رحمه الله كان بناحية دكالة ، مواظبا على الجهاد بثغر البريجة منذ توفي /8/ شيخه سيدي عبد الله بن حسون رحمه الله[10] . وكان السلطان زيدان قد أذن (له) في ذلك وقلده اياه ، وانه هو الذي بعث اليه يأمره بالمسير الى سلا لاغاثة (أهلها) لما رجعوا عنه . والله أعلم ان ذلك كان . وحلق سبو هو المعلوم بمرسَى المعمورة على نحو ربع مرحلة من سلا . والله أعلم .

وقال في نزهة الحادي : ولما دخل سيدي محمد العياشي سلا ، زار قبر سيدي عبد الله بن حسون وبات عنده بالضريح ، وجاءه أهل سلا يسلمون عليه ، وذكروا له ما هم فيه من الخوف من النصارَى (وان مسارحهم امتدت الى واد المخازن ، وأن النصارَى)[11] الفا[12] من الرومات (كذا) دون الفرسان . فأمرهم بالاستعداد والتهيؤ واتخاذ آلة الجهاد ، واستخبرهم عما عندهم من العدة فلم يجد عندهم بسلا الا نحو المائتين فحضهم على الزيادة والاستكثار منها ، فاجتهدوا في ذلك ، فكان مبلغ عدتهم بما زادوه منها زهاء اربعمائة من العدة[13] . فخرج بهم سيدي محمد العياشي الى المعمورة ، فصادف بها من النصارَى جمعا وعددا كثيرا . فكانت بينه وبين النصارَى حروب عظيمة قرب المعمورة يوما كاملا

(10) توفي عبد الله بن حسون بتاريخ 12 محرم 11/1012 يونيه 1603 .
(11) ما بين القوسين من النزهة ، سهوا من الناسخ وقع .
(12) في النزهة : الفان والظاهر أن الرقم قريب من الصحة حيث أن سكان المعمورة كان حوالي 800– وثائق دي كاستري– فرنسا– 3 : 366 كما كانت بها حامية مكونة من 1500 رجل ، مدن وقبائل مغربية –الرباط وناحيتها– م 1 ص 275 .
(13) كان بسلا حوالي اربعمائة رجل– فرنسا 3 : 190 .

من أول النهار الى أن غابت الشمس ، وانفصل الفريقان على قتلة كثيرة ، استشهد فيها من المسلمين مائة وسبعون رجلا[14] ختم الله لها بالسعادة (كذا) وجعلهم من فريق أهل الخير والنعيم والسعادة . وقتل من النصارى ـــدمرهم اللهـ ما ينيف على أربعمائة كافر ، عجل الله بروحهم الى النار (وكانت هذه أول غزوة أوقعها في الغرب بعد قفوله من أزمور)[15] . ومن هذه الغزوة قصرت النصارى عن الخروج الى الغابة وضاق عليهم الحال وداخلهم الخوف . وهي أول غزوة أوقعها سيدي العياشي في الغرب بعد صدوره وقفوله من ثغر أزمور[16] والله عليم بذات الصدور/9/ .

ذكر صدور الأمر من السلطان زيدان بالايقاع بسيدي محمد العياشي والمكر به

قال في نزهة الحادي : وبلغ الى السلطان زيدان بمراكش ما فعله سيدي محمد العياشي من هذه الغزوة ، وعلم ما أنفذ اليه الناس معه من ذلك ، وتحققه . فبعث الى قائده بقصبة سلا وهو الزعروري يأمر (ه) بالقبض عليه أو اغتياله بما أمكن له من ذلك . ففاوض الزعروري في ذلك جماعة من أشياخ البلد من أهل الأندلس ، فأنكروا ذلك عليه ، وتأسفوا منه ، ولم يوافقوا عليه . وبعد ذلك اتفق رأيهم على أن يكون مع سيدي محمد العياشي جماعة منهم عينا له وحفظا عليه ، يحرسونه ولا يفارقونه خوفا عليه مما هو مطلوب به . فلازمه بعضهم من أجل ذلك ليلا ونهارا مدة مديدة . وكان من قضاء الله وقدره أن السلطان زيدان بعث لقائده الزعروري أن يجهز لدرعة جيشا . وكان قبل ذلك بعث اليه ليجهز له جيشا لدرعة ، من اربعمائة من الأندلسيين الذين بسلا ، فجهزهم اليها وطالت غيبتهم بها ، وساءت أحوالهم فيها من قلة المئونة وغيرها ، فهرب

(14) تغطي النزهة 270 .
(15) ـ (16) تأخير وتقديم من أبو املاق .

أكثرهم وبقية (جماعة) حتّى قدموا في حالة رثة، وأخبروا بما كانوا فيه من الضياع وما رأوا من المحن . ففسدت طويات الجميع ، ومالت قلوبهم عن الزعروري وسلطانه . فلما بعث اليه بتجديد البعث لدرعة أيضا امتنعوا من الانقياد له في ذلك وانفوا منه وكرهوه وازمعوا على خلع طاعته ، ووشوا له بقائده الزعزوري . فبعث زيدان لقبضه ، فقبض ونهب داره الأندلسيون (وكتبوا) بذلك لزيدان مظهرين طاعته /10/ مكرا به ومكيدة منهم له ، ونفاقا منهم . فبعث اليهم مملوكا من مماليكه قائدا عليهم يقال له عجيب . فمكث عندهم أياما ، فلم يعتنوا به وصاروا يهزءون (كذا) به ، وبحاله ، ثم ذات يوم قتلوه ؟ .

فظهر منهم شق العصا على زيدان وخافوا (كذا) عليه وجاهروا بذلك .

وأظلم الجو فيما بينه وبينهم ، وبقيت سلا فوضى لا ولي بها ، فكثر بها وبأحوازها العيث والنهب ، ومد اللصوص أيديهم للمال والحريم ، وكثرت الشكاية من التجار والمسافرين من اخافة السبيل وقطع الطرقات . وظهر عجز زيدان عن الالتفات لذلك والاهتمام (به)، وسيدي محمد العياشي يرى ويسمع ، وهو ساكت لا يتكلم في شيء من ذلك ولا يلتفت اليه ، اعراضا عنهم واشتغالا بنفسه ، كأنه غير حاضر ، الى أن خوطب في القيام بذلك وظلب منه المرة بعد المرة ، وأكد عليه فيه ، ورأى ذلك واجبا عليه أو كالواجب ، فتصدّى حينئذ اليه وقام باعبائه .

ذكر تقدم الفقيه السيد محمد العياشي للقيام باعباء المصالح العامة ورد المفاسد الطامة

قال في نزهة الحادي : وكان السبب في ذلك أنه لما كثر بسلا وباحوازها العبث ، والفساد ، واستشرى العدوان واستطال ، هرع الناس الى الفقيه سيدي محمد العياشي ، راغبين اليه وطالبين منه القيام ـــ جهده

ومقدوره— بأمور الجهاد ، والسعي في مصالح العباد وردع أهل البغي والغي والفساد . وشددوا عليه في ذلك وجبروه (كذا)، وبما في أنفسهم وضمائرهم —من الصدق والرضا— خبروه . فساعدهم على ما طلبوا ، ووافقهم على ما فيه رغبوا .

قال في نزهة /11/ الحادي : ولما طلبه الناس للتقدم عليهم ، للنظر في مصالح أمور المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم ، أمر أشياخ القبائل وأعيانها من عرب وبربر ورؤساء أن ينزلوا خطوطهم في ظهير بأنهم رضوه لما طلبوه منه ، وقلدوه فيه ، وقدموه على أنفسهم والتزموا ، وأي قبيلة خرجت عن طاعته وأمره كانوا يدا واحدة على قتالها ، حتّى تفيئ الى أمر الله تعالى .

فكتبوا بذلك خطوطهم ، ووافق عليه قضاة الوقت ونقباؤه من تامسنا الى تازى . فشمر حينئذ عن ساق الجد والاجتهاد وأظهر الأمر بالمعروف (والنهي) عن المنكر ، وكثرت عند ذلك وفوده ، وأشرقت في الجو السلاوي أنواره وسعوده .

وكان الحامل له على طلب ذلك من القبائل أنه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال : لا يحل لأحد الجهاد الا مع الأمير . ففعل ذلك خروجا (من) الدعوة الواهية والا فقد كان كتب له علماء الوقت كسيدي عبد الواحد بن عاشر وسيدي ابراهيم الكلالي وسيدي العربي الفاسي وغيرهم من الأئمة ان قتال العدو والكافر لا يتوقف على وجود امام[17] . بر ولا فاجر ، وجماعة من[18] المسلمين تقوم مقام السلطان عند عدم وجوده . واما ما أفتَى به الأئمة رضي الله عنهم (من) وجود المصلحة فيه ، ودرء المفسدة به واضح لمن له أدنَى تأمل ، حتّى أنه لا يحتاج معه إلى كثير بحث (أو) تعقل . والله سبحانه يلهمنا رشده .

---

(17) تعطي جميع نسخ النزهة : سلطان .
(18) تعطي النسخة : جماعة المسلمين

ولما كمل أمره ، وبايعه الناس على اعلاء كلمة الله بالتعاون على الجهاد ورد الظلم عن ضعفاء الأمة في البلاد ، ضاق الحال على عرب الغرب لأجل اعتيادهم السيبة والفساد وعدم الاحكام ، ومحبتهم الخلاف والعيث والسبي ونهب أموال العباد ، فنكث بيعته جماعة (من) ذكر وصفهم /12/ .

ذكر قتال سيدي محمد العياشي من نكث من شراقة

قال في نزهة الحادي : وكان ممن نكث من تلك القبائل والفئات : الناصر بن الزبير في لمة من شراقة ، فتوجه اليهم السيد محمد العياشي بجموعه فقاتلهم وفض جموعهم وظفر بهم . وبعد ذلك عفا عنهم . ولم يذكر صاحب النزهة لهذه الوقعة تاريخا .

وذكر بعض من قيد ، فقال : وفي أواخر ذي القعدة من عام اثنين وثلاثين وألف ، وبعدما مات سلطان فاس ، وهو عبد الله بن الشيخ المامون ابن أحمد المنصور[19] ، بنحو ثلاثة أشهر ، قدم الفقيه السيد محمد العياشي بن الحاج[20] عن اذن والده السيد البركة سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي في بعث عظيم اغاثة لمستغيثه الفقيه العالم الماجد سيدي محمد العياشي ، وأعانة له على أن يقيم دعائم عوام من كان في الغرب من العجم والعرب . وقد عصبت لولاه عواصب على بصائر المسلمين ، فلا يزالون في ظلم الظلم تائهين مع من قادهم إلى ذلك من رؤساء المجرمين . لكن الله سبحانه وتعالى أبى الا أن يرضي من الحق على رغم المبطلين (... ؟) الا ظهوره، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله ألا أن يتم نوره .

فالتقى سيدي محمد العياشي بمن معه ومستغيث جموع (الدلائيين)

---

(19) توفي بتاريخ 23 شعبان سنة 1032

(20) الاستقصا — 6 : 59 .

وكثير شراقة فاقتتلوا قتالا عظيما ، وقعت بسبب ذلك ـ اخره ـ هزيمة شنعاء على جموع شراقة ، ومات منهم خلق كثير ، وكان ذلك تاسع ذي الحجة العام[21] . والأمر بيد الله .

ورجع الدلائي بعد ذلك من حيث أتى ، وأعلم بحال الواقعة وبما أتى . ففرحوا بذلك . ودعا السيد محمد العياشي (لـ) من هنالك بالخير والظفر /13/ بأهل البغي والفساد من طوائف المسلمين ، وبالاعانة والنصر على أعداء الله الكافرين .

ومدحه الناس نثرا ونظما ، وفي ذلك يقول الأديب البليغ الماهر أبو العباس السيد أحمد الدغوغي رحمه الله ، قصيدة من أحسن كلامه وهي :

ثغر السرور وأي ثغر باسم
عن ظلمه كشف اللثام للاثم
باليمن والاقبال قام مبشرا
بالنصر بارقه ، فهل من شائم
قسما باقدام الكماة لدَى الوغَى
والحرب مضرمة بتصادم
والسمر تقطر بالدما محمرة
والبتر البيض تغمد في طلى وجماجم
والعاديات مثيرة في نقعها
نقعا كغيم في البرا يتراكم
وخلال ذلك بندق كعوارض
من وابل المطر الأعم الساجم
وحياة أبطال الجهاد الخائضي
لجج الحمام بموجها المتلاطم

(21) من عام 1032 / 14 أكتوبر 16 .

لـيـنورن الحق لـيلا ضلالـه
بتـألـق من كـل أبيض صارم
ولينصرن الـديـن بعـد صدوعه
وليهـدمن ركـن الـفساد القـائم
فـالحق متضح البنـا متبلـج
وسـواك فـيـه يخاف لـومـة لائم
وسواك تخدعه الذباب كفيت من
راع ذا اختلست سواك دغانم
يـا أيها الـعلم الـذي بـوجـوده
أرسَى الثرا مزها (؟) الاله العالم
يـا رحـمـة لمعاشر الضعفاء من
رب قـوي البريـــة راحـــم
بك شـبت الـدنيا زمان مشيبها
عـــادت لشرح قـــنـــاتها بتمائم
والعلم أصبح في جوارك في حمَى
لم يخش فيه مضرة من حائم
والحمد من علياك يورث والندا
لـولاك أهــلــه كـربـع طـاسم
من رام شاوك رام معتسفا مسا
بقية الصقور بلا قوى وقوادم/14/
حشـا لمثلك أن يقاس بضرغم
أو كل ليث في الوجود ضبارم
ويجل جودك أن يعارض بعضه
جـود الـغمام فكيف جود حاتم

يـا أحـلم الحلما وأحـزمـهـم اذا
ما الرأي رد الى مشورة حازم
صل واغلظن في الله واسقط جاهدا
فحسام عرضك ذي الذباب الحاسم
واقطع حبال خبال كل معارض
ومـعـانـد لـلـحق غير ملائم
وإلى م تمرح في الفلاة قبائل
من عرب مغربنا سدًى وأعاجم
وتـروم روم الشرك فرصة ماكر
بـالمسـلمين الـغـر غير مسالم
والى سياستك السنية ينتهي
فصح الورَى ولأنت أعلم عالم
ولـواء نصرتك المؤيـد خـافق
لـلـديـن بارد ظلمة من ناعم
فـلـيـبشر الأعداء منك بدارة
يـتـفـرقن لجموعـهـم وهوازم
ولـيـبشر الاسلام مـنك وأهـلـه
بحمايـة ورعـايـة ومـغـانم
وعـنـايـة بـالـعلم أسس ركنها
وتـقًى الاله فما له من هادم

* * * * *

انتهت . وهي من أحاسن نظمه . وله مدائح بليغة رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وكتب اليه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي ، يستعطفه في شأن انسان يظهر سبب استعطافه أياه من الكتاب :

الحمد لله العليم ، العفو الرؤوف ، المنزه عن صفات من وصف بها فهو مرؤوف . وصلّى الله على سيدنا محمد ، مدينة العلم المسورة بسور السماحة والحلم . وعلى ساداتنا اله وصحبه وكل من انتظم في سلك اتباعه من أهل حزبه .

هذا وان المجلي بنور طلعته ظلام الظلم والفساد ، المحلي خزائن المعالي بموجبات /15/ النفاق على حين الكساد ، المستوطن حبه في سويداء الفؤاد ، من القت اليه المكارم أزمة الانقياد ، وصلحت به — بحمد الله — البلاد والعباد ، حوطة الاسلام وحمايته ، وخديم الدين المحمدي وكفايته ، أبو عبد الله سيدي محمد العياشي ، المحمود الفعال والأوصاف ، بشهادة من يعد من أهل الانصاف ، زاده الله من المكارم أعلاها ، ومن نفائس درر المجادة أغلاها ، وتوجه بتاج الكرامة والرضا ، وأمده بدائم (مدده السرمدي) حتّى يرضَى ، وسلم جنابه القدسي العلمي المرابطي المجاهدي من جميع البلايا ، وأتحفه من جميع تحفه الفاضلة الوهبية باعلَى المزايا . وأهدَى اليه من طيبات بركاته ، ونوافح رحمته ، ما يرضاه دينه العلي لحماته . **قد شهدنا على أنفسنا بالاقرار والاعتراف بفضله علينا ، وان ما يسره يسرنا ، وما يضره يضرنا ، علم ذلك منا يقينا من له معنا أدنَى مخالطة، بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطة. وانما الضار بالعين يضر بانسانها . لكن النقص (في النفوس) الانسانية ، محل لخطئها ونسيانها . ومن أهناه لديكم مقام الخديم والولد ، قد ساءنا ما ساءكم مما عنه ورد ، وطلبنا من جليل أوصافكم السمحة معاملته بالصفح الجميل** فلن يزال الانسان — الا من عصمه الله — يستمال أو يستميل . ولولا الحرارة ما عرف الظل ، ولولا الوابل لقيل النهاية في الطل . وما عرف العفو لولا الاساءة ، يقال صبر المرء فيما اساءه .

وما عرفنا صاحبه الا محبا لكل من للدين ينتسب ، فان خرج عن نظركم. فقد أتاه الغلط من حيث لا يحتسب والسلام .

انتهت هذه الرسالة ، ولم أجدها مؤرخة ، كما أنه رضي الله عنه لم يسم فيها كنية من (من) أجله (كتب). لستره وعدم الاحتياج لذكره . وفي جميع ذلك من أنواع المحاسن والتلطفات وأحاسن التلفظات ما لا يخفَى : فقد افتتحها — رضي الله عنه — /16/ بالأسماء الثلاثة التي تدل معانيها وترشد الى المقصود ، فكأنه بينه للمكتوب اليه بها بالاتصاف بمعاني تلك الأسماء الحسان . ووصفه أيضا بالأوصاف الحميدة والمساعي المجيدة . وتلطف له بالاعتراف بالفضيلة والتصريح له والتمثيل بما ينهض في قضاء هذا الوطر الجليل وذلك أو مثله مما يكون على منواله لا يصدر الا عن امثاله لامثاله . والتوفيق بيد الله .

ذكر قتال سيدي محمد العياشي من نكث من أولاد سكير

قال في نزهة الحادي : وقد نكث بيعته — أي بيعة سيدي محمد العياشي — أيضا : الطاغي بالتاء بدل الطاء في لغتهم وألسنتهم ، في جماعة وافرة من أولاد اشجيز[22] . فناشدهم الله وانتهَى منهم ، فان لم ينتهوا ؟ (كذا) ، فقاتلهم سيدي محمد العياشي رحمه الله ، فهربهم وغلبهم وظفر بهم ، وعفا عنهم رحمه الله كمن قبلهم . وفي كل ذلك يؤيده الله على من ناواه بفضله وعونه .

ولم يذكر لهذه الوقعة تاريخا صاحب النزهة .

ومن أجل هذه الوقعة وغيرها — والله أعلم — كتب الفقيه أبو عبد الله سيدي محمد العربي الفاسي — رحمه الله — رسالة بعث بها للشيخ الولي الكبير العالم العلامة الشهير ، أبي عبد الله سيدي محمد بن الشيخ القدوة البركة سيدي أبي بكر الدلائي — رحمهما الله تعالى — يعلمه فيها بما عليه عامة الناس من المسلمين من افتراق كلمتهم وعدم مبالاتهم بالأمور

---

(22) يورد الناسخ اسم هذه القبيلة على هواه : سجيز — شجير — سكير ... الأصل : سجير .

الجهادية وغيرها من الوظائف الدينية ، وقلة استشعارهم مضار الافتراق ومنافع الاجتماع وغير ذلك . ويشير اليه بما يفهم منه أن سيدي محمد العياشي يعاني من ذلك معهم أمورا صعبة ومشاق وعظائم لا تكاد تليق ، ويسعَى في المصالح العامة لتقع الالفة بين الناس ، ويستقيم له ما هو بصدده من القيام بالأمور الجهادية /17/ ويلوح له بأن يجتهد في الدعاء لسيدي محمد العياشي ولكافة المسلمين وبالهداية والتوفيق إلى سلوك أفضل طريق، واقتفاء خير فريق مع خير رفيق . ويذكر له أنه أدَّى ما يجب عليه من التنبيه والاعلام . وانه قد حط لديه وحل ما بدا له من المصاب في دين الاسلام . ونصها :

سيدنا الامام الأوحد ، القدوة البركة المعتمد ، (شيخ) الاسلام ورافع لواء سنة النبي عليه السلام ، سيدي محمد بن الشيخ **البركة** ، **سيدي أبي بكر الدلائي** : ابقَى الله للاسلام ظلكم المديد ، حتَّى يبلى الجديدان ، وهو – بفضل الله تعالى – جديد . **سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته** ، ورضوانه الأعم وتحياته ، ما قامت بالجرم سكناته وحركاته .

عن تمام الخير والعافية ، والنعم الشاملة الضافية ، لله الحمد ومنه المنة ، واليه الاسكان وهو الجنة . **هذا ولا زائد الا تعريفكم باتفاق كلمة الكفرة وافتراق كلمة المسلمين** ، **فاسلموا الاسلام في أيدي الكفرة وقعدوا** ، **وانتدبت فرق** – انصف الله منها وصرف يد العناية عنها. **فأوضعُوا خلال المسلمين** ، **يبغون بهم الفتنة** فهم رمد في عين الدين ، وكمد في نفوس المهتدين . يقابلون الحق الواضح بالبهتان المبين ، ويعارضون دين المصطفَى الأمين بقول مهين لا يكاد يبين . **والمداهنة تضرب دون الضرب على أيديهم حجابا** ، وتلقي على أشعة شمس الحق حجابا ، وتمهد لهم الى الاسترسال في طغيانهم اسبابا ؛ وتفتح لهم الى الاعذار المستغلقة أبوابا ، حتَّى شرق الدين بريقه ، وشكا الى الله بفريقه .

فان كنتم -رضي الله تعالى عنكم- لم ينته اليكم من ذلك خبر ، ولا نظرتم الى ما وضح منه /18/ وظهر ، **فقد جاءكم جهينة ، ينفض بين أيديكم الجواب والجوينة . وها أنذا قد برئت من عهدة التنبيه** ، وأعلمت بنكتة التشبيه ، وأحلت على صاحب البيان والتحصيل والتوجيه والتعليل والتقسيم والتعقيل .

والله تعالى يبقيكم للاسلام عونا ، ويوليه منكم حفظا وصونا والسلام . **وكتب أحب خلق الله اليكم وفيكم : محمد العربي الفاسي** لطف الله به . أمين .

انتهت بنصها ، ولم أجدها مؤرخة .

ولعل هذه الرسالة كانت السبب في كتب الرسالتين المسطرتين عن سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي . وذلك أنه كتب الى سيدي محمد العياشي رسالة نصها بعد الحمدلة والتصلية .

حفظ الله بمنه رئيس هذا الدين ونقيبه ، المنصور الراية المبارك الأمر الميمون النقيبة ، المثابر على فضيلتي الرباط والجهاد ، والوقوف على اظهار العزم والحزم في ذات الله والقوة والجلاد . الأخ في ذات الله ونعم الأخ والولي والصفي والوفي بعهد الله ، وناهيك به من صفي ووفي : **سيدي محمد بن أحمد المالكي الزياني ، الشهير بالعياشي** ، أصلح الله أعماله وأنجح في خير الدارين آماله . **سلام عليكم ورحمة الله تعالى** وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته . **عن تمام الخير والعافية** ، وما عوده ذو الفضل العظيم من الطافه الخفية ونعمه المتوافية . **هذا وقد بلغنا وانتهى الينا أن تلكم القبائل المحيطة بسلا، حسبما نقله الرواة** حديثا صحيحا ومرسلا ، **ما قاموا بواجب شكر الله في نعمه التي اسداها اليهم** ، واسبغها عليهم : وهي **ذاتكم** التي نابت عن الأمة المحمدية في أداء هذا الفرض ، الذي حمدت سعيه /19/

فيه أهل السماوات والأرض . ولبست قلوبها فوق دروعها ، ولم يضق بالرواح والغدو رحب صدورها . وصانت الذمام وحفظت الديار ، ووفت بعهد الله في رعاية دين النبي المختار . **وان من أولئك الأعراب مثبطا ومتربصا ، ومستهزئا ومنتقصا** ، وخادع وخاذل ، وماكر وعادل . **وطالما دعوتهم الى ذات الله سرا وجهارا ، ليلا ونهارا ، فما زادوا الا ازورارا ، ونفورا واصرارا . حتّى قامت بذلك الحجة** وبانت لكل الناس المحجة .

ويحهم ؟ ألم يعلموا أن الله تعالى لهم محاسب ومسائل ؟ **وان اتباعك والائتمار بامرك والتعلق باذيالك والانقياد لكلمتك والاذعان لحجتك واجابة دعوتك . هو لهم عند الله من أرجح القربات وأعظم الوسائل ؟** لانك ما دعوت الا لله ، ولا قطعت يومك وامسك الا فيما يرضي رسول الله ﷺ ما دام لك الله .

يا ليتني كنت معك ثانيا ، لا كسلا ولا متوانيا ، ويا ليتهم عرفوا أن الله تعالى قد أنعم عليهم بك ، ونظر اليهم بجهودك وسببك . فسيذكرون هذا ويندمون اذا وجدوا ما عليه يقدمون .

ولا عجب من قبيلكم الوافر المتظاهر المتواتر : قبيل بني ماللك بطن من شعب سويد الأحرار ، العرب العاربة الصرحاء الأخيار ، ما كنت أظن أنهم يملكون معك أرضا ولا جدارا ولا درهما ولا دينارا . ولا أحسب الا أنهم يحكمونك في رقابهم فضلا عن أموالهم ، ويصرفونك في ذواتهم فضلا عن أحوالهم ، ويشكرون نعمة الله في ذلك عليهم ، ويعترفون بالعجز عن شكرها . **ويلقون اليك مقاليد أمورهم** في حالتي خيرها وضيرها . **واذا كانت عادة القبائل يردون أمورهم /20/ لمن فيه خصلة واحدة من شجاعة أو رأى أو جود أو دين ، ويجعلونه المعول . فكيف لا يرده قبيلهم لمن جمع الله به وفيه هذه الخصال وزيادة ؟.** واحله بجهاده على الرتبة العليا من الرئاسة والسيادة ؟، وسلك بهم مسالك الطاعة ، وشيد لهم

فضلا تبقَى مناقبه الى قيام الساعة . فآها عليهم آها ، وواها لهم واها . لقد والله أخطأوا الطريق ، ولا وفقوا لمساعدة أفضل رفيق واسعد فريق ، فأكرم به من رفيق وفريق .

والى هذا فلا يهمنك شأنهم ، ان لم يجيبوا الطريق الراشد . فأعرض عنهم وعدهم كرجل واحد ، وان كانوا أوفر من حصَى البطحاء وأكثر من رمال الدهناء فالله وليك وناصرك وعباده المومنون ، وأحسبهم كالعدا ، ولهم من الله موعداً . وان تظاهر عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المومنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . فبالله النصرة ومن فيه غيرة اسلامية وحمية دينية ايمانية لا يسلمك — والله— ولا يخذلك . ورضي الله عن خديجة الصديقية الكبرَى : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتكسب العدم ، وتعين على نوائب الحق ، فيا ليت الوقت خاصتهم وعامتهم ، فقيرهم وغنيهم ، فقيههم وغير فقيههم ، أنصفوا وبالحق اتصفوا وبالاذعان اليه اعترفوا ، لمن سد عنهم باب العصيان وتحمل عنهم ما يوقعهم في غضب الملك الديان .

يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم . يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة . سارعوا الى مغفرة من ربكم /21/ وجنة عرضها السماوات والأرض .

فثق بربك ، وشد يدك على الاعتصام بحبله والانتصار به وبأوليائه المومنين الراغبين في كرم الله وفضله ، الساعين في طلب أعلى الدرجات الجهادية ونيله :

ومن تكن برسول الله نصرته   ان تلقه الأسد في آجامها تجم

ومن صرفه الله من الانخراط في سلك المجاهدين ، وتأبى عن نصرة

الدين ، فتلك عقوبة له من الله ومحنة . ولا حول ولا قوة الا بالله العالم بالطويات ، وهو المسئول في بلوغ المأمولات والأمنيات بمنه وطوله . والسلام .

وكتب عبد ربه تعالى – خديم المساكين ، وغبار نعال الصالحين – **محمد بن بوبكر الدلائي** وفقه الله بمنه أمين .

* * * *

وكتب رضي الله عنه رسالة للأجل الأفضل الأرضَى : أبي زيد سيدي عبد الرحمن العايدي يحضه فيها على اعانة سيدي محمد العياشي على ما هو بصدده ، باقواله وافعاله ان أمكنه ذلك . ونصها :

حفظ الله بمنه مقام الفاضل المعظم ، سلالة الصالحين ، سيدي **عبد الرحمن العايدي** . أدام الله سيادته ، وأجرَى بمواسم الخير عادته . **سلام عليكم** ورحمة الله تعالى وبركاته ، وتحياته ورضوانه الأعم وبركاته ، ما قامت بالجرم حركاته وسكناته . **عن تمام الخير والعافية**، والنعم الضافية السابغة المتوافية، **والسؤال عنكم كيف هو الحال**، في المقام والترحال ، أجراها الله سبحانه على وفق الأمل .

هذا وانكم كبراء أهل الغرب ، ولكم على قبائله رياسة دينية ، فعرفوهم بان ما هم عليه الآن من الاذعان للحق والانقياد له واصلاح السابلة والجهاد في سبيل الله ، هو الاسلام المنجي في الدنيا والاخرة وما سلف ما هو كفر ولا ايمان ، وانما هو محض عصيان وتمرد على /22/ الله تهد منه الجبال وتتزلزل منه الأرض . نسأل الله سبحانه أن لا يفضحنا به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، انه هو الجواد الرءوف الرحيم . والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

واشرحوا لهم أصل الهداية : فما هي الا من النبي ﷺ ومن أهل المدد من نوره ، وكل هداية غير هذا ضلال . واستدعوا من الله بقاء هذا السيد المرابط المجاهد في سبيل الله ، الولي الصالح العامل العالم الناصح العارف بالله ، المحقق الصوفي الرباني ، أبو عبد الله سيدي محمد العياشي . أعز الله أنصاره . فله مدد من هذا النور ، وسنده فيه والبرهان ينتهي من أستاذه المنقطع الى الله ، العارف بالله الامام أبي محمد سيدي عبد الله بن حسون ، أفاض الله علينا من بركاته الى وارث القطبانية والنور الشعشاع : أبي فارس سيدي عبد العزيز التباع ، الى القطب الجامع لاشتات الكمال : سيدنا ومولانا أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات ، رضي الله عنه وعن أبائه الطاهرين . أرشد الناس وهداهم الى الله تعالى ، وذكر العامة والخاصة على حين غفلة منهم ، وما ترك مصلى الا بلغه .

أما نهي القبائل عن قطع الطريق والظلم ففيه صلاح دنياهم ومعاشهم . واما الاخرة فما شعروا بها ولا عرفوها ، ولو عرفوها ما احتاجوا الى هذا . فالظلم يخلي الخيام ويعمرها بالايتام ، ويقصر الآجال ويفسد الأعمال ويسحت المال ، ويوقع في سخط الله ذي الاكرام والجلال . كان الملالقة اذا نهوا عنه وقيل لهم اتركوا الظلم وقطع الطريق ، يضحكون ممن يقول لهم ذلك ويستخفون بأمر الله /23/. فبالله يا سيدي أين حللهم اليوم ؟ وهل بقي منهم قبيل (يذكر). (فتلك) بيوتهم خاوية بما ظلموا .

وأما أمرهم بدفع الأعشار والزكوات فإنه لا يتم الايمان الا بذلك . قال الله تعالى : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فما بعد الصلاة الا الزكاة وببركتها أمطروا وعمتهم الخيرات ، والا فأهل هذه الجهات يبست زروعهم وجفت ضروعهم واشتعلت نار الفتنة بينهم ، فهم في أشد العذاب .

ولقد صرفها في مصرفها الشرعي واعان بها المجاهدين . وهم أكلوا الأعشار ، ودعوا لأهلها بالخير والخلف ، والحفظ من الهلاك والتلف .

واما دعاؤه الناس للجهاد واستنجادهم واجتماعهم عليه فان فيه قهر العدو والكافر ، وبه رد الله كيده في نحره .

مات والله الاسلام . قد قطع العدو البحر ودهم المسلمين في بلادهم وتخطف الناس من بين خيامهم ، وعدمنا من يعين عليه ، ويبكي علي هذا دهره . وهذا السيد المجاهد قد جمع كلمة الاسلام وأمرهم ، فما وجد معينا ، والله لو كان في ملة النصارَى من يفعل في المسلمين كفعله هو في النصارَى ، لملكوه رقابهم وأولادهم ، وولوه أمورهم وحكموه فيها . ولكن دينهم قائم وديننا مات ومات أهله .

وأخبروهم بان العدو الكافر لا يطرد بهذا ولا بأعظم منه . وتارة تظن بانها تطفي . هيهات هيهات . من طال عمره يرَى كيف تؤدى له الجزية الا أن يغيث الله عباده بنور لطف من عنده .

ها جزيرة الأندلس ، كان ابتداء قتاله اياها ومشاغبة أهلها من المائة الرابعة ، وكانت عليه فيها هزائم مشهورة ، وفي الدفاتر مسطورة حتَّى ابتدأها بوقعة /24/ العقاب[23] التي كانت على المسلمين . وتم لهم الأمر في المائة التاسعة فملكها كلها على قوة أهلها وكثرة جيوشهم وجموعهم وجنودهم وها هو الآن يطمع في هذه دمره الله وخذله وقطع طمعه أمين . والسلام .

وكتب أواسط ذي القعدة من عام ...[24] وألف خديم المساكين ،

---

(23) موقعة العقاب 1212/609 . انهزم فيها الأمير الموحدي الناصر لدين الله ابن يعقوب المنصور .

(24) بياض في الأصل. التاريخ هو 1043 ، وهو من البدور الضاوية .

وغبار نعال الصالحين ، **محمد بن أبي بكر الدلائي** كان الله له ووفقه لما يحبه ويرضاه آمين آمين .

ذكر الغزوة الثانية من غزوات الحلق من المعمورة بوادي سبو

قال في نزهة الحادي : ولما اجتمعت الكلمة على سيدي محمد العياشي ، ورد الله من نكث للعهد ، كان أول ما بدأ به أنه تهيأ للخروج للحلق ، واستعد لقتال من فيه من النصارَى ومنازلتهم . وطمع في فتحه ليتقوّى المسلمون بذخائره . وكان المسلمون قد حاصروه أيضا غير ما مرة ، وتعدد ذلك ، فلم يقدروا منه على شيء ، وصعب عليهم أمره . واشتدت لذلك شوكة من فيه من النصارَى حيث لم يقدر عليه المسلمون .

وكان سيدي محمد العياشي رحمه الله — اذا أراد الله أن يظفره بغنيمة — رأى في نومه أنه يسوق خنازير . ولما سار للحلق ونزل عليه ، رأى في نومه أنه يسوق قطعتين من الخنازير والعنوز معها . فكان من قضاء الله وقدره (أنه) في صبح تلك الليلة قدمت أغربة من السفن بقصد الدخول للحلق . فضيق عليهم الرماة من الخندق ، فأرادوا أن يتحرفوا ، فردهم ريح البحر لساحل البر ، فتمكن منهم المسلمون ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وسلبوهم ونهبوهم ووجدوا في الأغربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين (فاعتقهم الله) / 25 / ، ومات منهم أكثر من مائة ، وظفر بقبطان من عظمائهم ، ففدَى به طابق رئيس أهل الجزائر ، وكان عندهم في قفص من حديد .

انتهَى كلامه رحمه الله ، ولم يذكر لهذه الغزوة تاريخا والله أعلم بذلك[25] .

---

(25) وقعت في مايو 1627 ، انظر وثائق دي كاستري ، ابريطانيا 3 : 28 .

ذكر غزوة الغربية

قد ذكر هذه الغزوة بعض من قيد في الوقائع والحوادث قال : وفي عام ستة وثلاثين وألف ، كانت غزوة الغربية على يد السيد الفقيه المجاهد سيدي محمد العياشي ، رحمه الله : وكانت غزوة كبيرة مات فيها من النصارى ما يزيد على ثلاثة آلاف . وذكر حينئذ للسلطان زيدان بمراكش أنه كاد أن يقتل . فبعث اليه سيدي محمد العياشي بالخمس من الغنيمة — وكان لم يزل قائما بيده قبل أن يفرقه اذ كان لا يدخر شيئاً . والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

ذكر الغزوة الأولى من غزوتي عياشة

ذكر هذه الغزوة بعض[26] من قيد في الحوادث والوقائع فقال : وفي أوائل رمضان من عام ثمانية وثلاثين وألف ، وقعت غزوة عظيمة بالموقع المسمى عياشة قرب جبل الحبيب على يد الفقيه المجاهد أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد المالكي الزياني الشهير بالعياشي رحمه الله . وكانت غزوة كبيرة نصر الله سبحانه وتعالى فيها المسلمين على أعدائه الكافرين . فهزموهم هزيمة عظيمة مات فيها من الكفار نحو الخمسمائة وثمانية وثمانين كافرا . وحفظ الله تعالى المسلمين وأيدهم بمعونته ، وأسبل عليهم ستر عنايته ، فلم يدم منهم أحد . واستبدوا باثاث الكفر وأسلحتهم وأمتعتهم وأسلابهم سبحانه على ذلك .

ذكر الغزوة الأولى من غزوتي العرائش

/26/ قال في نزهة الحادي : وكانت غزوة العرائش — يعني الأولى — سنة أربعين وألف وذلك أن سيدي محمد العياشي — رحمه الله — كان صرف همته للتضييق على نصارى العرائش وشن عليهم الغارات . وكمن

(26) نشر المثاني — القادري — 1 : 153 .

لهم بالمسلمين في الغابة نحوا من ستة (أو سبعة) أيام. فخرجوا بغتة الى مشاربهم، فقام معهم بالمسلمين، وأحاطوا بهم من كل جانب، ومكن الله له ولمن معه من المسلمين من رقابهم، فلم يفلت منهم أحد في ساعة واحدة طحنوهم طحن الحصيد، والمنة لله.

انتهى كلامه رحمه الله. ولم يبين في أي شهر من أشهر السنة المذكورة كانت هذه الغزوة[27]. وبينه سيدي محمد العياشي في فصل من فصول رسالة بعث بها جوابا للسلطان الوليد بن زيدان بمراكش. اذ كان السلطان الوليد المذكور في أول ولايته كتب للسيد محمد العياشي، يؤكد عليه أن يعلمه بحال ثغر العرائش، ويستفهمه عن احواله. فأجاب سيدي محمد العياشي عن ذلك كله. ونص المحتاج اليه منها هنا: وقد أشار الكتاب الاسمى الى تعرف حال هذا الثغر ومن به من أهل الكفر. فاعلم أنهم قد زادوا في البناء، وصرفوا الى تحصينه وجه الاعتناء، وقد كتب الله سبحانه وتعالى في أواسط رجب، غزوة أسفر فيها وجه الاسلام مشرق الجبين، متهلل الصفحات بالنصر المبين: خرج من ثغر العرائش ما يزيد على الخمسمائة كافر، فما أفلت منهم أحد ولا رجع منهم راجع الى ذلك البلد. انتهى المراد منها. وستأتي بكاملها في محلها. وهذا الفصل يؤكد ما تقدم في النزهة ويبين تاريخه: اذ الاواسط تطلق على الثالث عشر/27/الى السابع عشر من كل شهر. والله أعلم.

ذكر الغزوة الثانية من غزوتي عياشة

قد ذكر هذه الغزوة بعض من قيد في الحوادث والوقائع فقال[28]: وفي السادس من رجب من عام أربعين وألف، وقعت غزوة عظيمة في الكفار على يد الفقيه المجاهد أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد المالكي

(27) المعركة وقعت بتاريخ 1631/2/18 موافق 16 رجب 1040

(28) نشر المثاني — القادري — 1 : 155.

الزياني الشهير بالعياشي رحمه الله ، بالموضع المسمَّى بالعياشة قرب جبل الحبيب أيضا . قتل فيها من الكفار نحو تسعمائة ، وأسر منهم مثل ذلك . ومات من المسلمين نحو العشرين رجلا ، ختم الله لهم بالشهادة ، وجعلهم من فريق أهل النعيم والخير والسعادة . انتهَى .

ولولا ما ذكر من تقدم تاريخ الغزوة الأولى عن تاريخ هذه ، وموت من مات في هذه من المسلمين ، وفي تلك لم يمت منهم أحد ، وأسر في هذه مثل من مات فيها ، وتلك لم يؤسر فيها من الكفار أحد ، لقيل انهما غزوة واحدة لوقوع هاتين الغزوتين بموضع واحد يقع به اللبس وعدم البيان ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

ذكر الغزوة الثانية من غزوتي العرائش

قال في نزهة الحادي : ووقع له — أي السيد محمد العياشي — أيضا مع نصارَى العرائش غزوة كبيرة . وذلك أنه أخذ حناشا من عرب الخلط أطليق ، يقال له ابن عبود ، فأراد قتله ، فقال له : يا سيدي استبقني ، فأنا أنفع المسلمين ، وأنا تائب الى الله عز وجل . فتركه وذهب اليهم — وكان موثوقا به عندهم ، حتَّى أنهم كانوا يؤدون له الخراج المرتب على ذلك — فقال لهم : ان احياء العرب وحللها قد نزلت بوادي العرائش ، فلو أغرتم عليهم على غفلة لغنمتموهم .

فاستعدوا /28/ وخرجوا مبادرين مكثرين . وكان سيدي محمد العياشي مع المسلمين مكمنين لهم فما شعروا الا وقد أحاط بهم سيدي محمد العياشي ومن معه من المسلمين ، فلم ينج منهم أحد ، وكانوا نحو اثني عشر مائة . فأخرجوا ابن عبود المذكور — وكان بقي عندهم وفي أيديهم — فقلعوا أسنانه ومثلوا به ، وراموا قتله ، لولا أنه قد رفعهم الى شرعهم فسرحوه . انتهَى .

ولما سارت بهذه الوقائع الرفاق ، وشاع خبرها في النواحي والآفاق ،

كتب الشيخ البركة أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي الى سيدي محمد العياشي رسالة يهنيه فيها بغزوة العرائش ، ويعلمه فيها بفرحه وسروره بما أيد الله به المسلمين على أعداء الله الكافرين من اعلاء كلمة الله . فكتب اليه سيدي محمد العياشي مجيبا برسالة يخبره فيها بورود كتابه عليه ، المتضمن تهنئته بغزوة العرائش ، ويعلمه فيها أيضا بغزوة المعمورة . ويشكره على ما كتب به اليه . ويستمنح منه الدعاء بالاعانة على ما هو بصدده . ونص الفصل اللائق منها (في) هذا المحل بعد صدرها : هذا وقد ورد علينا كتابكم المعظم ، أثير المحل لدينا ، كريم الورود علينا ، مهنئا بغزوة العرائش — أعادها الله دار اسلام — ومتضمنا سروركم بذلك وبما كيفه الله تعالى وسناه للاسلام .. انتهى. وتأتي ان شاء الله بكاملها في محلها . والله الموفق . .

وكتب إليه أيضا الأديب البارع ، العذب الموارد والمشارع أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد المكلاتي ، يمدحه ويمدح المسلمين الذين معه على ما أوقعوه بنصارى العرائش أعادها الله دار اسلام ، نثرا ونظما . ونص ذلك :

المقام (الذي) أحيى لدين الله معاهد ، وأوضح سننه /29/ (التي) أفصح عن حديثها الحسن عن طريق مجاهد . مقام سيدنا ومولانا مركز السيادة ، ونجمها الطالع ببرج السعادة ، عضد الدولة الاسلامية واس ركنها ، وكف الملة الشريفة وساعدها وانسان عينها : الولي الصالح البركة ، في السكون والحركة ، المرابط في سبيل الله ، المجاهد لأعداء الله ، **أبي عبد الله سيدي محمد بن سيدنا المقدس أبي العباس (أحمد) المالكي الزياني الشهير بالعياشي** ، لا أضحى الله الاسلام من ظله ، ولا أعدمه رواية الشكر عن ربيعه وفضله . **العبد الخائف يهدي للمقام الكريم تحية ود** ، يكبر شذاها عن أن يشبهه العنبر والند ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته .

هنيئا له بهذه الفتوحات ، التي تنزلت لحضور ولائمها الملائك ، واختلفت لمصافحة شهدائها على السرر المرصوفة والأرائك وافي البشير وأفصح عما كان من نصر الله وفتحه ، وذكر حديثها المأثور بشرحه ، واشار لكيفية الزحف والكر من المكامن والمسير الى العدو – دمره الله – بالبزاة المطلة الى الفناء في الحرب والثبات للطعن والضرب : اشراف فاس وشجعانها ونبهاؤها ، فيمن تبع دينكم من شجعان سلا ورباط الفتح ومن لهم تلا من أهل القصر (والقصبة) والهبط والخلط (وسفيان) وبني مالك وطوائف المسلمين ، رضي الله عنهم أجمعين ، الى مكان من مفاجاتهم واطلاعكم عليهم المنايا من الآكام والثنايا ، في عقر داره ومحله وقراره ، وثباته لزلزال الحرب وغصصها ، حتّى بصقت في وجهه المكاحل وتحكمت فيه السيوف ، بعدما توفته نجوم الأسنة ورمته من كل جانب في ليل النقع المثار ، حتّى اعتصم بالفرار . فغزته هنالك (جنود الله) صيدا لسيوفهم التي /30/ صيرها الطعن كالمناجل . فقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين . فرجتم والله عن الاسلام الكربة والأزمات ، وشفيتموه بهذه الهجمات ، جزاكم الله عنا أحسن الجزاء .

ووصل الى الحضرة قتلَى المعترك وكلماه شفاهم الله ، ودماؤهم يبست على الأقدام ، تشهد لهم بكمال الجرأة والاقدام ، فتضوعت الافاق من كلومهم مسكا . ان جاء من يبغي لهم منزلا قلنا له يمشي ويستنشق . بادروا – أعانكم الله – بحسم هذا الداء ، واستأصلوا شأفة الأعداء ، فالداء يسري ان غدا لا يحسم . والأعمال بخواتمها ، وشنوا – عليهم الغارات تلو الغارات ، فقد نادت الأيام – بالثارات ، واسعوا لجهادكم على المحاجر حتّى لا يبقَى – بحول الله وقوته – في بر هذه العدوة كافر ، ولا شخص منهم فاجر . فلا يغرب عن فطنتكم كيدهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر – عليهم دائرة السوء – واذكروا وذكروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على

الجزيرة ، واستيصالهم اياها ـ أعادها الله دار اسلام ـ لهذا العهد . **وكانت أضخم ملكا من هذه العدوة وأكثر عددا وعددا** . بل هي محشر العساكر . **فلم يزل العدو ينازلها من أطرافها** . ويطاولها من جهاتها ـ في حديث يطول شرحه ـ **حتّى انتظمت كلها في سلكه** . فباع رعاعهم الملوك ، وطافوا بهم في قطار الزيادة كما يطاف بالمملوك ، بذلة وامتهان وقهر وافتتان ، كما قيل في ذلك :

فلو سمعت بكاءهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تـفـرق أرواح وأبـدان
وطفلة مثل نور الشمس اذ طلعت ... أو كما تملى ياقوت ومرجان/31/
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
بمثل هذا يذوب القلب من كمد ... ان كان في القلب اسلام وايمان

فكم طفل بكَى فلم يرحم لبكائه . وكم شيخ خضبوا شيبه بدمائه : **وها هو قد عبر البحر الينا** . ومد الصليب بهذه السواحل ذراعيه علينا . وساعدكم ـ والحمد لله ـ أقوَى ، ونور ايمانكم أضوَى . وهو دينكم فاقصدوه .

الله الله في الاسلام . ادركوه قبل أن يموت ، وخلصوه قبل أن يفوت ، وحدثوهم بحديث القائل لرسول الله ﷺ دلني على عمل بعد الجهاد . فقال له : لا أجده . والله تعالى يشفي الآمال ويكمل هذا النصر بالامثال ، وهو سبحانه يمد آراءكم بالاصابة ، ويرفع (لكم على) هذا المعمور (راية) نصر تتلقونه تلقيا يصغر عنده عذابه ، بعون الله وامانه وعزه وحفظه في سره واعلانه[29] .

---

(29) وردت نفس الرسالة في كناشة خطية (الخزانة العامة ـ ك 932) ص 332 وورد في اخرها : في ثامن عشر رمضان عام أربعين وألف وكتب محبكم في الله واخوكم في ذاته ، الداعي لكم بخير في أوقات الاجابة العبد الضعيف الفقير الى عفو الله ورحمته =

وقـال :

طلائع البشرَى بجيش الصباح	على الدجا صارت تباري الرياح
فسرت الاسلام لما سـارت	وهـزت الايمان هـز ارتـياح
وأصبـح الـناس نشاوَى لها	واضحكوا حتّى ثغور الاقاح
أطربهم ما كان من خوفهم	ناهيك بالغر الوجوه الصباح
ثـلـثـموا بـالنقع يوم الوغَى	ومن غلاف الهند شدوا الوشاح
أقا وطيس الحرب يوم حمَى	راوا مذاق الموت عذبا قراح
فـيالـه مـن مـعرك مسـجد	قد ركعت فيه طول الرماح
وفي محاريب ضـلـوع الـعدا	قد سجدت لله بيض الصفاح
كلمي على الاقدام منهم دم	زكي لعمر الله مسك وفاح/32/
حـازوا أحاديث العلا عنهم	فـقـد بـرا تـعديلهم بـالجراح
دعـاهـم لـلـعيش في جـنة	تسـقيهم الولدان راحا براح

محمد بن أحمد بن يحيي الشريف البوعناني أصلح الله حاله . ومحبكم محمد بن أحمد ميارة . خار الله للجميع بمنه . وعبيد الله محمد بن محمد بن سودة رزقه الله رضاكم بمنه . ومحبكم عبيد الله سبحانه أحمد بن محمد الزموري خار الله له بمنه . ومحبكم الأكبر الشائق لزيارتكم عبيد الله سبحانه . قاضي الحضرة الفاسية حرسها الله . نائبا عن نفسه . وعمن بقي من السادة الشرفاء والفقهاء والأعيان والخاصة والعامة علي بن محمد الشريف المريني تاب الله عليه . وعبدكم المحب المخلص . محمد بن أحمد بن محمد المكلاتي . رزقه الله رضاكم بمنه .

وجاء في اخر التقييد : انتهى بخط المكلاتي المذكور . وتراجم المذكورين بالتتابع هي :

أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف البوعناني ، ولد سنة 988 . واشتغل مدة بالتدريس في القرويين وتوفي بفاس بتاريخ 1653/1063 .

أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن علي الزموري . ولي القضاء بفاس بعد وفاة القاضي علي بن محمد المريني 1053 . ولد 1012 وتوفي 1057 .

أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن سودة الغرناطي ، ولد بفاس سنة 1003 ، وتلقي العلم على مشاهيرها امثال خاله عبد الواحد بن عاشر ، وأبي العباس المقري . وولي الفتوَى والقضاء بفاس . وتوفي سنة 1076 (الصفوة) أو 1073 (النشر) .

علي الشريف المريني ، تولى القضاء سنة 1036 ، بعد وفاة القاضي بها .

ومن منار الدين ناداهم فاسرعوا سمعا لداعي الفلاح
يا لك من فذ إمام لهم في جامع الخيرات رأى الصلاح
حدث عن البحر وعن جوده تجد عطا يسده عن رياح
يكسو بني أصفر حمر الحلي من نسج بيض الهند يوم الكفاح
يغريهم التراب في حلقهم غصت بهم عمرا بطون البطاح
سيدنا العياشي يا خير من يمد جبريل عليه الجناح
يدا له بالله محفوظة لها من النصر العزيز السلاح
يبقيكم للاسلام يا كهفه خاتمة الخير وحسن افتتاح

وقال أيضا رضي الله عنه وارضاه :

ثغر العرائش ضاحك مستبشر
جذلان عن هذي الوقائع مخبر
غاب الرماح تشابكت أغصانها
روض المنايا بالجماجم مثمر
من مجمع البحرين هذا أحمر
ومن الحرير يهيج هذا أخضر
أمواجها الأمطار تبعث كلمهم
فالريح منهم ممسك ومعنبر
من كل عن عقد الفنا ما عاقه
بل الكتاب ولا الغزال الأعفر
جند الاله وحزبه أنصاره
يقتادهم يوم الوغَى غضنفر
جاءت براح الشجاعة واحدا
يفني به ذاك العديد الأكثر

فــاذا رمــاه المســلــمون تهللوا
واذا بـدا جنح العجاجة كبروا
فـلـه مـن الـنصر الـعزيز ملاءة
مسرودة، ومـن الملائك عســكـر
فبالله يا ريح الصبا عرج على
افـنـائـه من حيث سال الكوثر
واخلع بواديه المقدس من طوًى
فهناك من حرم الجلالة مشعر /33/
واســتــنــزل الـرحما لـقـيصر انـه
عصـفت به وبنيه ريح صرصر
فـلـعلـه يـعفـو ويصـفـح عنهـم
وعســاه يــبقي منهــم مـن يخبر
مــا ســار نحوهـم بجمع سلام
الا وجـمـعـهـم الصـحيح مكسر
رامـوا الـتـفـاؤل بـاسمه وبـعـيشه
فـبـدا لهم ضـد المراد فـادبروا
أضـحـوا حصـيـدا بـالعراء فرائسا
اكـفـانهم ذاك الـعـجاج الأكدر
الـطير مـن قـتـلـهـم أولم فيهـم
والذيب يحمد ذا الصنيع ويشكر
فـاراح روح الله مـن طـغيانهم
فتح على صحف الزمان مسطر
لا زال ذكرك في السطور ختامه
مسك فـتـيـق مـن ثـنـاه مـعطر

* * *

ولم يذكر في النزهة ، ولا العياشي ولا المكلاتي لهذه الغزوة تاريخا .

ذكر غزوة الحلق الكبرَى

قال في نزهة الحادي : ومن غزواته رضي الله عنه ، غزوة الحلق الكبرَى . وذلك ان أهل فاس أصلح الله أحوالهم ، خرجوا الى المعمورة بقصد الغزو ، ونزلوا بموضع يعرف بعين السبع . زهاء عن أربعة آلاف . وكمنوا فيه ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع خرج النصارَى من المعمورة على غرة ، فثار عليهم المسلمون . وكان النصارَى — دمرهم الله — على علم ، لما خرج جيش فاس بقصد الغزو ، وأعلمهم مسلم مرتد كان عندهم . فأعطوه سلعا . وجاء المرتد بها لمدينة سلا بقصد بيعها ، فعرف به ، فأخذ فقتل ، وعمي عليهم الخبر اذ كانوا ينتظرون ما يأتيهم به من خبر أحوال المسلمين . فلم يشعر النصارَى حتّى صاحبتهم الخيل وأحاطت بهم من كل جانب . وقتل من النصارَى ستمائة أو أكثر وأسر ثلاثمائة . ولم ينج /34/ الا القليل ، حتّى انه لم يبت في الحلق تلك الليلة الا نحو أربعين رجلا ، منهم . وكانت الغنيمة في هذه الغزوة اثني عشر مائة من العدة دون غيرها من الاسلاب ، والحمد لله الملك الوهاب . انتهَى .

ولما كان ذلك كتب اليه العلامة الرباني أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رسالة يهنيه فيها بغزوة العرائش ، ويعلمه بفرحه وسروره بما أيد الله به المسلمين على أعداء الله الكافرين من اعلاء كلمة الله . فكتب اليه سيدي محمد بن أحمد العياشي مجيبا له برسالة نصها :

أبقَى الله تعالى للمسلمين بركة الحبيب في ذات الله تعالى ، الولي في مرضاته ، فريد الزمان ، وقدوة الوقت والأوان ، مقيم سوق الكتاب والسنة ، ومعظم الحق بذلك والمنة على المسلمين ، ولله المنة ، **سيدي محمد بن الشيخ القدوة ، الشهير البركة الأسوة سيدي أبي بكر الدلائي . سلام**

عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته **عن** الخير **والعافية** والحمد لله ، وما تعوده العبد من فضل مولاه وما تعهدونه من المحبة التي تبثت المصافاة فيها ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتماس دعاء يستعين به المحب في صلاح دنياه واخراه .

هذا وقد ورد علينا كتابكم المعظم ، أثير المحل لدينا ، كريم الورود علينا ، **مهنيا بغزوة العرائش** — اعادها الله دار اسلام — **ومتضمنا سروركم** بذلك ، وبما كيفه الله تعالى وسنه لأهل الاسلام . **وقد سمعتم رضي الله عنكم خبر هذه الغزوة التي كيفها الله تعالى على المعمورة** ، وامتثلت أمره في رقاب الكفرة السيوف المامورة ، **وبلغكم من شرحها ما لم يحتج الى اعادة** ، ولا افتقر الى زيادة ، **وقد قوى الأمل في الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة /35/ مفتاحا لفتحها** ومقدمة تستلزم لعزائم الاسلام نتيجة نجحها . **فالمسلمون نازلون الان بعقر دارها ، ومرسلون الصواعق على أسوارها** ، حتّى تغرق ان شاء الله (تبارك) وتعالى بكفارها . ويأذن الله عز وجل ببوارها ، وتطهيرها من أدناسها وأوضارها ، وعودها (الى) ملك الاسلام بعد أبوقها وفرارها . **هذا الذي انعقدت عليه النية** ، وانطوت عليه الحنية ، **لكن يا سيدي أين المساعد ، والأمر لا ينهض به الواحد المسلمون جبر الله صدعهم وسير على ما يرضيه جمعهم لا يتفق لهم رأي** ولا يتبث لهم حفظ لحمَى الاسلام ولا رعي. **حتّى ان افتراق كلمتهم أضر على الاسلام من اجتماع عدوه** ، وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه . وقد ذهب الاسلام ضياعا ، وفاضت نفسه شعاعا ، حتّى ان الاسلام ، لو صور شيخا وجاءهم مستصرخا : يا اخوتي يا معشرَى في الشدة والرخا ، وهو يستغيث بهم فلا يغاث ، ويستصرخ فلا يكون لاستصراخه انبعاث ، **والمشتكي بذلك الى الله والى امثالكم أهل الله** . والأمر أظهر من أن يشار اليه ، والنهار أجلَى من أن يستدل عليه . **وحامل**

هذا ، الولد الأحظى ، الخاصة الأرضى سيدي الحسن ، يشرح لكم الحال على ما هي (بما) في علمه ولديه . وقد انسيتمونا في كتابكم الغربة التي أوحشتنا ، ونفستم كربة تخاذل المسلمين التي أدهشتنا . وما غاب عنكم أكثر ، وحسبنا الله ، والحول والقوة بالله والاعتماد على الله ولا أكثر . والله يبقيكم ، وللمسلمين منكم الذكر الحسن الذي لا يهزم ، ومن أدعيتكم المباركة الجيش الذي لا يهزم . أمين . **والسلام** .

* * *

انتهت الرسالة بكاملها /36/ ولم يذكر لها ولا فيها تاريخا ولا وقتا لهذه الغزوة المتكلم فيها . كما أنه لم يذكره صاحب النزهة كما رأيت . وكانت هذه الغزوة في الأيام الأواخر من رمضان من عام أربعين وألف ، على ما يظهر مما يرسم ويسطر .

وذلك أن السلطان الوليد بن زيدان بويع بعد موت أخيه أبي مروان عبد الملك بمراكش سادس شعبان العام . وكتب بفور ولايته للفقيه سيدي محمد العياشي يعلمه فيها بذلك ، ويستمليه ويستحسن أحواله وأفعاله ، ويستوصفه أحوال العدو والكافر في أطراف ما في الغرب من الثغور ، ويؤكد عليه في اعلامه في كل أمر من تلك الأمور ، ولا يغفل عنه في شيء من ذلك من ابتدائه الى تمامه حسب الامكان برسول أو مسطور . فكتب اليه سيدي محمد بن أحمد العياشي مجيبا له في نصف رمضان العام برسالة هنأه فيها باتصاله بالملك ، وعرفه بفرحه له وسروره ، وحضه على أن يكون على أفضل حال في القيام باعبائه ، من حسن السيرة وصفاء السريرة ، ومن الالتفات الى التهيئ والاستعداد لاقامة وظيفة الجهاد . وذكر له حال المسلمين مع العدو الكافر في هذه الثغور ، وأخبره انه لا يزال يعرفه بما يجب التعريف به ، وأعلمه أنه عازم على غزوة الحلق فيما قرب من الأيام . وهذا نص الرسالة بكاملها بعد تقديم ما يجب تقديمه من صدرها :

أدام الله تعالى مقام (الخلافة) الشريفية الحسنية الوليدية المنصورية السنية توفيقا يتكفل بصلاح الدنيا والدين ، ويسلك به مسالك الخلفاء الراشدين الهادين المهتدين .

سلام على ذلك المقام الاسمَى ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته ، ما قامت بالجرم حركاته وسكناته عن تمام الخير والعافية ، والنعم الضافية المتوالية المتوافية ، والحمد لله على ذلك من منن اللطيف الخبير، وما تعوده العبد من عوائد فضل ربه على ما به من التقصير.

وانه ورد علينا كتابكم المرفع المقبل ، بالنبأ السار : المبشر بما كيفه الانصاف وجرت به الاقدار ، من تخلص بدركم من السرار ، وارتفاعه في شرف الأقمار والابدار ، وانقياد الخلافة الى أيديكم طائعة ، واجتماع الكلمة عليكم مبادرة مسارعة . فلله الحمد على ما وهب من ذلك ومنح ، وهيأ الصدر له وشرح ، وقد علمتم انا أحق من بشر بهذه البشرَى، وأسر الناس بما يسر مقامكم الاسرى، واعتناءنا بالدعاء لكم بخير الدنيا والأخرى ، واهتمامنا بكم فيما هو أولى برضَى الله واحرَى . وبحسب ذلك لا نالوكم تنبيها وتذكيرا ، ولا نقصر عن مراشدكم اهداء وتحذيرا ، وقد عظمت منة الله تعالى ، والطافه تزيد وتتوالى ، اذ أضاءت الحال بخروج الصديق من الورطة والضيق ، واستخلاصه من الهلك الى اتصاله بالملك ، وانها لحال موجبة لشكر الله تعالى وحمده ، وتقييد النعمة التي لا تصدر الا من عنده .

وشكر العبد لربه ، يكون بلسانه وجوارحه وقلبه ، يستعين العبد بنعمة ربه على طاعته ، ويحافظ على القيام بذلك الواجب ويحذر عنه من اضاعته . فيجعل الله تعالى شعاره ودثاره ، ويخص بما يرضي الله تقديمه وايثاره . فتقوَى الله عصمة في الدنيا والاخرة وخير الزاد للمعاد وأفضل

الملابس الفاخرة ، وهي النجاة من موارد الامام والمقتضية لحسن الحال الحافظ للنظام ، وجماع مقاصدها الذي به تسلك /38/ فيما يؤخذ به ويترك : اتخاذ قول الله تعالى : وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا اماما ، والتزام الاستقامة المامور به في قوله تعالى : فاستقم كما أمرت ؛ متى رام مراما . وسلاك هذا باشعار القلب خوف الله سبحانه وان يلزم مراقبة ربه سره واعلانه . وهذا لا يخص مكلفا ولا يعين رعية ولا مستخلفا . الا أنه آكد وأوجب في حق من استرعَى أمر غيره . وذلك عهدة خيره وشره . فهو مستخلف مسئول عن رعيته ، ومعامل بسيرته ، ومعرف أحكام الشريعة فيهم ، يوصلهم الى حقوقهم ، ومنها يوفيهم . وانه لخطب جزيل وعبء ثقيل لا ينهض به الا بمعونة من الله وتأييد ، وتوفيق منه لعبده وتسديد .

وانفع ما للمقلد في ذلك — بعد الاستعانة بالله والثقة به ، واجراء وجه الصواب في كل أمر مشتبه — مشاورة العقلاء الذين لبسوا من التقوَى خير لباس ، واقتبسوا من العلم نورا يمشون به في الناس ، فمجالسة أهل المعرفة والفقهاء الذين هم على هذه الصفة لقاح العقول والخواطر ، وجلاء الأفكار والبصائر ، وضمان حسن السيرة واستقامة السريرة التي هي أساس تتبثه ، ان كان الخليفة (يتحرى) بالعدل ما يقذفه الجور من المخالفة . ومتَى اشعر الخليفة قلبه خوف الله تعالى ، اشعرت الرعية مخافته وهيبته (والتزم طاعته ماموره وتألفت على الطاعَة)[30] واشربت لبان وده ومحبته ، فاستقامت أموره والتزم طاعته مأموره ، وتألفت على الطاعة والتمسك بحبل الجماعة ، ومتَى عرض في هذا الأسلوب اعتلال ، عرض في الخلافة انتقاض واختلال . ولا أضر/39/ من بطانة السوء ، فهي الداء لا الدوا . والواسطة التي توسل بها — لالقاء دسائسه — شيطان الغوى ، وكم عرش

(30) سهو من الناسخ جعله يكرر الجملة .

دولة ثلته البطانة ، واجرت على مرفوع عزة أذياله الأهانة . وفريق السوء يردي ، ويلحم في الغواية ويسدي ، فليحذر الخليفة بطانة السوء على حرمه ، كما يحذر الراعي الذئاب على غنمه .

وليجعل عداوة أهل الكفر نصب عينيه ، ويحضر ذهنه ما تنطوي سرائرهم عليه ، وما يزعمونه من شرف الخليفة من أجله ، ونبت فرع خلافته من أصله ، فيعاملهم بما يستحقونه (كذا) العدا ، ولا يكف عن جهادهم ما استطاع يدا . فبذلك يعز ملكه ويعلو ، وما ترك قوم الجهاد الا ذلوا .

وليعظم حرمات الله ، فهو خير له عند ربه . ومن تعظيمها تعظيم أهل الدين وحزبه . فان حزب الله هم الغالبون . ومن عادَى لله وليا فهو مبارز له ومحارب ، وليرحم عباد الله تعالى ، ويوسعهم جانب حلمه واحتماله ، فان الخلق عيال الله ، وأحب الخلق الى الله أحبهم لعباده ، وليجمل بنور العلم غمام الظلم وضلاله . فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، ولا سيما عن الضعيف والمسكين الذي لا استغاثة له الا بربه ومولاه . فان غضب الله يشتد على من ظلم من لا ناصر له الا الله .

ولما لنا من الخير لذلك الجانب ، والاهتمام بما هو أصلح له في المعايش والمثاب ، قدمنا له من التذكير ما حضر في الوقت ايراده ، ويسر أسبابه اعانة الله وامداده .

والذي يجب التعريف به ان أهل فاس خرجوا للجهاد في مهل شعبان بما بلغته الاستطاعة ، ووسعه الامكان ، وكتبونا من ازغار الى فحص طنجة اعادها /40/ الله (دار اسلام) يستدعوننا للقدوم عليها والوصول اليهم . وبعد ذلك وصل الينا كتابكم الأسمَى المبشر بهذه النعمة العظمَى ، وقد كان قصدنا مصروفا الى منادبة الجهاد في تلك الثغور ، كما

سلفت لنا الاقامة هنالك ما شاء الله من الأيام والشهور ، ما بين العرائش وطنجة وسبتة ، لا نالوها الغارات هجوما وبغتة . والقيت فيها للجهاد رحلي ، فاتخذت من فحصها وطنا ، ومن الواردين لجهتنا غرة أهلا . لننظر ما ينظره كل مخلوق حي ، ونتزود ما أمكننا للقاء من بيده ملكوت كل شيء .

فلما خاطبونا بلقائهم على المعمورة ، والبلد المشهورة ــ محل اختيارهم ومكان انتقامهم ــ لم نجد من استعافهم بدا ، ولا لما أرادوه مردا . على ما كنا فيه من استجماع النية على الاقامة في تلك البلاد ، والتسبب في اسباب فرصة تنتهز هنالك للجهاد ، فما كدنا نتوجه اليهم الا بعد لاي ، ولا ندنو منهم الا بعد بعد شقة ونأى حي . حال من يصرف عن قصد عمره ، ويغمر به قلبه وصدره ولولا تخوفنا من أدعيتهم ، ومخالفة نيتهم ، ما انصرفنا عما كنا فيه وان كان ما قصدوه في القصد الأعم لا ينافيه .

فلقيناهم في السابع من رمضان ، وكتبنا هذا ومضارب المجاهدين بمشرع الرملة ، واقامتهم بالمكان قدر الامكان ، يرقبون انتهاز فرصة في العدو ، ويختفون هنالك ليكون لكلمة الله الظهور والعلو . والله سبحانه وتعالى يتقبل أعمالهم ويبلغهم في ذلك مقاصدهم وآمالهم . وقد أشار الكتاب الاسمَى بالخطاب الاسنَى الأحمَى ، الى تعرف حال هذا الثغر ومن به من أهل الكفر . فانهم قد / 41 / زادوا في البناء ، وصرفوا الى التحصين وجه الاعتناء . وقد كيف الله سبحانه وتعالى في غرة رجب غزوة اسفر فيها وجه الاسلام مشرق الجبين ، متهلل الصفحات بالفتح المبين : خرج من ثغر العرائش ما يزيد على خمسمائة كافر ، فما أفلت منهم أحد ولا رجع منهم راجع الى ذلك البلد ولا نزال نعرفكم ــ أيدكم الله ــ بما يجب التعريف به ويسر مقامكم بسببه وكذلك أيدكم الله لا تغفلون من الكتاب والاخبار بما تجدد من الاخبار ، فلنا بصلاح أحوالكم اعتناء واهتمام ،

ودعاء ترجَى اجابته على الدوام . والله تعالى يديم لذلك المقام توفيقا يشمل المعاش والمعاد ، ونصراً عزيزا يصحب الغزو والجهاد وتصلح به البلاد والعباد . ومعاد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته .

في يوم الخميس الخامس عشر من رمضان عام أربعين وألف .

* * *

انتهت هذه الرسالة بكاملها .

وقد ذكر في أواخر الفصول من فصولها ما يدل على بيان وقت الغزوة وتعيينه . وذلك أنه قال : والذي به أن أهل فاس خرجوا بجيوشهم للجهاد في مهل شعبان .. ثم قال فلقيناهم في السابع أو التاسع من رمضان .. ثم قال : هذا ومضارب المجاهدين بمشرع الرملة .. ولا يمكن عادة أن يبقَى الجيش في مكانه بمشرع الرملة أو غيره مدة مديدة يقع الشعور به للعدو معها ، لأن ذلك بغير ما جرت به عادة أهل الحرب في حروبها ، ومخالف لما تقصده في خدعها ومكايدها وأنواع ضروبها ، لا سيما وقد عين يوم كتب هذه الرسالة : وهو الخامس عشر من رمضان عام أربعين وألف . فقد رشدت هذه الجملة الى ان غزوة الحلق /42/ الكبرَى اما أن تكون في أواخر رمضان المذكور أو في أوائل شوال المذكور بعده ، على قدر ما تحتمله العادة الحربية في ذلك . والله أعلم بالتحقيق وبيده التوفيق .

ولما وصلت هذه الرسالة الى السلطان الوليد بن زيدان ، وتصفح ما احتوت عليه من فصائح الفصول التي انتهجتها رجائح العقول ، وصحائح النقول . وتلقي ما اشتملت عليه من النصائح بالرضَى والقبول ، وعدها من أعظم المنائح المرتجاة وأفضل السئول ، كتب الى سيدي محمد العياشي

رحمه الله رسالة يشكره فيها على ما كتب به اليه ، ويمدحه على ما نبهه اليه من اقامة العدل والسنة ، واذهاب الجور والفتنة ، ونصرة الدين في السر والاعلان ، وكف المعتدين عن العدوان ، واعلاء كلمة الله بجهاد اعداء الله ، مستعينا على ذلك بالله ، والحول والقوة بالله.

فأجابه سيدي محمد العياشي برسالة نصها :

المقام الذي سما في الخلافة مقداره ، واستوَى في الاناقة اهلاله وابداره، وتساجل في المكارم الغر والفضائل التي تستعبد الحر ايراده واصداره ، وتواصل في اسداء الصنائع وابداء الخصال الروائع ، مقام الخلافة العلية الظرفية المنصورية الوليدية الحسنية ، أيده الله تأييدا ينظم المآثر على هام الزمان تاجا ، ويوضح سعادة الدين والدنيا ، واقتفاء كل ماثرة عليا ، طريقا واضحا ومنهاجا ، بكرم الله وفضله ومنه وطوله ، سلام كريم ، كما نم النسيم العاطر بنشر الروض الناضر ، في الصباح السافر ، غب الغيث الماطر ، يعتمد المقام الكريم بالرحمات والبركات والتعظيم.

اما بعد حمد الله تعالى /43/، ناصر من نصره ، ومديم نعمته على من شكره ، ومانح العز والظهور لمن أعز دينه وأظهره ومؤلف قلوب عباده المومنين على غزو أعدائه الكفرة . ومعرفهم أن تألفهم على طاعته هي الغاية المستمنحة من تعارف أدوالهم المستثمرة المستخرجة والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه ، الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وينصره ولو كره من كفره ، وجحده وانكره ، وعلى النبي وأصحابه ، الأشداء على الكفرة الرحماء بينهم في المعسرة والميسرة المقتفين — في إظهار الدين وجهاد الملحدين — سبيله وأثره. فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم سعودا تقتضي دين الفتح المتاح، واسترجاع ما غصب الكفر واستباح، في مطل الأيام نقدا معجلا، وتطلع في يوم الكفاح المثري

بلوامع الصفاح في نصر الاسلام غدا محجلا . وبحمد الله الا محض فضل من الله تعالى يتعود . واغتنام عمل صالح يدخر للقائه ويتزود ، وتحقق من يوصيه الذات اللازم ، ويقين الاعتماد على ربه والثقة به ثابت جازم . واعتماد للمثابة العالية بمقدور الاحتفاء ومستطاع الاعتناء ، وانعطاف لها بالخلوص والود المخصوص بمستطاع الانعطاف والانثناء ، ودعام لها يعمر الأنام (؟) والاسناد والاحفاد . بتوفيق يتكفل بصلاح البلاد والعباد . ويشمل نفعه جانبي المعاش والمعاد ، وتأييدا في معارض الالتباس والانتباه والاشتباه، والهام، مهما عرض في سماء الفكر عارض، جلاه باستيقاظ وانتباه ، واعانة على نصرة الشريعة الشريفة ، وتشييد أركانها الرفيعة المنيفة ، وسلوك سنن السنة النبوية المحمدية ، ورفع أعلامها ، وتصريف الصوارم والاسنة /44/ اللهذمية في خدمة حروف أقلامها ، حتّى يعود الدين كما بدا جديدا ، وتستقل معالمه تشييدا ، ورسومه تجديدا . وتفيء الأمم الى ما لدى عدله فتقف عندما رسمه تحديدا ، وتتفيا من وارف ظله ظلا ظليلا بسيطا مديدا .

وانه ورد علينا كتابكم ، المرفع منظم نظم السلك الفريد بالغا في البلاغة انتهاء الذي أراده المريد ، محبرا تحبير البرود ، معبرا باللفظ الرائق عن المعنَى الفائق المقصود . يصبو الى محاسنه الصابئ[31] ويعتمده ابن العميد[32] . ولو استفهم من منشئه في الافاق ، واعتمد الشبه في الاستلحاق ، لقالت البلاغة وهو أحمد : هذا ابن عبد الحميد[33] يكور الليل على النهار ، ويزين سماء الطرس في ليل النقش بكواكب النضار

---

(31) أبو اسحاق ابراهيم الصابئ ، كاتب الانشاء في بغداد أيام عز الدولة بختيار البويهي توفي 348هـ .

(32) أبو الفضل محمد بن العميد ، وزير ركن الدولة الحسن بن بويه . كان له اهتمام بالفلسفة والنجوم والترسل والأدب ، حتّى كان يسمى بالجاحظ الثاني . توفي 360هـ .

(33) كثيرون يحملون هذا الاسم . لعله ابن عبد الحميد الكاتب .

كالبهار ، يتمنّى ابن مقلة[34] — ليبصره ان يكون مقلة ، ويريد بن البواب ، ألا تكون له عن بابه البهيج وجنابه الأويج نقلة . قد أدبج نهاره في البلد صوانا وجعل — على تمكن السر — في سويداء السر عنوانا . يفصح عن مراده مضمونه ، وتشير الى مقاصده عيونه . ولا أحسن مما أبان عنه من تشييد معالم الدين ، وتجديد رسومه التي كادت للدروس لا تبين واقامة القسطاس بين الناس والرفق بالرعية ورعي الحقوق الشرعية ، وتفقد حملة الشريعة اعتناء واتساء . والغادات والمراوحاة للدروس العلمية ، صباحا ومساء ، وتوجهه بالعزم الى الجهاد والتأهب له والاستعداد فحمدنا الله لكم على ما منحكم به وخصكم فان نعم الله لا تحصَى ولا تعد ولا تستقصَى. الا أن أعظمها /45/ واسناها، واسرها واهناها نعمة يصيب جناها في الفانية والباقية ، ومنة — برضي الله — هي وافية ، ومن غضبه واقية : وهي تقوي الله تعالى المتكفلة بالنجاة ، وبلوغ البغية المرتجاة حالها ومالها ، فانها خير لباس يتدرعه التوفيق شعارا ، ويستشعر به خيفة الله تعالى ومراقبته استشعارا سرا وجهارا . وهي المعصمة في الدارين والجنة ، والصراط المستقيم ، الموصل الى الجنة . والسبب الذي يتمسك به من كان من العناية الأزلية بمكان ، والمطلوب الذي يطلب به من المكلفين — على الوجوب — كل انسان . هذا وان كان كل واحد به مطلوبا ، وبانه فيه مشغولا ، وعن خويصة نفسه في القيام بالواجب مستخبرا مسئولا ، فمن ولاه الله أمر بلاده ، واسترعاه — سبحانه — على عباده ، يعمه في ذلك في حق نفسه ما عم غيره ويزيد بتكليف النظر فيما ولّي أمره . فهو بما استرعاه الله تعالى من نفسه وغيره مشغول ، وعن الكبير والصغير منه مسئول . ولينظر في جزئية ما يناط به وكليته ، وليراقب فيما يأتيه أو يدره — عالم جليته ومؤليه لينظر كيف يعمل في أمور عباده وبريته . والا فكلكم راع

(34) محمد بن علي بن مقلة . توفي سنة 328هـ .

وكلكم مسئول عن رعيته. فيلزم العدل، بالعدل قامت السماوات والأرض، وباقامته السنة والفرض. فبالعدل تشد أركان الدين والدنيا والتقوَى. أعدلوا هو أقرب للتقوَى.

هنالك المسلمون في ظل أمنه يستريحون، ومن كنف عدله لا يبرحون فترتفع منزلته عند الله تعالى ويتسع نزوله. وحسبه باظلال الله له، يوم لا ظل الا ظله.

واذا كان الواجب عليه أن يوفي الأمة بالنظر فيما من الدنيا /46/ عناها ويعتني بحماية اقصاها دارا وابعدها وادناها، فالدين أولى والاهتمام باحياء شرائعه واقامة شعائره أوضح في الوجوب وأجلَى. فليبلغ غاية مجهوده في حملهم على القيام بحقوق الله تعالى، والوقوف عند حدوده، فلا يهمل من ذلك شيئا، ولا يغفل أمرا ونهيا. ومعالم الديانة وحدود الشريعة معروفة، وطرق القيام بها، والتمسك بسببها معهودة مألوفة.

وللوقت أحكام تخص بالايثار وتعين، وتوضح ما يجب اليه وتبين: وان الجهاد مما اشتهر وجوبه اشتهار النهار. فلا يحتاج الى دليل ولا يفتقر فيه الى استظهار، وهو فرض كفاية ان لم ينزل الكفرة دار الاسلام، ولم يقربوا ساحتها بالمام. اما وقد نزلوا الثغور، وامتدت أيديهم الى أواسط المعمور، وجاذبونا طرف الرقعة، وانتزعوا من أيدينا الوطن والبقعة، ففغر الكفر على هذا القطر فاه، وامتدت اليه من البر والبحر كفاه، فلا يمتري في فرضه، ووجوب القيام لله تعالى به في أرضه. والخطاب بذلك يعم الأمة، ويخص بالتعيين الأئمة. فالامام هو المتقلد لتلك العهدة والمسئول بين يدي الله تعالى عما عنده. وهل وفى ميثاقه وعهده؟ فليختر الان لنفسه حال من لقي ربه على أحسن عمل وطاعة، أو على تفريط لواجب حقه واضاعه.

والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم فائزون بتجارة تنجيهم من عذاب أليم . وتوجب لهم رضوانا من الله تعالى . وذلك هو الفوز العظيم . فأسعد الأئمة من فاز بهذا الحظ سهمه /47/ ولم يبعده عن هذا المغنم الوافر وهمه . وها هو ذا الاسلام يشكو من الكفر ويستغيث بمستنصر أوليائه أهل التوحيد على أعدائه أهل التثليث . ويستصرخ أهل الدين الطيب على أهل الدين المنتحل الخبيث . ويستمد أهل ملته . والى السلطان ــ أيده الله ــ سياق الحديث . وما أولى السلطان أيده الله تعالى ونصره . وأعز الاسلام وأظهره بالقيام بهذا الغرض . وقرض الله تعالَى به أحسن القرض . على حين اضاعه أهل الامصار . وقصر عن نصرة الاسلام أهل الاقطار والامصار . فلا حامية مع كثرة العدد والعدد والأنصار . فاعتبروا يا أولي الأبصار . أنسوا العداوة الدينية أم رضوا في دينهم بالبلية أو ذلت النفوس الأبية واضمحلت الحمية والعصبية ؟. بل هم في غمرة ساهون وعما يريد بهم الكفرة لاهون . قصارَى أمرهم التفرق فرقا . والاختلاف في المذاهب طرقا . فيتميز منهم ما يتميز . ويتحيز عن الفئة ما يتحيز . حتَّى ربما جمح ببعضهم الغي وطوح بهم فائل الراي الى غاية صورت لهم العدو وليا واثبتت لهم من النفاق (منهاجا) واضحا جليا . كم ناداهم الاسلام فصموا عن ندائه . واسلموه في يد أعدائه . وتركوه يموت بدائه . ومع هذا يريدون أن يعدو في اردائه . ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . كذب الله ظنهم الذي ظنوا . وخاب أملهم الذي أملوا . لا جرم أن عمهم العصيان وسر الكفر منهم ما ساء الايمان . فبادروا بما جاء به المقرون . فلا ينطقون . ولا يوذن لهم فيعتذرون .

واذا ادخر الله للسلطان أداء هذا الواجب واختصه لابراء المسلمين من عهدته فلم يعجب العاجب ؟ قد يستأنف في الزمان /48/ المتاخر ما فات في القديم . ذلك فضل الله يوتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

وحسب المخصوص بهذه المهابة المسارعة الى المجاواة من الله تعالى . تحت مثار النقع ساهما ولأوليائه المومنين في حرب أعدائه الكافرين مساهما . فما أحسن المطاع مطيعا لربه . ومشفعا أجر نفسه باجر اتباعه وحزبه . فبحسب ذلك منه ان يباشر أجره وخيره . ولا يخص بهذه المثوبة غيره . وكفَى بثوبة من رفع الصلبان عن الأمة وكشف عن الاسلام — وقد طالت شكواه لأهله — الغمة . ففتح باب الجهاد للأنام . وقد طال عنه الاستفهام . وأجاب بالأقلام والرماح والسنة الصفاح داعية . وقد جاء به الاستفهام . ذلك للمخصوص من الله تعالى بالأثرة . التي يؤثر بها سواه . فما أحقه بما يؤثر رضاه . ويدع في اثار الدعة هواه . ولا يصغي الى مثبط ولا مبطيء . ولا يقلد في ذلك مجتهدا فانه مخطئ الا أن يقتضي الحال وجها يحمده النظر . ويلحق من غاب عذر من حضر . ووفي في توجيه المدد والقوة والعُدد النزر ، بمن باشر وخضر . فللنية مع القدرة تأثير . ومحل في حصول الأجر أثير . ومبلغ نفسا عذرها مثل منجح ومثيب واتي في توفية منذوره مفضل ومرجح .

وما أريد أن أشق عليك . ولا أن أكلفك ما لم يسعه الامكان اليك . مع ما لنا من ملاحظة ذلك الجناب . بعين الرأفة والتلطف الخفي . والبر المتواصل والرعي الحفي ، ما شأنه أن يكون للوالد مع الولد . ومن حبه لله لا لغيره يستمد . والله تعالى يختار لكم من متعرف اليمن مسلكا موصلا الى الأحسن ودليلا عن /49/ الأنفع أوضح وأبين . والحمد لله الذي وفق أمير المومنين الى ما أخبر به في كتابه وضمنه شريف خطابه ، من اختيار الوجه الذي هو أعظم فخرا وأجرا . وأسبق في ميدان القبول الرباني واحرى ، من صدق العزيمة في التوجه الى الجهاد . بالنفس الكريمة . والله تعالى يمده بعونه ويكلاه بحفظه وصونه . الى ما اتصل بذلك من الاحتفال بالجهاد ، بأنواع التأهب والاستعداد من كثرة الحشود

والاجناد وانتخاب أهل الحفائظ الانجاد المطيقين مراكن الرايات . وازاحة عللهم بالاعطية والجرايات إلى ما يصحب ذلك من الخزائن الموفورة . والمحمولة والموقورة ، والعدد المتنوعة والرعادات القاذفة بالاكوار . والقاضية على ما لاقته بالبوار . ونقير البارود الذي منه استمدادها وعليه مدار الرواية واعتمادها والاستكثار من الفعلة الذين يثقبون تحت الأرض نفقا . ويمهدون للخسف بما فوقها طرقا . إلى سائر ما يستعمل في الحروب من الأنواع والضروب ، فلله الحمد على ما منحكم ، من ذلك من امتثال امره تعالى . باعداد ما يستطاع من القوة . واعدادكم للجهاد ما تحصل به — بحمد الله — الغاية المرجوة ، فان هذا والحمد لله استعداد يمحو أثر الكفر محوا ؛ ويعقب في سماه الحق من غيم الباطل صحوا . فيفيض الاسلام على الكفر تيارا . ولا يدر على الأرض من الكافرين ديارا .

الا ان هذه الجيوش الظافرة، والعساكر المتظافرة — وان كثرت اعدادها وتوفرت امدادها — فينبغي الا يكون لا لها معول الا على نصر الله وفضله ووعده الصادق /50/ في اظهار دين الحق على الدين كله. فتبرأ إلى الله تعالى من القوة والحول، وتيقن ان ظفرها بمحض المنة منه والطول. فتزود لذلك خير زاد، وهو التقوى واعلم ان العمل بطاعته والثقة باعانته هو العدة والجنة والسبب الأقوى . فتلك العدة التي تختص بها لا عن العدو ، وترجو بها الظهور عليه والعلو ، اما الكثرة والعديد ، والسلاح الجديد . والباس الشديد ، والباع المديد ، وافر مشترك ، يتكافؤ فيه أهل المعترك ، وانما يتفاضلون بصالح الاعمال والثقة بمن إليه لا لغيره تمديد الآجال ؟ .

وقد كتب عمر بن الخطاب لسعد بن ابي وقاص رضي الله عنهما رسالة كشف له فيها من الحق قناعا اقنعت عن التشوف الى غيرها ، في ذلك اقناعا ، ولطولها والرغبة في وقوفكم على محصولها أوردنا[10] مدرجة .

ورجونا ان تكون سبيلها للمجاهدين مسلوكة منتهجة وأعون ما له ـ أيده الله ـ على ذلك هذه المسالك . وبلوغ ما يريده من ذلك . أن يتخذ العلم اماما ، ويجعله مستشارا مهما رام مراما . فالعلم هو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل ، وهو النور المبين والبرهان على صدق الصادقين وكذب الكاذبين . وبممارسة ومشاورة ومجالسة (أهل العلم)، وليختر منهم من طلع نجم الهداية من قلبه . ويشهد لصحة علمه صالح عمله وقد غلب عقله على هواه ، وقصد بعلمه وجه الله لا سواه ، يوثر دينه على شهوته . وينصح لله ولرسوله ولكتابه ولائمة المسلمين ولخاصتهم وعامتهم بمبلغ قوته . وليس بمحض العقل في التحسين والتقبيح مجال /51/ وانما يرجع الى شاهد الحق فيعرف الرجال بالحق . ولا يعرف الحق بالرجال . ولا يخلو الزمان ولله الحمد ممن تقوم به الحجة . وتتضح بقيامه المحجة . فلا يزال نور العلم بفضل الله لائحا . وطريق الحق فيه بينا واضحا .

وما توفيق أمير المومنين الا بالله . وما توكله الا على الله وهو سبحانه ولي امداده . في صدوره وايراده بنصره وتأييده . وتوفيقه وتسديده والمهيئ للاسلام في أيامه وسعادة بنوده واعلامه منحا يدل العاصي . ويناول القصي . ويسهل العسير . انه (على) ذلك قدير وبالاجابة جدير والسلام .

ذكر بعض ما له من الرسائل الى بعض المدن والقبائل

قد ذكر بعض من قيد في الحوادث والوقائع أن يوم الجمعة التاسع من المحرم الحرام . فاتح عام واحد وأربعين وألف . وقع النداء بقطع استعمال دخان العشبة المسماة طابة وترك استفافه على يد الفقيه العالم العلامة المجاهد في سبيل الله أبي عبد الله محمد سيدي محمد بن أحمد المالكي الزياني المدعو بالعياشي رحمه الله . واستمر ذلك مدة . ثم عاد اليه المستعملون له

قريبا . ولم ينفع فيه أمر ولا نهي . ولا وعد ولا ايعاد ولا زجر والعياذ بالله من ذلك . انتهى .

وله رحمه الله تعالى ورضي عنه رسائل كان يرسلها الى أعيان القبائل وأهل البادية والحاضرة الأفاضل ، ونورد هنا ما وقفت عليه .

فكتب رضي الله عنه لأهل فاس (رسالة) نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلّى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وذريته وحزبه ، عيون الأمة وأبصارها . وأعوان الملة وأنصارها من /52/ الشرفاء والفقهاء والخطباء والنبهاء والقضاة والأعيان والرؤساء والأبطال والشجعان من أهل حضرة فاس ، التي ليس في جلالة قدرها اختلاط والتباس . وصل الله توفيقكم . ومهد لخير الدارين طريقكم ، وجعل حزب الله ورسوله ، وفريق المجاهدة في سبيله حزبكم وفريقكم . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته . ما قامت بالجرم حركاته وسكناته .

عن تمام الكلام بالخير والعافية . والنعم الضافية . والحمد لله وليس الا فضل الله تعالى متوكف الغمام ، ومنح (الله) سبحانه لعباده من عصابة دينه وانصار مصطفاه وأمينه متكيف المرام .

وانه ورد علينا كتابكم الأثير ، معترفا بما اعتمد له اجتماعكم وانعقد عليه اجماعكم وانتشر عرفه في الأسواق ، وروت صحيح أحاديثه الرفاق ، فمن عليكم منكم نور الله أبصاركم وجعل الحسنى عواقبكم ومصائركم ، انكم انما اتبعتم الدين القويم وسلكتم الطريق المستقيم ، وحكمتم الشريعة المحمدية ، واجتمعتم على ما يحصل السعادة الأبدية ، الذي ورد الدين الى أصله ، وحمل الناس عليه بنصه .

فلله انتم ما أحقكم بكل فضل ، وما أسبقكم في الخيرات الى احراز

كل خصل ، لكم النفوذ والمضاء والتعديل والقضاء ، والتقلد والانتضاء ، والتخير والارتضاء ، لا تعوزكم أصالة الرأي وجزالته ، وحلية الفضل وحالته ، وحقيق ذلك باهل البلد الطيب المؤسس على التقوَى والرضوان . والكرسي الذي لا يتحول عن صبغة الله اذا تلونت في غيره الألوان وبحق من هو قطب هذا المغرب الذي عليه مداره /53/ ومركز الدين الذي استترت به داره ومنبع العلوم ، ومجمع الفضل المعلوم ، الذي به ايراده واصداره ، فهو مونق الروض بهيجه ، وهل ينبت الحظ الا وأنتم نتيجه . وليهنكم ما منحتم وليطب لكم ما ربحتم ، وقد خاطبتم فينا اخوانا يمحضون لكم من المحبة أخلصها وأصفاها ، ويتمسكون لكم من الأخوة بأوثقها وأوفاها . فلكم منا ان شاء الله اخوان صدق ، ملتزمون ما لأخ الصدق من الشروط ، موفون — ان شاء الله — غاية الأمر المشروط ، جعل الله اجتماعنا على طاعته وتناصرنا انما هو على التمسك بحبل الدين وجماعته ، وما أشرتم مما قال به من وصفتموه بانه سفيه لا يذكر ، فلا يستغرب وقوعه ممن هذا وصفه ، ولا ينكر .

كفا الله عن الاسلام عاديته ، وعجل بالاراحة منه وعاداه بنقمته . وليعجل بثبوره ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبَى الله الا أن يتم نوره .

وما عقدتم في ذلك على ما عصَى من المسلمين ، واظهار ما بقلبه من الداء الدفين ، فهو الحق الذي يكون به الدعاء وتطمئن به النعماء . وقد افتَى بذلك جماعة من علماء قرطبة في عبد الملك بن المنذر حين أخفَى سريرته وانذر . ولم يفعل ما عزم عليه . ولا انتهَى بعد الى ما ارتمي اليه ، فسبق فيه السيف العذل ، وامضَى الحكم بذلك من قسط فيه وعدل ، وكفَى حجة باجماعكم على ذلك . فهي الحجة الكافية ، والمقدمة التي بنتيجة الحكم بذلك وافية ، وأنتم المرجوع في الحكم الشرعي اليهم ،

والمعول في الأمر الديني عليهم . والله تعالى يبقيكم تقرطسون أعراض الفضائل بالسهم المصيب . وتأخذون من كل ما يقرب إلى الله تعالى بأوفر نصيب وحظ . بمن الله وطوله وقوته وحوله والسلام ورحمة الله تعالى وبركاته عائد عليكم بفضله .

وكتب عن اخوانكم اعيان الغرب ألف الله قلوب الجميع على طاعته آمين ، وفي الثالث من المحرم الحرام عام احدّى (كذا) وأربعين وألف . عرفنا الله خيره ووقانا ضيره .

* * * *

(رسالة من العياشي الى أهل مكناس)

وله أيضا :

الى الشرفاء والفقهاء والقاضي والخطيب والفضلاء والأعيان النبهاء من أهل المحروسة مكناسة الزيتون ، جعل الله على طاعته اجتماعكم واجماعكم ، والى اجابة داعي الحق والدخول في جماعته بداركم واسراعكم .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . ورضوانه الأعم وتحياته . كتبنا اليكم من المحلة الجهادية ، عن تمام الخير والحمد لله ودوام العافية . ومتعود الفضل من الله . وعهد اخوانكم وثيق أكيد ، والاعتناء بكم حاضر بالبال عتيد ، وان اخوانكم قبائل الغرب المتألفة على ما يرضي الرب ، اجتمعت على الاجتماع في يوم السبت القريب لتاريخه ، تتعاهد به ائتلافها على الدين ، ويتميز من نافذ سبيل المعتدين أو المهتدين . فيعرف المسلمون من انحاز اليهم ممن انحاز عنهم ، ويتبين من دخل في حزبهم ممن لم يدخل فيه .

وبحسب ما لنا بكم من الاهتمام والاعتناء التام كتبنا لكم لتحضروا

هذا الاجتماع وتأخذوا منه بالحظ الوافر الوساع . مما تحمدون ان شاء الله عقباه ، ويندم في التفريط فيه من أباه . فان كنتم عند المعروف منكم /55/ فكونوا أول طالع من ثنيته . ومظهر بفعله صدق نيته . ولو كانت الأخرى . ونحن ننزه جانبكم عنها ونبرا ، بالمعروف عنكم منها ، فليلزم كل واحد حيث أوطن بلدا . ولا بعد له في جماعة قبائل المسلمين يدا . والله تعالى يسلك بجميعنا مسالك رضاه ، ويخير لنا ولكم في كل قضاء قضاه . والسلام .

وكتب عن اخوانكم أعيان الغرب ، وفرهم الله ووفرهم ، وفي ليلة الثلاثاء الخامس عشر من جمادي الأولى عام احدى وأربعين وألف ، عرفنا الله خيره ، وقانا مكره وضيره .

* * * *

(رسالة من العياشي الى أهل مكناس)

وله رضي الله عنه أيضا :

الى الملحوظين بعين الاعتناء والاهتمام ، والرعي الموصول المستدام ، من الشرفاء والفقهاء والقاضي والخطيب والفضلاء والأعيان النبهاء ، والخاص والعام من أهل حضرة مكناسة الزيتون صانها الله وحاطها . سدد الله رأيكم ، وجعل في صلاح دينكم ودنياكم سعيكم .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته : كتبناه اليكم عن تمام الخير والعافية ، والحمد لله والاعتماد في كل الأمور على الله . وانه ورد علينا أصحابنا عنكم بما يسر الله وسناه بفضله من اجتماع كلمتكم على تولية النظر في أحكامكم للسيدين الشريفين ، وفقهما الله تعالى بمنه ، فنعم الرأي ما رأيتم ، ونعم الائتلاف ما ائتلفتم ، فأبسطوا على الحكم يدهما ، وشدوا بالمعاونة عضدهما ، وكونوا يدا واحدة على من

أبَى الاحكام أو سعَى في نقض هذا الابرام من الخاصة والعامة ، والزموا الدخول في هذا الائتلاف من أباه ، وأوضحوا له وجوه النظر ما تحمد به عقباه . فانكم لو طلبتم رجلا يحصل /56/ عليه الوفاق ، ولا يعرض في توليته اختلاف في الشهوات وافتراق ، لأعوزكم طلبه ، فلا تجدونه . وفاتكم من تنفيذ الأحكام ما تقصدونه . والعاقل لا يترك ما يقصد بابتغاء ما لا يوجد . فافردوا وجهتكم ، ونزهوا عن الشهوات جهتكم ، واجمعوا كلمتكم على هذا الأمر المبرم ولا تجعلوا للمتلاعبين يدا عليكم في تقديم من تأخر وتأخير من تقدم . فان التلاعب طبع مرذول ، وخليقة توقف صاحبها موقف الملام المخذول . وأنتم — والمنة لله تعالى — أهل الحاضرة التي هي محل للاشراف الكرام الاعلام ، وأهل الشجاعة والاقدام والاراء والاحكام ، اذا عقدتم أفدتم ، واذا ربطتم أحكمتم . هذا الذي يحسن بكم ويجمل من مذهبكم . فاذا كان هناك على سبيل الفرض والتقدير من يسير ، فاضربوا على يده ، وقوموا من اراده . وفي جماعتكم والحمد لله كفاية واكتفاء ، وعناية في زجر من يخالف الجماعة ويتوخّى عهود المسلمين بالتفريط والاضاعة . فساعد أهل الفلاح بحول الله أقوَى . والله تعالى باعانته مع أهل التقوَى .

فان احتجتم الى الاظهار باخوانكم من قبائل المسلمين كانوا لكم في الشمال واليمين ، تتسابق منهم الابرق تعقبها ألوف وألوف ، حتّى يرجع الخلاف الى الوفاق المألوف . فعلى نصر الحق تعاضدوا ، والى اجابة داعيه تعاهدوا ، ولا تهنوا في فلاحكم وتساعدوا ، ولا تتراخوا في صلاحكم ولا تتباعدوا . ونحن نسأل الله تعالى أن يديم توفيقكم ورشدكم ويبلغ فيما يرضاه من العمل الصالح مقصدكم .

وقد استحسنا ما استفتحتم به من عقوبة أهل الجناية وزجرهم بما أمكن من النكاية ، فلم يزل الناس بخير ما زجروا الظالم وردوا المظالم /57/

واحترموا المحارم . وأدوا الحق اللازم . كما حمدنا الله لكم على ما اعتنيتم به من أمور الاعشار والمسارعة الى جمعها والبدار ، والاحتياط عليها حتَّى تصرف (في) مصارفها الشرعية ، ويقام فيها بحقوق المسلمين فنعم ما استعني به الموفقون ، ونعم ما تسارع الى تأديته المتقون . فان فرض الزكاة أخو فرض الصلاة ، وتأديته من قواعد الاسلام التي عليها مبناه وأركانه التي يتم بها معناه . والزكاة طهارة الأموال وبركة تصحبها في جميع الأحوال . ولكم من ذلك مزيد المصلحة في جمع اعشار الزرع والزيتون وحياطتها في المكان المأمون المصون ، انكم متَى توجهت عزائمكم الى الجهاد والتأهب له والاستعداد ، وجدتم من ذلك عونا حاضرا ، موجودا ، ووردا من التيسير موردا . ومتَى اجتاز بكم جيوش المجاهدين — وكان قد طلعت عليكم طلائعها ناهضين— فحلوا بناديكم ، تلقيتموهم بأموال الله التي في أيديكم . فلم يرزونكم شيئا الا من شاء احتسابا وابتغَى عند الله ثوابا . فكفيتم كلفتهم حيث لم تزاحموا أنفتهم . وكفَى بالسلامة مع الله تعالى في اداء حقه ، ومعاملة جيشه الجهادي بتيسير قوته وزرعه ، فعلى ذلك فليتنافس (المتنافسون) وعلى مثل هذا فليعمل العاملون . فشمروا في ذلك على ساق الجد والاجتهاد ، وقدموا من ذلك ذخرا تجدونه يوم المعاد ، وقدموا في كل أموركم الشرع العزيز ، فقد أوجبت الشريعة تقديمه . وعظموا الشرفاء والعلماء وكل من اقتضَى الدين توقيره ولتسارع صفوفكم الى المصلحة منتظمة متراصة . والزموا الوفاق في أموركم ، واستعينوا بالله /58/ فهو خير الناصرين ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأصبروا ان الله مع الصابرين ، واختصروا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة . واحفظوا لأهل الذمة ذمتهم ، فان ظالمهم يتولى المصطفى ﷺ في الاخرة خصامه . واسلكوا في كل أموركم على مقتضَى الأمر والنهي ، واحفظوا مقتضيات الشريعة وراعوها بمستطاع الحفظ والرعي . والله تعالى يجعل

لكم التوفيق رفيقا ، ويمهد لكم الى ما يرضيه منها جوا ضحًى وطريقا . والسلام .

وفي عصر يوم الجمعة التاسع من جمادي الثانية من عام احدَى وأربعين وألف .

* * * *

(رسالة من العياشي الى أهل فاس)

وله أيضا رضي الله عنه وأرضاه :

الى احبائنا في الله وأوليائنا في مرضاة الله : الشرفاء والفقهاء والقضاة والخطباء والاخيار والفضلاء والأعيان والرؤساء والخاصة والعامة من أهل الحضرة الفاسية المحروسة بالله وعنايته ، وصل الله تعالى رعيكم وجعل فيما يرضيه سعيكم .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته

كتبناه اليكم عن الخير والعافية والحمد لله ليس الا فضل من الله تعالى بهيج الصفات أريج الانداء والنفحات ، ورعي جنابكم الملحوظ والاعتناء بكم المحفوظ متأكد الأواصر ، متفتح الأعين البواصر ، فلنا بعد ذلك عملا أدخره الله عنده ، ونرجو نفعه عنده يوم نلقاه . واذا كان هذا واجبا بسبب الاخرة ، الايمانية على العموم وما تقتضيه من الحق الواجب المعلوم ، فما بالك بأهل هذا البلد الطيب الذي هو قاعدة المغرب ، مزيد اعتناء واهتمام ، وادخار ذلك عند الله تعالى مطلوب مستدام /59/.

وانكم ـــ وصل الله ايلافكم، وجعل على صلاح الدين والدنيا ائتلافكم ـــ قد كنتم كتبتم معرفين بما عاملتم به جيرانكم من القبائل من المضاءلة والمزاحمة وعدم المناصفة والمكارهة، وخفتم ان تؤول تلك المسألة

الى المشاحنة والمدافعة والمفاتنة . فلبي اخوانكم قبائل المسلمين دعاءكم . وأجابوا بالانتهاض الى مداواة تلك الأمراض نداءكم ، وعندهم المعهود في امتثال أمر الشرع الكريم بالنظر بين الاخوين نظر الحميم . فحين أعملت سابقتكم الركاب . وتوجهت تلقاء ذلك الداعي المجاب ، وسارت الى أن التي الليل دونها الحجاب ، تواردت الاخبار المبرئة من الارتياب . بكف تلك القبائل كف العدوان وانصرافهم عن الركض في ذلك الميدان الى ما اتفق من ورود كتب الشاوية –كما تطالعون بعضها– يطلبون الملتي ، ويعتمدون جمع الكلمة ، على ما يسعد صاحبه من العمل بطاعة الله تعالى للدار التي هي خير وأبقَى . ومحل الشاوية من قبائل المغرب معروف ، ووجه الاعتناء بهم –على الاستحقاق اليهم– مصروف. وفي ذلك ان شاء الله تمهيد للجهاد واعانة للمسلمين بين ظل العافية ومعاد .

فحمدنا الله تعالى على ما كفَى من تلك المؤونة ، ويسر بمحض فضله من هذه المعونة . وقوَى العزم في رد تلك السابقة اعتمادا على هذه الاخبار الصادقة ، واكتفاء بما يسر الله من استعافكم في الساعة واعتناء بمن رام الدخول في حزب الدين ان يعامل بالاضاعة ، وترفيها لكم وتوقيرا ، وتأليفا لا يقبل بحول الله وقوته تنفيرا . فرجعت وما رجعت عن نصرتكم /60/ عزائمها ، وانصرفت واعتقاد انجادكم متَى استدعيتم اليه يلازمها . وما انصرفت اليه لكم فيه الحظ الأوفر والنصيب الذي يغتبط من يفوز به ويظفر : انما هو للزيادة في اخوان لكم في الدين ، واعوان على سلوك سنن المهتدين .

فعرفنا لكم لئلا تظنوا باخوانكم اغفالا واهمالا لشأنكم ، وتعرفوا حقيقة الواقع كما تسنَى الحجب والبراقع . ولنا من الاعتناء بكم والاهتمام بصلاح جنابكم المحل الذي يبجل قدره ويعظم عند الله تعالى لمراعيه أجره وذكره ، وترك ما نهَى عنه وقط ما ارتضاه . والسلام .

وكتب ليلة السبت السابع عشر من جمادي الثانية من عام احدَى وأربعين وألف . عن اذن اخوانكم قبائل الغرب من بني مالك وسفيان والخلط وحصين وأولاد سجير ومختار والصباح وغيرهم . عرفنا الله خيره وبركته أمين .

* * * *

(رسالة من العياشي الى أهل مكناس)

وله أيضا رضي الله عنه وارضاه :

الى اخواننا في الدين ، الذين لا نالوهم جهدا حملا على سنن المهتدين : أهل مكناسة الزيتون . الهمهم الله بمنه وفضله رشدهم . وصرف عن سبيل الغي الى سديد الرأي وحميد السعي مقصدهم .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ورضوانه الأعم وتحياته .

هذا وانه انتهَى الينا ما وقع هنالك من الاضطراب والخبط . الذي لا يرضاه أهل الدين ولا أولوا الألباب ، أثر ما أجيب داعيكم . واجتهد لكم في مصالح مساعيكم وأخلص لكم النصح قولا وفعلا . وتوخي بكم القصد الذي هو أقرب الى صلاحكم وأولى ، وحذرتم من اتباع الهوَى والوقوع في عواقبه . وهيئت لكم ملابيس /61/ العافية ترفلون في أثوابها الضافية ، وهي التي يقال فيها الصيد كله في جوف الفرا ، وذكرتم بنعمة الله تعالى ولوازمها لو نفعت الذكرَى ، فما أسرع ما نسيتم ، ونزعتم ما به كسيتم . فاتبعتم الشهوات والأغراض ، واستبدلتم بالصحة الادواء والامراض ، ومكنتم الغوى من نواصيكم ، وانقاد مطيعكم لعاصيكم ، وبئس الممكن من الناصية والمنقاد اليه من الدانية والفانية ، انه يقدم حزبه فيوردهم النار ويخوفهم في مواقف العار ، ثم ينكص على عقبه متبرئا ويترك حزبه لمقعده من النار متبوئا ، وتعلمون أن له من الانس اخوانا ، وعلى ما

هو له من الاغواء أعوانا ، هم العدو فأحذروهم . وردوهم عن غوايتهم ولا تدروهم ، فما بالكم تتبعونهم ، ولا تردونهم عن غيهم ولا تدفعونهم ؟ اعزب عنكم الرأي السديد ؟ أليس فيكم رجل شديد ؟ ادرست رسوم العلم والدين ؟ أم غلب على حزب الصالحين حزب المفسدين ؟ ما أعجب هذا في بلد مثل بلدكم ، وعدد من أهل الصلاح كعددكم . انما قلدتم الأوهام ، وأتت على القلوب سنة الاحكام . وقهقهت الخاصة وركضت العوام ، واستتبع حملة السيوف حملة الأقلام ، فارتكن التابع والمتبوع . وماس المكسوب والمطبوع ، وما أحقكم أو كشف عن بصائركم ان ترجوا القطع قبل التمزيق ، وتبراوا ممن يقال فيه بئس الرفيق والفريق . وتقلدوا من الايمان سيفا لا يفل ولا ينبو واركبوا من الاجتهاد في الدين جوادا لا يمل ولا يكبو ، ولا يهمكم من تقلد سيوفا . وأوعد مخلوفا . فسيف الله أمضَى /62/ وأصدق، وحبل الله أمتن وأوثق. فما لكم لا تلفظلون الغواة لفظ النواة، حتَّى ينقادوا إلى الحق مذعنين. أتخشوهم. فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مومنين. وقد عاهدتم الله عهودا . وعقدتم مع اخوانكم المسلمين عقودا ، فانعقدت الصفقة . ومضت الى ذلك الرفقة : فما الذي حدث ؟ افسختها اقالة ؟ أم رفع على غيرها اعالة ؟ كلا والله . لقد استرسلتم في الغرّة وما مكنتم مطالبكم بالحق من الثغرة . الا أنه لم تضق عنكم ساعة الانذار . ولم ينفذ الحكم قبل تكرير الاعتذار .

وكتبنا هذا اليكم بقطع المعذرة ، ولا يرجو الماطل بعده تنظرة . فان استقام منهاجكم وتقوم اعوجاجكم ، ورجعتم (الى) الجادة . واسترجعتم الألباب النادة ، فان ذلك القريب ، وما بعد الانابة تثريب . فاجمعوا على الحق رأيكم ، واجعلوا في الصلاح العام سعيكم . وأعزلوا أهواءكم وشهواتكم ، وقدموا عقولكم وأحلامكم وشدوا ازر السيدين الشريفين الذين وليتموهما أمركم وأحكامكم واجعلوا حكم الشريعة المحمدية في كل حكم أمامكم .

وقاضيكم وخطيبكم – دام توفيقهما – يتوليان اخباركم به واعلامكم وجانبوا أهل البطالة بالاستطانة ، وان يلوا نقضكم وابرامكم واصرفوا الى المصالح العامة ، بجمع أعشار الزرع والزيتون والنظر للمسلمين بالحسبة في الشراء والبيع والاعتبار لهم في المنافع والمضار ، بالجلب والدفع اعتناءكم واهتمامكم . واخلصوا اليه تعالى نياتكم واصفوا لأخوانكم طوياتكم . وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ونسأل الله تعالى لكم توفيقا يقود الى صلاح الدارين /63/ نواصيكم . ويرد الى طاعته عواصيكم . وكفَى بهذا تبصرة وعظة وتذكرة . وليست لكم بعد هذا حجة ولا معذرة . واياكم والاعتذار ، فليس بعد الانذار اعذار .

والله تعالى يوفق الجميع الى ما يرضيه . ويمن بالخيرات في كل قضاء يقضيه والسلام. وفي السابع والعشرين من جمادي الثانية من عام واحد وأربعين وألف عرفنا الله خيره ووقانا عقوبته وضيره . وكتب عن أعيان اخوانكم قبائل الغرب كافة . وفرهم الله ووفقهم بمنه .

* * * *

(رسالة من العياشي الى أهل تطوان)

وله أيضا رضي الله عنه :

الى الفقهاء والفضلاء والأعيان والعامة والخاصة من أهل الثغر المحروس بالله التطواني الجهادي . عرفكم الله تعالى من تداركه عند الحاجة فوق ما تعرفون ، وجعل شكره أول ما توجهون اليه قصدكم وتصرفون . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته .

عن تمام الخير والعافية . والحمد لله على النعم الضافية والمنة لله تعالى باهرة الألباب منزهة عن العلل والاسباب .

وقد وردت علينا كتبكم معرفة بما كيفه الله تعالى من موجب شكره وحمده ، على الفضل الذي لا ياتي الا من عنده ، حين مد أهل الفساد اطماعهم وعقدوا عليه في الأرض اجماعهم وتألفوا على الغواية الغوية . وتالبوا على حمية الجاهلية . قد نبذوا الدين وراء ظهورهم . وحملوا من الحنق على أهل الصدق ملء صدورهم . فرد الله كيدهم في نحورهم ، وتزلزلوا بأمرهم ومامورهم . فدارت عليهم الدائرة ، وتوجه ما أضمروه للمسلمين عليهم . فتحكمت أيدي أنصار الدين في البغاة المفسدين . ورد الله تعالى (كيدهم في نحورهم) بغيظهم لن ينالوا خيرا . ونوع فيهم الخسف قتلا وسلبا واسرا /64/. قد اذاقكم الله طعم العافية تكريما وتخصيصا . ينبغي أن تقابلوا بالشكر الذي تستديمون به هذه النعمة الجزيلة . وتتحلون بالأخلاق والأحوال الجميلة ، الذي يحسن بها ان تكونوا أولياء هذا السيد . فان الانسان على طبع خليله يقتدي به في حقير الأمر وجليله . وكثير الفعل وقليله . وبحسب ما لنا من المحبة فيه وفي جنابه وفي كل من يعد من أوليائه وأصحابه ، نود أن يكونوا كلهم على الحالة المناسبة لذلك ، سالكين من الهدَى المرضي أحسن المسالك . فان وقع عن ذلك انحراف وخروج عن هذه وانصراف ، اشتد مع قربكم من هذا السيد قبح ذلك ، كما يشتد مع مقارنة البياض سواد الأسود الحالك . فيتألم لذلك من يحبكم أشد الألم ويشق عليه الخبر الوارد بذلك مهما ألم . ولا محيد عن قيامه بواجب المحبة بمبلغ الامكان ، ولا أقل من النصيحة التي هي من الدين بمكان . فلذلك كتبنا هذا اليكم بجرد احضره الوقت . وحادث استوجب المقت ، وهي مسألة الشريف الذي ضربه قاضيكم العصا . على أن استفتي عن نازلة شرعية واستقصي وهذا وان كان من الظلم والظلم شرعا وطبعا يستقبح ، فهو من القاضي .. الذي يقيم قسطاس العدل اشنع وأقبح . فكان من الواجب أن تستروا بالتغيير قبحه ونكره . ولا تهملوا فى حال من الأحوال أمره . فيزجر عن المنكر قاضيكم . ولا يكون

الا على الحق اتفاقكم وتراضيكم . فاذا لم تفعلوا /65/ وتزجروا الظلوم . فهلا أرضيتم المظلوم ، حتَّى لا تخرج من البلد ولا يطلع على عورتكم أحد . لكنكم لم تفعلوا ، فتركتموه يعرض على أهل الغرب أمره . ويكاشفهم بموضع الضرب وهو عورة . الى ما لا يزال يتوارد عن اخوانكم الذين يحرسون ساحتكم ويشرون بغيبتهم راحتكم . قد تركوا الوطن . وهجروا السكن طلبا لاقراركم بين أهاليكم في دياركم . فما عاملتموهم بمقتضَى معاملتهم . ولا جاملتموهم بحسب مجاملتهم . بل لا يزال مشتكي منهم يتضرر من عدم انصافكم وقلة الاعانة للحق واعترافكم ، لا تعاملونهم حتَّى بالكلمة الحسنة ولا تيقظ غافلكم عن الصواب من سنة .

اما هذا السيد الذي أكرمكم الله به . وأسعدكم ان تمسكتم بسببه . فقد أعياه الاعتذار للمشتكي منكم . والحياء لما يسمعه عنكم . ونحن يا اخواننا يشق علينا ذلك في جنابكم الذي نلحظه ونكرم عهده ونحفظه . فابدينا اليكم واجب النصيحة بالتنبيه لما هو أولى وأحسن ما توتونه فعلا وقولا . والتوفيق بيد الله سبحانه . وهو تعالى يمن بالاعانة والهداية والسلام .

وفي الثالث عشر من رجب من عام احدَى وأربعين وألف ، عرفنا الله خيره وبركته ووقانا ضيره . واسبغ علينا نعمته أمين .

* * * *

انتهَى ما وقفت عليه من رسائل هذا السيد الجليل المبارك العديم المثيل . رضي الله عنه وارضاه ، وجعل الجنة نزله ومثواه .

ذكر خبر قتال سيدي محمد العياشي رحمه الله لقبيلتي الحياينة وشراقة /66/

قال في نزهة الحادي : وكان عرب الحياينة قد قطعوا على أهل فاس ، وعتوا عتوا كبيرا وسعوا في الأرض الفساد ، بشن الغارات والنهب ، وارادة اخلال البلاد . وكان ذلك منهم بامر أبي العباس أحمد بن زيدان بن منصور .

فتوجه إليهم سيدي محمد العياشي رحمه الله فقاتلهم فكانت الدائرة عليهم . ولم يذكر لهذه الغزوة تاريخا .

وذكر بعض من قيد في الوقائع والحوادث[35] : وفي سنة خمس وأربعين وألف ، هاجت الحرب بين أهل فاس وعرب الحياينة . وكان معهم السلطان أحمد بن زيدان بن منصور ، وحاصروا مدينة فاس ، وافسدوا لهم الزرع وغيره . وخرج أهل فاس في منتصف ذي القعدة العام متوجهين إلى الفقيه المجاهد أبي عبد الله سيدي محمد العياشي يستغيثون به في كف الحياينة عنهم . ثم رجعوا وقد بطلت الحركة .

وفي عشية يوم الأحد الثاني عشر من المحرم الحرام فاتح عام ستة وأربعين وألف أخذ الحياينة وشراقة نساء لأهل فاس من واد المالح وذهبوا بهن بعد قتال كبير مات فيه خلق كثير. فذهب بعض أهلهن في طلبهن ، فوجدوا الأكثر منهن قد باعوهن في حلتهم وفعلوا فيهن الفواحش .

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من جمادي الأولى من العام ، بعث سيدي محمد العياشي رحمه الله ببعض رؤوس النصارَى ليراهم المسلمون ، ويعلقوهم في الأسواق ان شاءوا .

وفي الواحد والعشرين من ذي القعدة عام سبعة وأربعين وألف، وقع

---

(35) . نشر المثاني — القادري — 1 : 170 .

قتال كبير بين أهل فاس وبين الحياينة وشراقة نحو قنطرة سبو ، مات فيها نحو من خمسة وأربعين رجلا من أهل فاس ، وحمل العرب من رؤوس المقتولين /67/ من أهل فاس نحو الستة . فيها قيل والله أعلم : وغلب العرب الحياينة وشراقة على أهل فاس غلبا لم يعهد مثله قبله .

وفي خامس عشر من ذي الحجة العام خرج من فاس شرفاؤها وفقهاؤها وأعيانها ، متوجهين إلى الفقيه المجاهد أبي عبد الله سيدي محمد العياشي رحمه الله مستغيثين به وطالبين منه أن يأتي معهم لينقذهم مما هم فيه من الحياينة ، فشكوا إليه وبكوا عليه وأعلموه بما وقع لهم من الحياينة . فحيث سمع قولهم وأوضحوا له فعلهم . وعلم انه لا طاقة له بهم ، كتب إلى صاحبه في الله ، وأخيه في ذات الله الفقيه سيدي محمد الحاج الدلائي ، وكان توفي والده قرب ذلك ، وتولى هو أمر الزاوية بعده . فعرفه بما جرَى لأهل فاس مع جيرانهم الحياينة وشراقة ، ويقول له أنهم قدموا علي وشكوا إلي ، وانا قد شكوت اليك وبكيت عليك مستنصرا لهم ومستصرخا لأجلهم بك . وها أنا قد بعثتهم إليك ، فالله الله في اغاثتهم .

فبعث اليه سيدي محمد الحاج كتابا نصه :

(رسالة من محمد الحاج إلى العياشي)

إلى السيادة التي أشرقت بدورها في أفق السعادة ، وسطعت بوارقها على افنان المجادة ، جعل الله في السماكين ارتقاءها . قد تضوعت بالارج الطيب ارجاؤها ، وتبرجت في حلل الانعام حسناؤها ، وتمايست في حلل الاكرام عذراؤها ، وغردت بغرائب النطق في عرصات محاسنها أطيارها ، وتنافحت لنفائح المسك أنوارها، واناقت على النيرين أقارها، بما شئت من سيادة عريقة المجد مجيدة الاعراق، خليقة بالحمد حميدة الأخلاق.

قد ارسلت علينا سحائب الفضل /68/ هواطلها وأمطارها . وسكبت علينا روائح الفخر هتانها واقطارها . وقضت بها المكرمات أوطارها وطورت أوطارها . وتعرفت فيها المعارف لعارفها . وترفعت فيها المعارف لعوارفها . واشع فيها التليد والطارف . والافواه للمطارف . وعانق فيها بدر الولاية هالته . ونشر صباح الفخار على مثائرها رايته ، مثابة المنهل الصافي . والعارف بالله المصافي . صاحب المناقب الثواقب والمواهب السواكب العالم العامل الصالح الكامل المرافق للعبادة والاجتهاد في الافادة . حتّى انعطفت قناته . وذهبت بحركاته سكناته ، ورفع قبة الاسلام على عمود الرياح بلا ملاح . ولم يشغله ليل أقبل عن مقارعة الكتائب والكفاح . وتأييد بالنصر الذي رسمت اثاره في صحف الصفاح والصحائف الصحاح . الذي فاز بالدنيا بعاجلها المكنون ، وفي الآخرة آجلها بامر غير ممنون . الناسك الماجد ، المرابط المجاهد ، ذو النور الواضح الفاشي أبو عبد الله سيدي محمد العياشي . لازال ظله على الاسلام ممدودا . وصارمه على هام الكفر مشهودا ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . ورضوانه الأعم وتحياته . سلام دوام وقرار ، ما خطبت الاطيار على منابر الاشجار وتجاذبت الاوتار في نسمات الاسحار .

هذا وقد ورد علينا من ذلكم المقام وجنابكم العلي الالطاف . السادات الاشراف المقتفون سنن الاكرام من ابائهم الاسلاف . وعلامة هذا الدهر وواحده . وراوية هذا القطر وماجده ، الناشئ في عرصات /69/ المجالس . والصدر على انباء العلوم في المساجد والمدارس ، من مدت اليه العدالة ظلالها ، واحلته الجلالة خلالها . وهو العالم العامل نجل مفتي الحضرة الفاسية سيدي علي ، ومرافقه في المعالي ومراتب الأعالي ، خير الاكارم وبحر المكارم وعنصر المفاخر وحجة المناظر الفاضل الامجد أبو العباس سيدي أحمد ، وبصحبتهم من جانبكم كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم .

فتلقيناه بيد القبول . ورأيناه بغية الأمل والسول . وتفهمنا معنًى خطابه . وارتشفنا شهد رضابه . والمودات فيه ذات اعساق . والمصافاة فيه ذات اتساق وائتلاف وائتلاق . وقد جمع بين المشكو والشاكي . والمبكي والباكي . وصدور البلاغة فيه قد وقفت اعجازها . والبراعة فيه قد رافقت اعجازها . وأحكمت أطنابها وايجازها . قد اشتمل بحمد الله على أمر نجاح أبلج من غرة الصباح . مما القته الينا السادة العلماء والاشراف الكرماء ، مما دهمهم من الحياينة الغوغاء . والفئة الطاغية اللاواء . وانهم قد قدموا على حضرتكم ، يستدفعون الضرر . ويستمطرون الفرح والظفر . فاجبتم سؤالهم ولبيتم مقالهم رغبة في ثواب من دفع صائل أو اجابة سائل أو اقالة العثار . بنكاية المردة الفجار .

فجزاكم الله خيرا عن الاسلام وخلد مكارمكم في صفائح الأيام . فأنتم أهل الاجابة ، والمناضلة والاصابة ، فبشمائلكم في الصالحات يقتدَى وبمطالبكم في الحادثات يهتدَى .

وقد ندبنا سيدنا إلى احراز هذه الفضيلة والانخراط /70/ في سلك هذه المآثر الجليلة . اما ان ذلك لأمر مبين . وصلاحه علينا معين . غير أنكم بمراصد هذه الشرذمة ادرَي . وبحربها أولى وأحرى . وأعرف بهذا الأمر ومسائله ، واجمع شرائطه ورسائله . واعلم بحقائقه ومخايله . لمكان القرب لا لمكانة . ونحن ان تقدمه السيد امامنا . والتحيناه أمامنا . أجبنا دعوته ، وانتهجنا بغيته ، واعملنا في ذلك الركاب . ونبذنا الشواغل عنه والاسهبب ، وان أبي الزمان بصرفه والرم على أنفه بكفه . بمن الله وطوله ، وقوته وحوله والسلام .

* * * *

قال : فبعث السيد محمد الحاج بالكتاب مع أهل فاس إلى السيد محمد العياشي ، وبعث إليه برئيس من رؤسائه يقال له شعشوع ، بجيش

عظيم من قبائل البربر ، ليعينه على قتال الحيانية ومن معهم من شراقة . فلما وصل الجميع عند السيد محمد العياشي واجتمعوا به (فرح) غاية الفرح ، وشمر عن ساق الجد والحزم ، وتقدموا لحرب الحياينة وشراقة . فقاتلهم سيدي محمد العياشي بمن معه وبجنود العرب والبربر قتالا كبيرا وقعت أخره هزيمة عظيمة شنيعة علّى الحيايّنة ومن معهم من شراقة ونكبوهم نكبة فظيعة ، وطردوهم عن فاس وأحوازها ، وتبعوا منزلتهم إلى بلاد بني يازغة ، فكفَى الله المومنين شرهم ، وأزاح — بمنه — مدة ضيرهم .

قال في نزهة الحادي : وتاب على يديه — أي السيد محمد العياشي رحمه الله — جماعة من رؤساء شراقة الذين كانوا في ذلك الغي والفساد ، وكانت عاقبة كل من بغَى عليه وتعدَّى وطغَى خسرانا مبينا . انتهَى /71/ كلام النزهة .

وذكر بعض من قيد في الحوادث والوقائع فقال : وفي السابع والعشرين من صفر الخير من عام ثمانية وأربعين وألف ، خرج أهل فاس ومن معهم من اشياعهم لقتال الحياينة عن اذن الفقيه المجاهد أبي عبد الله سيدي محمد العياشي رحمه الله ، فقاتلوهم في الجور ، وعند فجر رابع ربيع النبوي من العام ، وصل أول الناس لفاس منهزمين دون جرح أو موت فرجعوا من غير فائدة ، وكانت غيبتهم ثمانية أيام .

وفي اخر ربيع الثاني من العام حرك لهم أبو عبد الله سيدي محمد العياشي مع أهل فاس ، فقاتلوهم بموضع يقال له تلطوط (؟) فكانت الملاقاة بعد صلاة الجمعة خامس عشر جمادي الأولى من العام . فهزم الله الحياينة ومن معهم وتبع منهزمهم (الذين) صعدوا جبل مجاصة من قبيلة غياثة ، وحاصرهم بها مدة من أيام ثم رجع عنهم ، وفي خامس عشر من جمادي الثانية من العام حرك لهم أيضا سيدي محمد بن أحمد العياشي مع أهل فاس ، ثم أصطلح معهم على أن يفرقهم في القبائل . ثم كف عنهم

بعد أخذه منهم العهود والمواثيق على أنهم يكفون اذايتهم عن أهل فاس وغيرهم من الناس ، والامر كله بيد الله[36] .

* * * *

ذكر غزوة البريجة وسببها

قال في نزهة الحادي : واما مقاتلته ـ أي سيدي محمد بن أحمد العياشي رحمه الله ـ أهل البريجة ، فسببها . كما رأيته في رحلة الفقيه العلامة قاضي تامسنا في حينه : أبي زيد / 72/ سيدي عبد الرحمن الغنامي الشاوي بخطه : أن أهل البريجة كانوا قد عقدوا المهادنة مع أهل أزمور مدة . فكان من عزة النصارَى على المسلمين ، وذلة المسلمين في هذه المدة ما تنفطر منه الأكباد، وتهد له الجبال هدا .

فمن ذلك أن زوجة القبطان خرجت ذات يوم في محفتها ، ومعها صواحبها إلى أن وصلت حلة العرب ، فتلقاها أهل الحلة بالولاول (...)[37] أي الزغاريت والفرح ، وصنعوا لها من ذلك الأطعمة وحملوا لها الهدايا من الدجاج والبيض والحليب ، فظلت عندهم في فرح عظيم وسرور جسيم ، ولما كان الليل رجعت .

ووقع لها مثل ذلك مرة أخرى ، انها أمرت زوجها القبطان أن يخرج (بجيوشه ، ويبعث لقائد أزمور ويخرج) بجيوش المسلمين ، بقصد الفرجة ، فيلعبون فيما بينهم وهي تنظر إليهم وتتنزه فيهم . فكان ذلك كما أرادت . فجعلوا يلعبون وهي تتفرج فيهم ، فما كان إلا أن حمل كافر على مسلم فقتله ، فكلم قائد المسلمين قبطان النصارَى في ذلك ، وأخبره بما وقع . فقال له القبطان ، فما يضركم ان مات شهيدا ، يهزأ به ويسخر بالمسلمين

---

(36) وردت التقاييد التي قدمها أبو املاق هنا ، في نشر المثاني مرتبة حسب سنوات وقوعها . ويشير القادري (1 : 170) الى أنه ينقل عن صاحب الابتهاج .

(37) سهو من الناسخ جعله يكر الجملة .

والاسلام . قال : وكان سيدي محمد العياشي رحمه الله ، كلما سمع أو رأى شيئا من ذلك تغير وبات لا يلتذ بمنام ولا شراب ولا طعام ، وهو ينظر كيف تكون الحيلة في زوال تلك المعرة عن الاسلام والمسلمين ، وغسل أعراضهم من وسخ الاهانة ودنس المزاح ، وهو مع ذلك يخاف العيون التي ترصده من صاحب مراكش محمد الشيخ ، وقائد أزمور وقبطان البريجة ، اذ كلهم له أعداء ولهم عليه عيون فمكث /73/ كذلك مدة من نحو ثلاث سنين فلما رأى أن الأمر لا يزيد إلا شدة ، أشار لبعض أولاد ذويب من أولاد بوعزيز ، أن يحملوا للنصارَى شيئا من الزرع خفية ، ويكون ذلك شيئا قليلا فشيئا قليلا حتَّى تطمئن نفوسهم ، ويذوقون حلاوته ويظهرون لهم المحبة والنصيحة . فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم ، وأخبروه بذلك كله ، وأطلعوه على غرة النصارَى ، فعزم على قصد البريجة ، ثم بدا له في تقديم العرائش ، وحينئذ يأتي البريجة ، فقضَى وطره في العرائش . وكان ذلك في رابع صفر من عام تسعة وأربعين وألف .

ثم تحرك للبريجة ، فذكروا له أن وادي أم الربيع في نهاية الامداد والامتلاء ، فلم يثنه ذلك عن مراده ، وسار حتَّى بلغ الوادي فوجده ممتلئا جدا ، لا يكاد يدخله أحد إلا غرق . فقال لأصحابه ومن تبعه : توكلوا على الله واجتهدوا في الدعاء ثم اقتحم الوادي بفرسه متوكلا على الله ، وتبعه (الناس) إليه ، فعبروا جميعا ولم يتأخر عنه أحد ، وكان الماء يصل إلى قريب من ركاب خيولهم ، مع أن ذلك الوادي حين امتلائه ، لا يدرك له قعر ، وذلك معلوم عند الناس كما شوهد ذلك عادة مستمرة . وهذه كرامة عظيمة وبرهان كبير وقع له رضي الله عنه ، ولم نسمع بمثل هذا وقع لأحد من الناس إلا للصحابة رضي الله عنهم كما وقع للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في فتوح العراق . وذلك فضل الله يوتيه من يشاء .

ولما بلغ البريجة وجد طائفة من أولاد بوعزيز قد شعروا به. فألحوا في اخراج القبطان خوفا على أنفسهم من سيدي محمد العياشي رحمه الله أن يمكر بهم ان /74/ لم يخرجوه، فخرج في خيله. وكان سيدي محمد العياشي كامنا بازاء البريجة بالغابة فلما انفصل القبطان بجيشه. حمل عليهم سيدي محمد العياشي بخيوله فقطعهم عن الهرب إلى البريجة، فهربوا إلى البحر ولحقتهم خيول المسلمين، فحكموا فيهم السيف فماتوا كلهم غرقا وقتلا إلا نحوا من سبعة وعشرين نجت.

فتغير صاحب مراكش على ذلك أشد التغير، وأنكر هو وقاضيه الفقيه السيد عيسَى بن عبد الرحمن السكتاني ما صنعه سيدي محمد العياشي من ذلك غاية الانكار.

وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبار، انشرحت بها (....)[38] منه ان يأمر القبائل بين تادلا ومراكش باعانته على حرب العياشي، فجعل السيد محمد العياشي الحاج، يصانعه ويدافع عنه بلسانه ويأمر القبائل بطاعته، وهو يؤنسه ولا ينفره من مطلوب، ويكاتب العياشي يأمره بالكف عنه، ولا يعينه على حربه، وبقيا على المصانعة والمراسلات، واظهار أثر الطاعة بقدر الامكان مدة، ثم ان السيد محمد الحاج كتب إلى العياشي رسالة نصها بعد الحمد لله:

(رسالة من محمد الحاج إلى العياشي)

أدام الله سيادة من أفرغت عليه المجادة من حلاها وملابس علاها عطاءها وحبابها، وأفاضت عليه المكرمات من مآثرها ومحاسن آثارها هتانها وعبابها، واستدارت به المعاني، وأحلت له مراقيها العوالي، ولحظته العناية بعين الرعاية، ووهب من المواهب العرفانية والخصائص الاحسانية

---

(38) يظهر أن الناسخ سهَى عن جملة أو جمل.

ما شغل به عن الشواغل الدنياوية /75/ وعوارضها الهتانية ، وأتيح له صدق المجاهدة ، ومشاهدة المشاهدة ما قطع به من المكارم زمامه وأظهر جوده ووسانه ، وحسر عن ساعد الجد والاجتهاد من القصد والاقتصاد حتَّى رفع قبة الاسلام عن صعدة سنانه وأزال القذاة عن انسانه بوخطات لسانه وسنانه ، مثابة السيد الماجد العارف بالله المجاهد ، صاحب النسك الواضح الفاشي ، أبو عبد الله سيدي محمد العياشي .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته ، ما قامت بالجرم سكناته وحركاته ، وبعد :

فان الداعي لكتب ذلك المقام الأسمَى والفخار الأسنَى الأعز الأحمَى ، انا ترقبناه ان يشرق من تلقائكم ، وتطلعنا ان يبرق من عليائكم كتاب رائع الكلام ، ساجلي القصد والمرام ، فلم نر من عندكم ما يشرق ، ولا من ناحيتكم ما يبرق ، فكتبنا إليكم هذا الكتاب ، وخطبنا لكم بما تضمن من الخطاب .

وهو يحتوي على فصلين ويشتمل على أمرين :

احدهما نشر ما نحن عليه من انتظام العقد ووفاء العهد ووفور المبرة وتنكيب المضرة ليعلم بذلك الحاضر والبادي ، ويشرق بغصته المنابذ والمعادي .

والاخر خطابكم بالاستشفاع للرؤساء والاتباع ، يرتفع بذلك عنا حمل القاطنين ، ونكفي أمر الواردين من السادات الاشراف السعديين أبناء الأجلة الاسلاف ، الذين هم ملوك المغرب وخلفاؤه . فانهم أرسلوا الينا كتابا أفصحوا فيه بانك ضيقت عليهم /76/ وعلى من هو تحت طاعتهم ، وغلبت على القبائل المجاورين ، وعزمت على استئصال شافتهم ، وانك تزعم أنك تريد الجهاد ، وليس قصدك إلا جمع الأموال وتملك البلاد

واستعباد العباد ، وطلبوا منا اعانتهم على قتالك ، ومساعدتهم على حربك ونزالك . فقدمنا إليك التشفع بربك قبل (أن ترَى) منا بذلك من يقوم حزبك ، دونهم من الاجناد ذوي الصبر والباس ، والصدق في الجلاد . ويكفيهم الله ما بدا لهم من شرك وضيرك : ونصبحك بجند لا قبال (كذا) بها لك ولا لغيرك والسلام .

استدراك : ثم قال :

وبعدما كتبنا هذه الاسطار ، وتأملنا ما ذكرناه لك فيها من الاخبار ، ونحن في انتظاره وارتقاب أخباره ، إذ وافانا الخبر بان القوم قد رحلوا ، وعريت أفراس اقتراحهم وانتقلوا ، حيث لم يروا منا اشتهار نصرهم ، فظنوا اننا نتربص بهم لضيرهم لتبلغ مرادك فيهم وان توقع بهم ما يوافيهم .

فتردد نشر في الكتاب موافقة للغرض ، لعرض ما ذكر من فصول وأبواب ونني ما تلبس به وعرض ، لتبدل الأمور بمسير القوم ، واختلافها باختلاف الغد واليوم ، كما ورد علينا من حضرتكم كتاب اخر يتضمن ما يريدون من اخباركم . فاتفق الرأي على نشره والاطلاع على سره . فتصفحنا خطابه ، وارتشفنا رضابه ، فوقفنا على ما فيه وتفهمنا مقاصد من فيه . فكشف لنا عن قصده وسفر ، فإذا فيه هو على جناح سفر ، متنحيا ساحل أقطار السوس ، التي تشنعت بالجهاد اليها لتتولى /77/ أمرها بالمدروس ، فسبق اليها حيث رآنا نصادرك بالشفاعة ، ونلاطفك بالضراعة فعلم أن ذلك لم يفد معك أدلا ، ولا قبلت فيه الشفاعة أصلا ، ولم يدفع كرم ما اليه انتسب ، ولا اغنَى عرضه فيه ولا ما كسب . اما ان ذلك كان المقصد والمصدر والمورد لكن على هذا الوجه الذي كتب والأمل الذي عليه بني ورتب من التلطف الذي قد نضب اليوم ماؤه وذهب رواؤه ، بل على وجه ينثر ما بيننا من المودات والمصادفات والمواتات (كذا)، وينشر على صحائف الاماق ومتونِ الوقاق ، ما لدينا من انتظام وائتلاف

والتئام ، ليرتع بذلك ويرتدع . وينفزع فيه لبه وينصدع ، وينهي اليه من المقام ما يدعي به الطعام ويطري به الامام ، ويوبخه على فعلته ، وعظيم فريته ، ويفصح له عن جريرته وسوء فضيحته ، ويستل عليه لسانا صارما ، ومقوالا قائما ، كما تلقينا ذلك منه وأخذناه عنه وكما هو دأبه مع اخوانه ، وقرابته واخدانه . ولم نر في كتابه الأمرين ولا أحد الزوجين ، على أن العزم على ما به كتب ، قد انكسر ، والمنتظم فيه قد انفصم وانتثر .

فما لنا ولذلك ، انما كان شيء قد جال في الصدور ، مما موالينا الشرفاء أكثروا من الاستيغاث بنا وكرروا من الشكاية الينا والاعتكاف علينا ، ورأينا أن نصرهم علينا قد تعين . وان أمرهم في ذلك قد تبين ، فبلغنا في أمرهم المجهود ، وجاوزنا المرسوم فيه والمحدود ، والله سبحانه وتعالى يتولى أمرهم ويجبر بمنه وفضله كسرهم ، فانكم /78/ أردتم منعهم من مورثهم من جدهم مولانا رسول الله ﷺ ، عيننا وعينهم ، فانه نهانا عن طلب ما ليس لنا فقال : الخلافة في قريش ، والغير متغلب ، وهم أحق بذلك من قريش بالمغرب . وليعلم سيدنا انا لم نعز أقدامنا في نصرهم الان ، وان ما نصرناهم بهذا الكتاب الا لهول الزمان ، فان ابن عم سيدنا أبي القاسم بن ابراهيم قد توجه إلى الصحراء يلتمس الصلح مع حفيد الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن موسَى نفع الله به عسَى أن يكون ان شاء الله بما فيه الكفاية والخير والنجح ، وعسَى أن يلم بذلك شعث الأمة ، ويجلو به عن وجوه الميامين كل حالك وظلمة ، وأيضا فقد طرق اسماعنا ، ان أهل الساحل قد أغاروا على من تحت ايالتنا وأمرنا من ناحية أغريس ، ينهبون ويسعون في الأرض الفساد ويبتغون العناد ، فلذلك تربصنا عن مددهم ، ولولا ذلك لبعثنا من يدب عنهم ويقاتل دونهم ، لأن الخير كله في خدمتهم والدخول في زمرتهم وتحت حكمهم وطاعتهم . والسلام .

ذكر انتقاض ما كان بيد السيد محمد العياشي وبين أهل الأندلس بسلا من الموالاة والألفة التي هي غالب أوصاف أفاضل الملا .

وكان السبب في ذلك ــ ذكره في نزهة الحادي قال : ولما وقعت وقعة الحلق الكبرَى جاءت الوفود إلى سيدي محمد العياشي بتهنئته بما فتح الله على يده من النصر وما منح من / 79/ الظفر. فحظهم على استيئصال شافة من بقي به وبغيره من الكفار وعير العرب بترك النصارَى في بلادهم ، وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبني مالك والطاغي والدخيسي من أولاد سجير وغيرهم . وقال لهم والله والله (والله) ان لم يأخذكم النصارَى ليأخذكم البربر. فقالوا له : يا سيدي وكيف يكون ذلك : فقال لهم (اسكتوا فانتم الذين تقطعون رأسي) وقد يكون ذلك بأمر الله . وعد هذا من كراماته رضي الله عنه .

قال في نزهة الحادي : وكان سيدي محمد العياشي لم يحضر بنفسه في غزوة الحلق الكبرَى ولما حضرها المسلمون باذنه فنسبت إليه ، إذ كان هو قد ذهب إلى طنجة . حنقا على يوم المسامير، حيث صنع الكفار مسامير بأربعة رؤوس : ثلاثة منها تنزل على الأرض والرابع يبقَى مرفوعا أي قائما مكيدة عظيمة تضرر منها الفرسان والرجالة من جيوش المسلمين ضررا عظيما .

ولما رجع من طنجة ، وجد تلك الغزوة قد وقعت ففرح بذلك فرحا شديدا . وأعلم بضعف من بقي في الحلق من أبطال وقلتهم . فبعث إلى أهل الأندلس الذين بسلا يصنعون له السلاليم ليصعد منها لمن بقي في الحلق . فتثاقلوا عليه ، غشا منهم للاسلام وأهله ، ومناوءة لسيدي محمد العياشي رحمه الله حتَّى جاء المدد لأهل الحلق وقويت نفوسهم وذهب خوفهم . فلما أتي بالسلاليم لم تغن شيئا بعد ان ركبها ؟

ومن هناك استحكمت البغضاء بينه وبين أهل الأندلس الذين بسلا . وكان أهل الأندلس قد كرهوا سيدي محمد العياشي لغرض غير لائق اقترحوه عليه فلم يرضه عنهم ولم يوافقهم عليه . وبغضوه لذلك وتحزبوا عليه ورموه /80/ عن قوس واحد إذ اطلع على خيانتهم للاسلام وأهله ونصيحتهم للكفر وذويه . وأعلموا النصارى بأن محلة سيدي محمد العياشي النازلة في محاصرة الحلق ليست لها اقامة . وصادقوا النصارى فأمدوهم بالطعام والشراب وتصرفوا في بيت مال المسلمين ومنعوهم من الراتب منه ، وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم .

فبلغ ذلك سيدي محمد العياشي رحمه الله ، وتحقق لديه ، فأقام عليهم الحجة كما تقام الحجج ، وشاور العلماء في ذلك واستفتاهم في قتالهم . فافتوه بجواز مقاتلة من اتصف بهذه الصفة ، وافتى سيدي محمد العربي الفاسي بجواز مقاتلتهم لأنهم حاربوا الله ورسوله ، ووالوا الكفار ونصحوهم، وكان الامام أبو محمد سيدي عبد الواحد بن عاشر الانصاري رحمه الله قد توقف عن الجواب في ذلك ولم يجب فيه بشيء إلى أن رأى بعينه ـــ حيث قدم لسلا ـــ أهل الأندلس يحملون الطعام للكفار ، ويعلمونهم بغرة المسلمين. فحينئذ افتى بجواز مقاتلتهم .

فأطلق سيدي محمد العياشي فيهم السبيل حينئذ وحكم في رقابهم السيف أياما . فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم وافترق جمعهم ، فذهبت طائفة منهم إلى النصارى ، وذهبت طائفة منهم إلى الجزائر ، وذهبت طائفة منهم إلى مراكش ، وذهبت طائفة منهم إلى الزاوية الدلائية . والح عليهم في ذلك إلى أن أخمد بدعتهم ورجع من بقي منهم إلى اجتماع الكلمة والتوبة إلى الله .

انتهى كلام صاحب النزهة بتقديم وتأخير وزيادة .

وذكر بعض من قيد في الحوادث والوقائع فقال : وكان بعض أهل

سلا لسيدي محمد العياشي منذ نشأ (كره) في نفوسهم /81/ وفي بواطنهم يسري ، وفي خواطرهم وعقولهم يتزايد ويجري ، فتطاول زمانه وطال سيرانه إلى أن ظهر عليهم وانتشر بين ملئهم وافتضح ، فأوقع بهم من القتل والإجلاء ما أوقع ، وصار يرسم في صفحات الطروس وبالأذن يسمع .

وحين استنشق صاحب مراكش محمد الشيخ رائحة هذا الافتراق ، وهبت عليه من جوارهم ريح الاختلاف ، ولاح له برق ما فيهم من الانحراف وسحائب الوفاق والائتلاف ، كاتب صاحب الدلاء السيد محمد الحاج يستفهمه عن الاختلال ، ويستوصفه عما هو عليه حالهم من الانحلال ، وما أمرهم اليه آل . فكتب اليه صاحب الدلاء بجوابه عن صحيح نصوص كتابه ، بعد حسن التسطير مما يحسن به التصدير :

(رسالة من محمد الحاج إلى محمد الشيخ الأصغر)

اما بعد ، أدام الله كلاءتكم وحرس بمنه رعايتكم ، فقد ورد علينا من ايالتكم السامية ، وحضرتكم العالية ، كتاب قد اهرق فيه ماء الفصاحة ، وأضاءت عليه أنوار الرجاحة ومضمنه ان مقامكم العالي ومحفوفكم الغاني ، له تشوف وانتظار إلى ما يرد عليه من قبلنا من الاخبار عن ذي التنسك الفاشي ، المجاهد الكبير أبي عبد الله السيد محمد العياشي ، وتوجيه ما خلص لنا اليكم من خبره ، والقاء ما يرد علينا من أثره ، كما أفصح به قبل كتابنا ، ووعد به خطابنا اليكم .

قد كان ذلك ، وحملنا متون المسالك ، انا لما وجهنا رسولنا وجهته مزعجا بلقاء جهته ، صادف قدومه اصلاحا وزوال وروده كفاحا . وان الرعية قد تم صلاحها وبدا نجاحها . وان السيد المذكور المجاهد المشهور ، ثنى عنان الحصار إلى مراسي الكفار، والملك قد شاع له من المشرب الزلالي /82/ وطاوعته الأيام والليالي، وظفر من ضالته المنشودة، وبغيته المقصودة بما ابتغى ونوى، وقنص من المشارب ما صعب والتوى. القى

عصا التسيار يسارا ، واستقر به النوَى استقرارا فحمدنا الله على أنعامه وكمال الأمر واتمامه .

ثم طرق السمع بعد ذلك ـ من غير تيقن لما هنالك ـ ان بعض الأندلسيين ممن الزمه العياشي غرم ما مضَى ، لاذ ببعض الرعية في نقض ما انبرم وانقضَى . فوقع بينه وبين الجماعة الأندلسية مخالفة ، وظهرت باثر ذلك عليهم محالفة . فما القينا إلى ذلك بالا ، ولا أعملنا للنظر فيه مجالا ، لعدم تحقيق القضية والاطلاع على ما تم من البلية ، وعلما منا بان ملاك أمرهم كافة انما هو بأيدي الخلافة الكافة .

ثم وافانا كتاب آخر يستنجز الموعود ويستكشف ما تم من الخبر محجوز ومفقود ، فها نحن نستأنف الارسال ، ونراجع الاسترسال ، ونتبع بعد القطع لنستجمع ما عند أولئك الجمع . فما تحصل لدينا بعثناه اليكم وامتليناه عليكم ، فينجلي الأمر بعد طموس ، ويتبين ما عنده من حسن أو بوس . لا زالت حضرتكم مرموقة بالرعاية ملحوظة بالعناية . والسلام

* * * *

انتهَى . وكانت هذه المراسلات في ابتداء هذا الأمر ونشأته ، والرغبة في الاطلاع عليه بعزته . قبل رضوخه وانتشاره وظهوره واشتهاره . وقبل وقوع ما تقدم مما ترتب عليه من الاجلاب والاسراف في القتل فيهم والاسهاب . وفرار الناجين منهم إلى الضواحي وإلى غير جهة من النواحي . والأمر بيد الله .

وفي أواخر جمادى /83/ الأولى من عام خمسين وألف ورد على أهل فاس الفقيه الأجل المعظم المبجل الرئيس المجاهد في سبيل الله عز وجل ، أبو عبد الله سيدي محمد العياشي بن أحمد المالكي الزياني . وكان بناحية أزمور مرابطا على الجهاد . فأوقع الصلح بينهم من حرب كانت تقدمت لهم فيما بينهم .

وفي عاشر رجب العام . ضرب أحمد عميرة كبير الأندلسيين برصاصة من علية مسجد فوق سويقة بن صافي . عدوة فاس القرويين . ومات بعد ذلك بأيام . ونشب بسبب ذلك القتال الكبير بين الأندلسيين واللمطيين . واستمر القتال بينهم مدة إلى أن قتل غادر أحمد عميرة المذكور . وهو أبو الزين . بأمر الفقيه أبي عبد الله السيد محمد بن أحمد العياشي رحمه الله ، وتم الصلح فيما بينهم على ذلك . وصاروا يدا واحدة وعلى كلمة متحدة . واتصلت بينهم الأخوة . وذهبت عنهم فيما بينهم الجفوة . والتوفيق بيد الله . والملك له .

ذكر خبر انتفاض ما كان بين السيد محمد العياشي وأهل الدلاء . من المحبة والمصادقة والألفة والموافقة في مقام الاعتلا

قال في نزهة الحادي ، قد ذكرنا قبل هذا أن أهل الأندلس الذين بسلا كانوا قد كرهوا السيد محمد العياشي . وتحزبوا عليه ورموه عن قوس واحدة إلى اخر ما تقدم في حكايتهم . وان طائفة منهم كانت قد هربت إلى الزاوية الدلائية . قال : فجاءه أهل الدلاء يستشفعون عنده في أهل الأندلس ، فأبى أن يقبل فيهم شفاعتهم . وقال لهم الرأي السديد في استئصال شأفتهم . فلما رأى أهل الدلاء /84/ امتناعه ورده شفاعتهم . غضبوا لذلك . واجمعوا على عداوته ومقاتلته .

فجاءوه بجيوش كثيرة من عرب وبربر . فخرج إليهم سيدي محمد العياشي والتقاهم بجموعه فقاتلهم وهزم جموعهم وأوقع فيهم . وفتك بالعرب الذين كانوا مع الطاغي والدخيسي . فتفرقت تلك الجموع وتبرا التابع من المتبوع . وذهب سيدي محمد العياشي بعد ذلك لغزو طنجة . انتهى .

وذكر بعض من قيد في الوقائع والحوادث فقال : ثم وقع الحرب بين العياشي وأهل الدلاء (لثورته عليهم). وهذه أول وقعة بينه وبين أهل

الدلاء ، فحنقوا عليه وعظمت منهم له العداوة ، وسلبت منهم في جانبه المروءة والسراوة ، وصاروا يرمونه بما ليس فيه ، ويسمونه باسم الجاهل السفيه ، وعاد مدحهم إياه قبل بالعلم والعمل ذما ، ووصفهم إياه بعد ذلك وصفا جما . وصانعوا صاحب مراكش في رسائلهم إليه باذايته ، وبالغوا في زخرف قولهم بذمه وإهانته ، والله سبحانه وتعالى واقيه من كيدهم ومنجيه من سوء ما بدا له من عندهم .

ولم يذكر صاحب النزهة تاريخ هذه الوقعة ولم يفصح المقيد بمحلها ولا عرج على ذكر وقتها والله أعلم بذلك .

قال في نزهة الحادي : ولما رجع سيدي محمد العياشي من غزوة طنجة ، وجد جيش البربر مع أهل الدلاء قد رجعوا إلى أطراف ازغار ، معهم الطاغي وأهل حزبه من الكراردة والدخيسي وغيره وقد عزموا على مصادمة السيد محمد العياشي . فأراد سيدي محمد رحمه الله أن يغض طرفه عنهم ، ويصرف عنانه لغيرهم ، فلم يزل به أصحابه وأهله إلى أن /85/ برز إليهم ، وتصدَّى لمقاتلتهم . فلما التقَى الجمعان ، كانت الوقيعة على سيدي محمد العياشي ، فهزم من معه ، ومات فرسه تحته ، وكان رؤساء الخلط أكثرهم في حزب الطاغي وعلى رأي الكرادي . ولما انفصل الفريقان ، رجعت البربر إلى أوطانها . ورجع سيدي محمد العياشي إلى بلد الخلط ليقيم عندهم حتَّى يلم شعته . انتهَى .

وهذه الوقعة هي ثانية الوقائع مع أهل الدلاء . ولم يذكر صاحب نزهة الحادي لهذه الكائنة وقتا ولا مكانا .

وذكر من قيد في الحوادث والوقائع تاريخها فقال : ثم في أواخر ذي القعدة العام وقع حرب اخر بين العياشي وأهل الدلاء واتباعهم ، فكان الظفر لهم عليه . قال : قال هذا أبو عبد الله السيد الطيب بن محمد

الفاسي في بعض مقيداته ، قال : ومن خطه رحمه الله نقل . انتهى .

وذكر الدلائي أيضا تاريخها أيضا في جواب له عن كتاب يبعثه اليه قاضي حضرة مراكش وهو السيد عيسى بن عبد الرحمن السكتاني ، فقال ما نصه :

(رسالة من محمد الحاج إلى السكتاني)

وما ذكرتم من نصحكم لمن بخ في انتزائه ، وتذرع بانتسابه واعترابه ، فقد بغث في الصبيحة بالادلة الصريحة والبراهين والأقاويل الفصيحة . ولا زال متبادرا في مجادة الله ورسوله ، متظاهرا بمخاريقه وأباطيله .

وقد أجلب في هذه الايام بخيله ورجله ، وزار زورة الذيب تحت جناح ليله ، وحواشي القبائل المعمرة في تلك البلاد لمصالح مركب الناس (؟) بعد يقوم مذمه (؟) ويلومن الذي دبر فيه ذلك ويذمه . وركبت الخيل اكتافهم إلى سور سلا ، لا يلوي من تقدم منهم على من تأخر وتلا . ورجع طاردوهم بغنائم كثرت افراسها وعم فرسانها افتراسها . وأسنة /86/ العزائم مشروعة اليهم ، واكف الضراعة إلى الله تعالى ممدودة للاعانة عليهم . والله سبحانه وتعالى يبقيكم علم علمٍ وهدًى ومصباح نور يضيء أبدا ، بمن الله وطوله ، وقدرته وحوله والسلام .

وفي الخامس عشر من ذي القعدة عام خمسين وألف ، عبيد ربه تعالى محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي ، وفقه الله بمنه وكرمه أمين .

* * * *

ويستفاد من هذه الأخبار أن الوقائع التي كانت بين سيدي محمد العياشي وبين أهل الدلاء واتباعهم من العرب والبربر هي ثلاثة : الأولى كانت عليهم كما تقدم ، والثانية لهم عليه ، وهي المشار إليها في هذه

الرسالة كما يذكر . والثالثة هي التي كانت لهم عليه أيضا ومات فيها فرسه تحته وانحاز بعدها إلى بلاد الخلط كما تقدم في كلام النزهة أيضا . وقوله في الرسالة : وقد اجلب في هذه الأيام بخيله ورجله أنه هو الصائل إلى القبائل . وركبت الخيل اكتافهم إلى سور سلا واضح في كونها عليه اما في العشر الأوائل من الشهر أو في أوائل العشر الأواسط لا غير بدليل تاريخ كتب الرسالة والمقيد أفاد ان الوقعة كانت في اخر الشهر ، وهو ما بعد العشرين يوما . وعليه فهما وقعتان بلا شك ، وانه لما رجع القوم عنه من أحواز سلا اجتمعوا وجردوا الحركة إليه تابعين له إلى ازغار . ولكن لا يلتئم مع قول النزهة : ولما رجع سيدي محمد العياشي من غزو طنجة .. إلى اخره . والله أعلم .

ذكر خبر سيدي محمد العياشي رحمه الله

قال من قيد في الحوادث والوقائع : وفي تاسع عشر من المحرم الحرام من عام واحد وخمسين وألف ، توفي الفقيه العالم العامل / 87 / الولي الصالح الكامل البركة القدوة الأجل الفاضل المرابط في الثغور المجاهد في سبيل الله أبو عبد الله سيدي محمد العياشي ، بن أحمد المالكي الزياني المذكور أنفا فيما تقدم قتيلا رحمة الله علينا وعليه قتله بعض اللصوص من قبيلة الخلط غدرا بموضع يسمَى عين القصب ، ودفن بازاء روضة الولي الصالح سيدي بوشتة ، نفع الله به . انتهَى .

وقال في نزهة الحادي : وكان سيدي محمد العياشي رحمه الله مقيما عند الخلط أياما ، يعني بعد الكائنة عليه من أهل الدلاء وأشياعهم كما تقدم ، فغدروا به وقتلوه رحمه الله بموضع يسمَى عين القصب ، واحتزوا رأسه وحملوه إلى سلا ، ومن كراماته المتواترة أنهم لما حملوا الرأس وساروا

به . سمعوه ليلا – يعني في موضع في الطريق – وهو يقرأ القرآن جهارا . حتَّى عاين ذلك وسمعه جميع من حضر من الناس . وكان قتله رحمه الله تاسع عشر من المحرم الحرام فاتح سنة احدَى وخمسين وألف . وقد رمزوا لوفاته بقولهم : مات زرب الاسلام . باسقاط ألف الوصل منه . انتهَى .

وقد نظم محبه ومحب الجميع الشيخ رحمه الله . وخديمه . عبيد ربه تعالى عبد الهادي بن عبد الكريم الشاوي رزقه الله رضاه تاريخ وفاة شيخه سيدي محمد العياشي رحمه الله فقال :

تاسفا يا معشر الإسلام على الولي مسدد الاعلام
تبكي السماء والأرض والمواشي فقد الرضي محمد العياشي
قد كان في الرشد والاتباع ونصرة الدين مديد الباع/88/
نجم الهدَى بغربنا أمان لم يستتر بمثله الزمان
لأنه بعام شان فات موافقا زرب الاسلام مات
بغير همز الوصل والمنقول للاستغناء عنه في المقول
يا حسرتي يا حسرتي يا حسرتي على انهدام ركنه نعم الفتي
آه على سم العداة آه لكن رضينا ما قضاه الله
نسأله سبحانه فخر العطا يحمي حماه بفرعه الرضا
بجاه عبدك الرسول المصطفَى واله وصحبه ومن خفا

انتهَى .

قال في النزهة : وفي الرحلة لأبي سالم سيدي عبد الله العياشي رحمه الله قال : أخبرني الشيخ محمد البزاز بمكة المعظمة قال : كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل العصر في السنة التي مات فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد العياشي رحمه الله . فجاءني ذات يوم وقال لي : اني رأيت في المنام أختي ورأيت رجلا جالسا معها . مقطوع اليد تسيل يده دما ، فقلت له من أنت ؟ فقال لي أنا الإسلام قطعت يدي بسلا . قال

فلما أخبرني بذلك قلت له : الذي يظهر لي في رؤياك أن الرجل الصالح الذي كان بسلا قد قتل . قال وبعد ذلك في اخر العام قدم الحجاج من المغرب وأخبرونا بموته رحمه الله . انتهى .

قال في نزهة الحادي أيضا : ومن خط الفقيه العلامة أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد ما صورته : حدثني من أثق به من الاخوان عن الفقيه العلامة الأشهر أبي محمد سيدي عبد الله بن سيدي محمد العياشي أنه وجد مقيدا بخط والده المذكور رحمه الله أن جملة ما قتل من الكفار في جملة غزواته تسعة الاف كافر وستمائة كافر ونيفا وسبعين / 89 / كافرا . انتهى .

قال ، وبالجملة فغزوات سيدي محمد العياشي رحمه الله كثيرة وحمايته للدين واضحة، شهيرة.، ودبه عن الاسلام وأهله مما هو شائع ذائع عند الخاص والعام من الأنام بقوله وفعله ، فهو كالشمس في الظهيرة . وكان رحمه الله عازما على أخذ العرائش وملحا على أخذ طنجة ، فلم تساعده الأقدار ، وحال بينه وبينهما الموت الذي لا محيد عنه ولابد منه لكل مخلوق حيّ . (وكان الذي استولي عليه سيدي محمد العياشي سلا ونواحيها وعلى تامسنا وعلى اعراب الغرب ، كل ذلك تحت طاعته وولايته) .

وذكر من قيد في الحوادث والوقائع فقال : وكان سيدي محمد العياشي في أول أمره ينسب للفقر مخالطا للولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون دفين سلا ، رحمه الله ونفع به ، ونال منه رائحة ، وتصدّى للجهاد في ثغور المغرب باذنه ، وتعدّى إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين العباد لما اقتضاه الحال ونادَى به الوقت ، وولي أمر فاس ذات مرة حسبما أشير اليه قبل وكان يترشح للخلافة فلم يتم له في ذلك أمر ، والتوفيق بيد الله . انتهى .

قال في النزهة : ولما مات سيدي محمد العياشي رحمه الله فرح

النصارَى لموته غاية الفرح وأعطوا على ذلك البشارات وعملوا ثلاثة أيام المفرحات ، وحدث رجل كان بالاسكندرية أنه رأى النصارَى يفرحون ويخلون الانفاض ، فسألهم عن ذلك ، فقالوا له : قتل سنطو . ومعناه المجاهد . والله أعلم .

ووجدت مقيدا ما نصه : وقد رثي سيدي محمد العياشي لما توفي رحمه الله بقصائد كثيرة منها ما قاله الأديب البليغ البارع الأريب أبو العباس سيدي أحمد الدغوغي رحمه الله . ونص ذلك :

ان غاض إذ فاض من افاض بحر ندا   فجف روض نداكم فج منه ندا /90/
فليحكه الدمع طوفانا علا هو عن   من لا نظير له في غربنا وجدا
واطفا النور نيران موقدها   ما لا انطفاء له من لوعة أبدا
فلا جمود لدمع لا جمود به   لما تلظي فؤادي منه مفتئدا
والشمس ان طلعت أفلاكها عضلت   أحلاكها من تجليها ببدر هدى
كم شادكم سادكم سد الثغور وكم   اذى واودي غياث الغيث مقتصدا
وكم أباد جموع الروم قهرا وكم   اردَى العدا وعن الإسلام ذاذ ردى
يا عين ويحك سحي واردفي وكني   ويا فؤاد تقاد لا اللهب والكمدا
مات السرور وسادتك الشرور وقد   سرت وفاة نصير الحق من عندا
القائم الصائم المحيي إلى الوفا   رباط خير خروج الصيد مجتهدا
العالم الدائم الحروب في مدد   واليوم صونا وصوما للعلي اعتمدا
لا خطب أفظع من هذا الملم لقد   دمى وانذهل حتّى لم يدع جلدا
بحر الكرامات روح المكرمات مَضَى   غيظ الحسود وحيد العصر منذ بدا
وقرة العين قاهر البغاة غمدا   وعصمة الدين والدنيا معا ، لحدا
هل كان الا جني للمجتنين ردا   لمن غدا بعدو الدين معتضدا
وماجد للمعتري قائد للمعتدي   وهدى للمقتني وهدا
يرجو ويرهب إذ يدعو ويرغب   ان يدنو مع الشهدا والصفوة السعدا
حتّى استجاب له رب وطاب له قرب   وقابله ارب فكم جهدا
فوق المنا نال لكن حسن قتلة   فالله يؤثر من امثاله عددا
للذات والنفس لذات لقد نهجت   منه لوصل معالي ما لهن مددا

ما كان امنع تلك النفس لو رهبت — لكنها هربت من ارتهاب ردا
خلق له الخلق الصعب الأمر حلا — من الحفظ زكي النفس سهل ندا
بعده أماد بنا عيش العلا سموا — عيش فلا عاش مولود ولا ولدا (91)
اجرأ اجراء البيت قد جرا دمه — بين الكلاب كان لم يعترض أحدا
لم يمس ولم يصبح يوما سوَى قدم — يلقي فيلحم جمعا من بيوت عدا
كان لم يصل في الله منتضلا — لله منتصرا بالله من جحدا
كان لم يقم بالحق منتقيا — للحق أو لم يقم من بطل أودا
منه اكتسَى جسد الدين الحياة إلى — ان راح بارتياح من جحدا
قد جاء في نص وحي لا يموت فتَى — قد فاز باللوح والريحان في الشهدا
من اسمه اسم أبيه واسمه صفة — توليها صفة للشاكرين يدا
كل المحاسن مولاها محمدها — وكل وجد ان جد بعده فقدا
وكل حسن واحسان غدا شيئا — قولا وفعلا ففي وجدانه وجدا
من لا ولا من باتيان الزمان به — في المكرمات بمثل يستحي صعدا
من لا ولا من بخام للثغور ومن — به لا من بان أحظَى به أحدا
من لا ولا من بخام بعده بطل — لا في الوغَى عدد الجيش ولا عددا
نار القرى في القراع من مهنده — وكم قرا الضيف من لحوم من عندا
فضاروه وقوم غدروه لهم — شيئان حكمها سيان فاتحدا
عدوا وليسوا ذوي قربَى ولا يوما — كانوا فخانوا من استدناهم بعدا
لكنهم نفر ظلوا وقد تفروا — راعيهم فليظلوا يجدون سدَى
فليضحكوا اليوم وليبكوا فقد ذهلوا — من علم ما جهلوا مما يرون غدا
وتلك أيامها دينا مداومة من — بعد محمد ان يذمم فقد حمدا
وعيشكم ال عياش فلا تهنوا — بعد محمد ان يذمم فقد حمدا
ان غاب مرعاه فالاثار شاهدة — مشهورة فلبوا برغم من جحدا
في الخلد حياه رضوان وهنأه — من مالك الملك بالرضوان إذ وجدا

يا أولياء قتيل الظلم حسبكم
سلطان نصر بقصد الذكر قد شهدا(92)

غاض ما بل فاض بعدما انفجرت — من لجة فجرت صفوا بجور قذا

بل في ابنه وبنيه الأسد ثم لهم بمن علينا في الغنا ويدا
وينتهي الأمر منكم في الامام لما عقباه ترضي وتردى أولياء عدا
فلي بما لي في صدق قولكم ما فيها من مصيب حد واجتهدا
كما لي فوز بحسن الحسنيين معا والله حسبي فعاني صدى الفدا

انتهى من نزهة الحادي . وبالله التوفيق .

وللفقيه العالم العلامة أبي محمد سيدي عبد الله بن الولي الصالح المجاهد في سبيل الله أبي عبيد الله محمد العياشي المالكي الزياني المذكور ممدوحا وقتيلا ومرثيا قبل ، يصبر نفسه على مصيبته التي أصابته بقتل والده وعدم ناصره رحمهم الله بما نصه :

احمل نفسي ما استطعت على الرضا باحكام من بالمسلمين بصير
واصبر صبر المقتفين سبيل من يرَى أنه للصابرين نصير
واسأله تفريج كربي فانه بتفريج كرب السائلين جدير

وله أيضا رضي الله عنه :

أقول لسقمي إذ تفاقم أمره وعز الدوا من كل من هو ناصر
الا فانصرف بالله عني فانني أنا اليوم جار للولي ابن عاشر

وله أيضا رضي الله عنه أرجوزة نظم فيها أهل بدر وتوسل إلى الله عز وجل في هلاك أولئك القوم الذين تمالئوا على قتل والده رحمه الله . وهي هذه كما ترَى :

فالحمد لله المجيب الداعي وبصلاته على المطاع
محمد وبالسلام والرضَى عن اله وصحبه ملء الفضا
يبدا مضطر له توسله ليبلغ الداعي به ما أمله (93)
من دفع ضر حاصل وواصل أو جلب نفع بالهنا مواصل
ومن توسل بحب للحبيب فكيف لا يجاب وكيف لا نجيب
وعبدك المضطر ان يقول مستشفعا بأهل بدر في المقول
بالمصطفَى محمد توسلي بعد صلاتي وبحمزة علي
وبعتيق عمر وعثمان بسعد وسعيد وعبد الرحمن

وبالزبير وأبي عبيدة ... وطلحة في أزمة وشدة
وبأبي كبشة معه أنس ... زيد ومرتد أبوه نبسه
وبالمبارز الشهير الارضي ... فربه بالعفو قد كساه
وبأبي حذيفة وسالم ... وبصبيح اكتني من ظالم
وبعكاشة سنان وأبيه ... ومحرز وبأبي جحش بالنبيه
وبربيعة شجاع عقبة ... وبني عمرو ويعد وعقبة
وحافظ سويبط خباب ... أبي الارث الخاشع الأواب
وبابن مسعود وبابن مزيدا ... مخشي المقداد ثم الاسودا
وبعويم وبمسعود صعيب ... وذا الشمالين عمير دون ريب
بلال الأرقم بعد عامر ... شماس بن عوف بن ياسر
وبابن سلمة مع زيد ... ومهجع مولى أخيه الأيدى
وابن سراقة ابن البكير ... أربعة بهم زوال ضيري
ومعمر وعامر ومالك ... خولي وواقد خنيس الناسك
وبني الصخور الثلاثة ... وسائب عثمانه لاثة
وبابن سمرة وابن مخرمة ... وابن سهيل وعمير فاعلمه
عمرو وعمر وابن خولة ... وبسهيل وأخيه حولة
وبعياض خاطب ووهب ... وبابن الفاتك نلت رغبي (94)
وبطليب ويزبغد وابنه ... ولبابي حصنني بامنه
بالغزاة من هدة الأوس ... من قد رموا من عبه عن قوسه
ابن ملاذ حارث سمية ... وبشريك صنوه مع ابنه
وبيز بغجد وابنه عمارة ... أخذ حق والدي وثاره
سعد وعباد كذلك سلمة ... وابن سلمة مع ابن مسلمة
ولرافع والحارث بن خزمة ... وبأبي أوس وكذاك سلمة
وبأبي الهيثم مع أخيه في ... شدائد الرسال ذا اللطف الخفي
وبابن سهل وقتادة عبيد ... نصر وعبد اله ثم ابن عبيد
وبابن جبر وبمسعود أبي ... بردة من خصه بالشاة أبي
أبي مليل ومبشر وعمير ... وعاصم رفاعة وابن قشير
سعد عبيد رافع عديم ... يبني ويس من أراد ضيم

وبابن أبي لبابة وثعلبة   يؤخذ ثار العبد ممن غلبه
وحارث مع خداش وأنيس   وابن عدي حارث هو ابن قيس
واقرن بخير ثابت بن اقرم   واسأل هناك بالرضي ابن سلم
وابن نميلة كذا ابن مسلمة   رفعي النعمان وابن خيثمة
ومنذر أبو عقيل حارث   وابني أبي حزمة قال الباحث
وبأبي جبلة معه ابن جبير   وابن جنة معه ابن عمير
نعمان الحارث عاصم تميم   ومنذر ومالك له حميم
وبالجملة من كنعاة الخزرج   وضير الصارم لخير مخرج
وبثابت وخالد وأويس   وبأبي شيخ وابن قيس
وبأبي وابن نعمان أبي   طلحة وبابن زيد أسأل وارغب
وبأبي الحارث وابن رافع   وبابن حزم انتصر ودافع (95)
وبسراقة ومسعود أبي   خزيمة وبالنعمان أطلب
ورافع وابن قيس وابنه   وعامر يحفني بامنه
وثابت وبابن قيس واذكر   عسَى القوي للضعيف ينصر
وعامر سبل وحارث عدي   ثعلبة بهم انال مقصدي
وبسنان ووديعة وزيد   عصيمة حارثة لدا أعد
ومحرز عمر وسليط عامر   قيس أسيرة بهم أفاخر
وبأبي خارجة والحارث   تحضني عن عاقد ونافث
وبسيد ومام وسليم   وبأبي كعب وسراقة تميم
وبسليم وبقيس وعمير   وبسعيد وبكعب وبجير
ونادَى بالضحاك والنعمان   وابن رواحة العظيم الشان
وبشير وسماك وابن زيد   وابن الربيع وكذاك ابن سويد
ويحبيب ويزيد سفيان   وبتميم عد من أهل الطغيان
وبحريث والرضي أخيه   زيد وعبد الله ذاك ابن سلول
ومنذر ومالك أبي أسيد   وبأبي دمانة ثم يزيد
وبأبي عمرو وأوس كعب   وبأبي عامر حياة قلبي
وبرفاعة وسعد ومعبد   ومالك وعامر ذي السؤدد
وعقبة وعاصم عبادة   ذوي الثنا والفضل والعبادة

وحارث ومالك والنعمان ... وبالرضي سمي وعتبان

وبمليل ثابت ونوفل ... وبابن حسحاس بلغ بلوغ أرملي

وبالمجدد وبابن حصير ... وبأبي اياس جانب نصر النصير(96)

ثم هماة وصنوه استعيد ... يعذك ربك تعالى حينئذ

وببني الصمت مع بني الجموح ... أغدو بهم حلف السرور وأروح

وعقبة وصنوه وابن حرام ... وبالخباب وعمير بن الحمام

وثابت عمرو تميم وحبيب ... عمرو بالبراء ابنه النجيب

كذاك عبد الله عتبة سنان ... وبابن المنذر يلهج العبيد

ثم بعبد الله والمسمى به ... وبابن ربعي الذكي ابنه

وببني قيس وبالضحاك ... أقطع دابر العدا الفتاك

وبسواد وابن الحميد ... ومعبد وصنوه وجابر

وابن سنان قطبة سليم ... كفايتي في يقظتي ونومي

وبابن اليسار وابن غنمة ... ادرك في نحر البغاة الظلمة

سهل وضيفي وعبس ذكران ... وبمعاذ ثم بأبي عثمان

قيس ومسعود وأيضا مسعود ... ثم بعباد أوفي بالعهود

وبمعاد عائد واسعد ... ورافع وانه ثم ابن عدي

وفاكه وفرة عبيد ... كفايتي من حاسد ذي كيد

وبابن أوس وبابن قيس وزياذ ... وبدخيلة سروري في ازدياد

واجمع علية وعجلانا إلى ... بني المعلي تجدهم موئلا

وتعطي عاجلا علو القدر ... مهما توسلت بأهل بدر

فالهج بذكرهم على الدوام ... وقد وفي بعدهم نظمي

في كل بيت من بيوته رجال ... تهتز من ذكرهم شم الجبال

وقد حكموا في الك الابيات ... شهبا على الأعداء منقضاة

وذا نهاية الذي في السيرة ... لعمري وهم لنا بصيرة

من رجال خمسة بالتبيان ... أغفلها كاتبها عن نسيان(97)

لكنهم كرسله في العدد ... المنطوق في اسم النبي محمد

أعني ثلاثمائة . وعشرة ... وبضعا، العلي الكرام البررة

والزائد الموجود في الابيات ... من اختلاف جا من الرواة

وذا الخلاف عندهم كثير   وهو بفضل الله لا يضير
ثم الدعاء عندهم معاب   في كل ما يضير أو ينتاب
عليهم سحائب الرضوان   تنهل كالمزن لذا الهتان
وبالصلاة والسلام أختم   على النبي وبه أعتصم
وبعدما تم نظامي ووفي   وجار من درى الكمال الشرفا
ثم عام (بياض) ما للعرب   من نسب وسان قلبه أب
رأيت من زاد على ذا القدر   زيادة عن ابن عبد البر
لم يكن العبد الكسيف الحالي   الحقها من كثرة الاهوال
ولم يرد الحاقها بذا المحل   فليلتفظ وليراجع الأصل
وليدعون لناظلك الأبيات   بالستر في الحياة وفي الممات
وانما لكل امرئ ما نواه   ومن به داء ولم يدفع دواه
يا رب يا قهار يا شديد   يا من له الحكم بما يريد
أنت تجيب داعي من دعاك   ولم تخيب قاصدا رجاك
يا ذا الجلال يا سميع يا مجيب   يا ذا الكمال يا سريع يا قريب
ندعوك بالكرام أهل بدر   وكل صالح عظيم القدر
حيا وميتا واين كانا   قد غاب أو حضر ذا المكان
عجل بثأر والدي في القرب   من ظالم وخاذل في العرب
ثم الذي منعني ولا ثني   حتى فعجل هلاكه ولاتني
وردهم في ابحر المهالك   واسلبهم حلمك مع امهالك(98)
وخذهم أخذ عزيز مقتدر   مصبحين بعذاب مستقر
ولا تغيب عنهم كل مضر   حتى يكون كهشيم محتضر
واجعلهم عبرة كل معتبر   فانت قادر ونعم المقتدر
واتهم من حيث لا يحتسبون   لأنهم فجرة مكذبون
وصدق الرسول فيما أخبرا   ولم أشك بل رجوت أن أرى
انك تغضب لمن يجاهد   لاسيما من هو فيه واحد
بمثل ما تغضب للنبيئين   ادى نبيك الرسول الموتمن
هذا وقد أوجبت نصر المومنين   عليك حقا يا الك العالمين
ولم تخصص في كلامك القديم   والوعد لا يخلفه المولى الكريم

بـالحزن وعـدك يـا جـبـار وانصر ذلـيلا مـا لـه أنصار
وخـذ بـثـأره من الـعـداة عشـيـة الـيوم أو الـغـداة
بجاه من حضر بدرا وشهد ومن اتاهزم من السماء مدد
من الملائكة فيهم جبريل نـعم الوزيـر لـلـنبي والمعين
عـلـيهـم الصلاة والسلام مـا دامت الأرواح والأجـيـام
قد انتهَى توسل المستعطف لـربـه ومويـد المسـتـلـطف
وثُم فـاستغنَى عن الزيادة والحمد في البدو والاستعادة
لـنـاصر المسـتـخـرج المظـلوم وقـاهـر المسـتـدرج الـظـلوم
وصل يا رب وسلم وارض عـدد من حـل سما وارضا
على الـنبي والـه وصـحـبـه والله يقضي سؤل من يدعو به
آمين رب الـعـالمين آمين بجاه من أتَى به الروح الأمين

* * * *

انتهَى بحمد الله .

قال في نزهة الحادي : فلم تمض الا مدة يسيرة حتَّى دارت عليهم دائرة السوء المسيرة ، فلم ينج منهم (99) أحد ، والحكم لله الواحد القهار ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والله يقضي بالحق ، وبيده أمور الخلق ، وهو السميع البصير .

انتهَى ما قصد جمعه مما وقفنا عليه من أخبار سيدي محمد العياشي رحمه الله ، وجعل الجنة منزله ومثواه . والحمد لله رب العالمين . كمل بحمد الله وحسن عونه ومنه .

فهرس الاعلام
الوارد ذكرها في كتاب الخبر

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

لائحة بأهم مصادر البحث

1 – **أبو املاق عبد القاهر :**
الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد .
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 91

2 – **بوجندار محمد الرباطي :**
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 1044

3 – **التطواني محمد داود :**
تاريخ تطوان – تطوان / 1959

4 – **حجي محمد :**
الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي .
المطبعة الوطنية – الرباط / 1964

5 – **الحوات سليمان :**
البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية .
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 261

6 – **ابن خلدون عبد الرحمن :**
كتاب العبر – دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر – 1959

7 – **الدكالي محمد بن علي السلاوي :**
الاتحاف الوجيز باخبار العدوتين المهدي إلى مولانا عبد العزيز
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 42

8 – **الزياتي عبد العزيز :**
الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة .
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم ج 66

9 – **الزيانـي أبو القاسـم :**
الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا :
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 659

10 – **ابن زيدان عبد الرحمن :**
اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس .
المطبعة الوطنية – 1929

11 – **الفاسي محمد بن يوسف عبد الرحمن :**
زهرة الشماريخ في علم التاريخ .
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم 2436

12 – **الفاسي محمد بن يوسف :**
ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع
مطبعة الأزرق – 1305هـ

13 – **الفاسي عبد القادر بن محمد :**
ذكر من توفي من الأعيان .
ربما كان : كتاب الاعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 283

14 – **الفاسي محمد البشير :**
قبيلة بني زروال ، مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية
مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي – 1962

15 – **الفشتالي عبد العزيز :**
مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفا
حققه عبد الكريم كريم .

16 – **القادري محمد بن الطيب :**
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني .
المطبعة الفاسية – 1310 .

17 – **نفســه :**
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني .

نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم ك 2253 .

18 – نفســـه :
التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر .
نسخة خطية – خزانة الوثائق – رقم د 676 .

19 – ابن القاضي أحمد المكناسي :
درة الحجال في غرة أسماء الرجال . الرباط – 1934 .

20 – السائح محمد بن عبد السلام :
سوق المهر إلى قافية ابن عمر .

21 – السكتاني عيسَى بن عبد الرحمن :
أجوبة السكتاني – جمعها بعض تلامذته – نسخة خطية – خزانة الوثائق رقم : د 1016 .

22 – السوسي المختار :
اليغ قديما وحديثا .

23 – الكتاني محمـــد :
سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس .
مطبعة فاس – 1316هـ .

24 – لعشاش بلقاسم بلعربي :
بيوتات مدينة سلا .
مخطوطة الخزانة الصبيحية بسلا – رقم 1344 .

25 – المراكشي عباس ابن ابراهيم :
الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام .
فاس – 1355هـ .

26 – الناصري أحمد بن خالد :
الاستقصا لاخبار المغرب الأقصي – الدار البيضاء – 1954 .

27 – الافراني محمد الصغير :
نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي .

حققه : السيد هوداس– 1888 .

28 – نفسه :
صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر.
نسخة خطية– خزانة الوثائق– رقم د 2409 .

29 – اليوسي الحسن :
المحاضرات : فاس 1317هـ .

Africain (J.L.L.)
Description de l'Afrique – Tr. Epaular – Ed. Maisonneuves Paris – 1956.

Ayache Germain
le sentiment national dans le Maroc du 19° siècle.

Bernard Paul
Les anciennes impots de l'Afrique du Nord.
Ed. des Tablettes – 1925.

Boutaleb Brahim et autres
Histoire du Maroc.
Paris – Hatier – 1967.

Braudel Fernand
La Méditerrannée et le monde méditerranèen à l'époque de Philippe II.
Paris – A. colin – 1966.

Brunot Louis :
La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé.
Paris – Ed. Leroux – 1920.

Caillé Jacques :
La ville de Rabat jusqu'au protectorat.
Ed. d'art et d'histoire – 1949.

Castries (le Comte Henry de –)
Les sources inédites de l'Histoire du Maroc. Archives et bibliothèques des :
Pays Bas (Tom : I – II – III – IV et V) France (Tom : II et III)
Angletterre (Tom : II et III).

Celerier Jacques :
Les Merjas de la plaine du Sebou. in Hesp – 1922 – 1 et 2. tri.

Coindreau Roger
La Casbah de Mehdia.
Rabat – Ed. Laporte – 1946.

Le même
Les corsaires de Salé. Paris – 1948
Colin Georges
Projet de traité entre les morisques de la casbah de Rabat et le roi d'Espagne en 1631/ in Hesp – 1955 – xlii XLII
Cour Auguste
L'établissement des dynasties des cherifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la règence d'Alger – Ed. Leroux – 1904.
Couste Jean
1er grandes familles indigènes de Salé (1925). Rabat 1931.
Dan (R.P. François – Pierre)
Histoire de la Berberie et ses corsaires... Paris – Pierre Rocolet – 1848.
Domenech (Capitan –)
El-Habt ; notas sobre la Gharbia. Tetuan – 16/12/1937.
Descola Jean
Histoire d'Espagne.
Fayard – 1967.
Fagnan Edouard
Extraits inèdits relatifs au Maghreb.
Alger – Jules Carbonel – 1924.
Goulven Jean
La place de Mazagan sous la domination portugaise (1502-1769) Paris – 1917.
Julien CH. André
histoire de l'Afrique du Nord de la conquète arabe à 1830. Paris – Payot – 1920.
Laroui abdallah
L'Histoire du Maghreb.
Paris – Maspero – 1970.
Lapeyre Henri
géographie de l'Espagne morisque. S.L.V.P.E.M. 1959.
Le Coz Jean
Le Charb – Fellah et Colons / 1964.
Levi-Provençal – Edouard
Les Historiens des chorfa.
Paris – 1922.
Le même
Manuscrits arabes de Rabat.
Paris – Leroux – 1921.
Marmol (Luis Carvajal de –)

description générale de l'Afrique.
Grenade — 1573.

Massignon Louis
Le Maroc dans les premiers année du 16° siècle.
Tableaux géographique d'après Léon L'Afriqain. Alger — 1906.

Mauser Hehri
La prependerance espagnole (1559-1660).
Peuples et civilisation.

Menezes — Don Fernando de —
Historia de Tanger durante la domination portuguéra.
Traduction d'El R.P. Buenaventura Diaz / Tanger — 1940.

Mascarenhas Don Jeronimo
Historia de la ciudad de Ceuta.

Michaux — Belaire E :
Le Gharb —
in ; Archives marocaines — Vol : XX — 1913.

Moran (Docteur —)
Une republique de pirates.
Archives berbères — Vol ; II — 1917.

Penz Charles
Les captifes français au Maroc du 17° siècle.

Peretiè
Le rais El Khadir Ghaïlan.
Archives marocaines — Vol : XVIII — 1912.

Prado Don Josè
Historia de Ceuta.
Madrid — 1859.

Robert Ricard
Mazagan et le Maroc sous le règne du sultan Moulay Zidan (1608-1627).
D'après le «discurço» de Gonçalo Coutinho, gouverneur de Mazagan (1629).
Paris — Geuthner — 1956.

Le même
un document portugais sur la place de mazagan au debut du 17° siècle.
traduction française avec introduction et commentaire. Paris — Geuthner — 1932.

Le même
un opuscule rare sur la place portugaise de Mazagan (1752).
in Hesp — 1941 — Tome V XXVIII

le même
Le Maroc à la fin du 16° siècle.
Hesp — 1957 — 4° Tri.

Le même
Ambassadeurs, envoyés particuliers et reprèsentants officieux de la France au Maroc.
Hesp — 1951 — 4° Tri.

Le même et Caillé Jacques :
Salé-le-Vieu et Salé-le-Neuf.
Hesp 1947 XXXIV

*